أصول التصوف الإسلامي

دكتور
حسن الشرقاوي

١٩٩١

مقـــــدمة :

يلوك بعض المستشرقين والمستغربين الذين يخوضون فى الاســلام بعامة والتصوف بخاصة ، بكثير من الادعاءات التى لا نصيب لها من الصحة، والطعن فى التصوف الاسلامى وحقيقته بلا سند ولا دليل صادق •

ويبدأ طعونهم فى أصل كلمة صوفى ، ويحاولون أن يلصقوا هذا اللفظ بمذاهب فلسفية قديمة شرقية كانت أو يونانية ، ويتعسفون عسفا شديدا فى استنتاجاتهم ، ليلحقوا التصوف الاســلامى بمن قبلهم من أصــحاب المذاهب الصوفية فى الديانات والعقائد التى سبقت الاسلام من الناحيــة الزمنية •

كما أنهم يركزون من ناحية أخرى على مفهوم التصوف فى الاسلام ، ومفهومه فى الديانات الاخرى القديمة ليربطوا بين مضــامينه وأشــكاله المختلفة فى نسيج واحد ، حتى ينتهوا الى الزعم بأن التصوف الاســلامى امتداد وامتزاج بأنواع أخرى من التصوف ، وأنه ليس له استقلال ذاتى ، بهدف أن يبلبلوا الاعتقاد بالتصوف الاسلامى ويشوشــوا على الرســالة المحمدية ، وذلك لعجزهم التام عن سلب المسلم ايمانه بدينه القيم وشريعته السمحاء •••

وهناك اتهام شائع بأن لفظ الصوفية هو لفظ مستحدث ليس له أصل فى صدر الاسلام ، وأن أول من استخدمه هم البغداديون ، وذلك بقصــد التشكيك فى قمة الايمان وهو التوحيد مثلما شككوا فى المسيحية من قبــل وزعموا أنها قائمة على الاقانيم الثلاثة الاب والابن والروح القدس •

ونسى هؤلاء الزاعمون أن أهل الصفة كانوا فى صدر الاسلام وفى عهد الرسول ﷺ ، ومن صحابته الذين يدعون الى الله ويجاهدون فى سبيله فى العشى والاسحار ، وكان سلوكهم وأخلاقهم وسماتهم هى نفسها أخلاق وسمات الصوفية المسلمون من بعدهم •

ولقد كان الرسول ﷺ ، يتزاور مع أهل الصفة فى ثغورهم ، ويقتسم معهم الهدايا والهبات ، وكان شغلهم الشاغل هو العمل لله وذكره قياما وقعودا •

ويكفى أن نعلم أن كثيرا من أهل الصفة مثل سلمان الفارسى الذى قال فى حقه رسول الله ﷺ « سلمان منا أهل البيت قد كانوا من المبشرين بالجنة والناجين من النار ، وكان يزيد عددهم على الثمانين صحابيا ••

ويقع كثير من الخائضين فى التصوف الاسلامى ، فى الزلل عندما يزعمون أنه ليس هناك غير لفظ صحابى ولفظ تابع فى الجيل الثانى من المسلمين •

والحقيقة أنه ليس هناك تعارض البتة بين أن يكون الصحابى من أهل الصفة وبين أن يكون الصحابى من غير أهل الصفة ، وتصديقا لما نقول لقد ذكر الامام الاصبهانى صاحب حلية الاولياء ترجمة مستفيضة من أهل الصفة ، والصحابة من غير أهل الصفة • وليس هناك تعارض بينهم اذ أنهم جميعا يستقون من مشرب واحد وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ •

ومن هذا يتضح أن للتصوف الاسلامى أصولا واضحة فى الصدر

الاول للاسلام ، أساسه فى المقام الاول صحابة رسول الله بعامة ، وأهل الصفة بخاصـــة ..

وهذا يعد دليلا قاطعا على أن مصادر التصوف الإسلامى اســلامية لا شرقية ولا غربية .

ويورد المستشرق « ماسينون » فى مقاله الذى كتبه فى دائرة المعارف الاسلامية عن مادة التصوف ، أن لقب الصوفى لم يظهر الا فى النصـــف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، على يد جابر بن حيان الكوفى صـــاحب الكيمياء الذى كان يدعو الى مذهب خاص للتزهد ، وكذلك عند أبى هاشم الكوفى (الصوفى) .

ونحن نختلف كل الاختلاف على ما أورده المستشرق ماسينون ، مع من تابعه فى هذا الرأى سواء كان المستشرق الانجليزى « نيكلسون » أو العلامة « بروكلمان » ، حيث نشتم فى هذا الرأى رائحـــة الادعاء الذى لا سند له من الحقيقة ، بقصد فصـــل صـــوفية الاسلام عن دينهم القيم وشريعتهم السمحاء .

فلا شك أن التصوف السنى كما سبق القول قد ظهر بسماته ومراسمه وخصائصه عند صحابة رسول الله ﷺ ، وتكفى شخصية عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما دليلا على صدق ما نقول ، حيث يعدان بحق من أقطاب التصـــوف الاســـلامى ، كما سنثبت ذلك ان شـــاء الله فى الصفحات القادمة .

ويزعم « ماسينون » أن لفظ صوفى ظهر سنة ١٩١هـ ، ويدلل على صحة دعواه أن هذا اللفظ راجع الى أصحاب مذهب شيعى من مذاهب التصوف ، بدأ ظهوره فى الكوفة . وكان عبدك كما يدعى هو آخر الائمة الذى توفى بغداد سنة ٢١٠هـ .

ويبدو أن « ماسينون » يربط بين التصوف الشيعى والتصوف السنى ، بقصد أن يثبت نظرية متوهمة فحواها أن التصوف الاسلامى متأثر بالمانوية ، أو بمعنى آخر بالثقافة الارامية التى كانت مؤسسة على نظرية الحب الالهى ، كما تأثر التصوف الاسلامى من ناحية أخرى بثقافة البصرة المتأثرة بالثقافة الهندية .

ولقد تضاربت أقوال المستشرقين والمستغربين فى أصل كلمة صوفى فمنهم من نسبها الى الصفاء والى الصفة والى رجل اسمه صوفه ، والى صوفة القفا والى الصوفانه وهى نبات ينبت فى الصحراء والى الكلمة اليونانية صوفيا .

ولو كانت هناك استقامة وعدل فى النفس ، ما حدث هذا التضارب ، اذ أنه واضح تمام الوضوح أن كلمة صوفى اشتقت من الصفاء ، والصفاء من أهل الصفاء الذين هم أهل الصفة الاصفياء .

لقد كان أهل الصفة لا يهتمون كثيرا بمظهرهم الخارجى ليكونوا قدوة لغيرهم ، فكان لباسهم الصوف ، وهو فى ذلك الوقت لباس الفقراء من رعاة الاغنام ، كما أن هذا الزى هو زى من سبقهم من الانبياء والصالحين

للدلالة على التعبد والتزهد والتواضع لله دون الاهتمام بحظوظ النفس ورغباتها الدنيوية ...

لقد كان يرتدى رسول الله ﷺ الصوف ويركب الحمار ويجلس كما يجلس العبد ، وقد ورد عن عمر بن الخطاب وصفه لرسول الله ﷺ (لبست الصوف وركبت الحمار واردفت خلفك) .

ويعلق الكلاباذى صاحب التعرف على ذلك فيقـول : « أن الصـوفى نسبة الى الصفاء والصفة والصف والصرف وكلها تعبيرات تدل على معنى واحد كان عليه أهل الصفة من صحابة رسول الله .

ويبين لنا القشيرى فى الرسالة القشيرية أنه يجب عدم التركيز على الاشتقاق اللغوى ، انما سمى الصوفية صوفية وذلك لتميزهم عن غيرهم من أصحاب الحديث واللغة والتفسير وعلم الكلام وغيرهم .

لقد كشف الصوفية عن أن تعبيراتهم وألفاظهم ومصطلحاتهم وأذواقهم وأحوالهم ، أمور تستعصى على الواصف ، وتعلو عن التعبير عنها ، فقد أشاروا الى ما أدركوه أو شاهدوه أو كشف لهم عنه من الاحوال بأنها أمور ذوقية أو وجدانية لا تستطيع اللغة التعبير عنها أو ترجمتهـا بالالفـاظ المتعارف عليها لانها أبعد غورا ... وأكثر عمقا ومعنى ..

فالتصوف الاسلامى انما هو فى تعبيرات موجزة الاسترسال مع الله والاستسلام له تعالى ، أو هو الانشغال بالحق تعالى ، والمشغول بالحق محجوب عن الخلق .

فلا شغل للصوفى فى وقته مع الله أى شاغل ، فهو مشغول دوما بقلبه مع الله ، وكما يقول المحاسبى هو فى وداد دائم مع الله والوداد شوق اليه تعالى والشوق أصل الحب الالهى .

وبذلك لا يمكن الفصل بين التصوف وبين الاسلام لان التصوف هو قمة التوحيد وقمة التوحيد شهود لا اله الا الله ..

يرى الامام الغزالى أنه بعد دراسة جميع العلوم والفلسفات (المنقذ من الضلال) يرى بعد استمراره سنوات طويلة فى دراسة هذه العلوم :

« وعلمت أن طريقتهم « الصوفية » انما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقابات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل الى تحلية القلب من الاوصاف لغير الله وتحليته بذكر الله » .

وينتهى الامام الغزالى الى القـول :

« أن الصوفية هم خاصة الخاصة فى الملة الاسلامية للوصول الى الله»

من هذا يتضح لنا أن الذين أخرجوا التصـوف السـنى عن دائرة الاسلام بوعى أو بغير وعى قد وقعوا فى الزلل ، فاننا نحاول فى هذا الكتاب اثبات الاصول الاولى للتصوف الاسلامى ، مقتدين بالنبع الذى لا ينضب وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والاقتداء بالصـحابة والتابعين وتابـع التابعين حتى نخلص الصوفية من المزاعم المفتراه والدعاوى الكاذبة التى تلحق بهم من قريب أو بعيد . وفقنا الله والله ولى التوفيق .

الاسكندرية ٩ مايو ١٩٨٦

أول رمضان ١٤٠٦ هـ

دكتور حسن الشرقاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل الحمـــد لله وســـــلام على عبـــاده الذين اصـــطفى الله خير أما يشركـــون » .

(النمل : ٥٩)

الباب الاول

الاقطاب الاول

مقدمة :

لقد سمى الله تعالى فى كتابه العزيز علم طريق الاخرة ، وما سلكه السلف الصالح من أخلاق ، وما استقوه من معارف متنوعة ... سمى الله تعالى ذلك فقها وحكما وضياءا ونورا وهديا ورشدا وعلما .

ولقد مرت فترة من الزمن أصبح طريق الاخرة وما سلكه السلف الصالح من أخلاق بين الناس مطويا ، وصار نسيا منسيا .

لذلك فقد شمر العلماء المخلصون جل جهدهم فى ابراز هذا العلم والاشتغال به والكشف عن مناهج السلف الصالح الذين استقوا هذا العلم النافع من رسول الانسانية ، وخاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ .

لذلك لقد أبرزنا فى هذا الباب أقطاب الاسلام الاول بعد أن عرفنا للرسول ﷺ القدوة فى الفكر والسلوك والتطبيق .

ويعد صحابة رسول الله ﷺ ، المعلمون الاول وأقطاب الدعوة الصوفية ، كما سنعرض فى هذا الفصل .

فالصديق هو قطب الدعاة ، والفاروق عمر قطب الزاهدين ، وعلى بن أبى طالب باب العلم والحكمة ، وذو النورين قطب المتبتلين ، وهم جميعا من المبشرين بالجنة رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأحبهم وأحبوه ، فأغدق عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة مالا عين رأت وما أذن سمعت وما خطر على قلب بشر .

فتعال معى أيها القارىء العزيز لنستقى بعض معارفهم ونتذوق بعض مشاربهم عسى الله أن ينزل على قلوبنا السكينة ويتوفانا معهم على قلوبهم وأقدامهم فى الطريق الذى انتهجوه ووصلوا به الى المقامات الرفيعة والدرجات العالية ، انه سميع مجيب .

الفصـــل الاول

الرســــول القــدوة

بدأ الرسول — ﷺ — أول ما بدأ بـ (اقرأ) ، واقرأ لها دلالتها اذ هى وحى من الله عز وجل عن طريق جبريل الامين عليه السلام . ولم يكن الرسول ﷺ بقارىء ، لكن جبريل عليه السلام قال له كما ورد عن عــز من قائل :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربــك الاكرم ، الذى علم بالقلم » (العلق : ١،٢،٣،٤)

بدأت الدعوة الاسلامية اذن بعلم وهبى وهبه الله تعالى للرسول ﷺ بلا مكابدة ولا معاناة ولا تحصيل ولا اكتساب ، انما بوحى منه تعالى .

فمن آمن بالله خالقا ، وبالرسول ﷺ نبيا ومبشرا ونذيرا فان عليــه أن يؤمن بالعلم اللدنى ، الذى يأخذه المؤمن من الله بلا واسطة أو حجاب ، واذا كان هذا العلم لا يحظى به الا طبقة خاصة وهم المؤمنون ، الا أن ذلك ليس معناه أن ينكره الحاقدون والطاعنون فى الاسلام .

لقد أخذ الصوفية بالعلم اللدنى ، وفتح لهم بعض أسرار الله وكشفت عنهم بعض الحجب ، وعاينوا بعض النعم ، والمعارف الالهية يقظة ومناما . وذلك اقتداء بشخصية الرسول ﷺ لانهم واكبوا سنته المباركة وساروا على هديه وتتطبعوا بطباعه ، وحاكوه فى سلوكياته ، ومشوا على أثره .

وهكذا كان التابعون بعد الصحابة على قدم رسول الله ﷺ .

لذلك نجح المسلمون فى عصور الاسلام الزاهرة فى قيادة العالم كله علميا وأخلاقيا وسلوكا عمليا لانهم استنوا بسنة الرسول ﷺ فى تفكره وفى مأكله ومشربه وملبسه ونظرته الى الدنيا وطلبه الاخرة • ولم يضعف المسلمون ولم يهنوا الا عندما تركوا شريعة الله ، ونسوا الاقتداء برسول الله فأصبحوا الان من المستذلين فى الارض والمستضعفين •

تكالب المسلمون اليوم على المال والرياش وتركوا قدوتهم الممثلة فى شخصية الرسول ﷺ التى ترى فى المال والرياش وزخرف الحياة الدنيا وسائل وليست غايات ، ويمكن التزهد فيها لتحقيق شرع الله ومنهاجه فى الارض ، ومن أجل أن يكون العيش الحقيقى ليس عيش الدنيا الفانية، وانما عيش الاخرة الباقية •

وفى هذا المعنى يحدثنا الرسول ﷺ ويقول :

« أتانى جبريل (عليه السلام) بمفاتيح خزائن الارض ، فو الذى نفسى بيده ما بسطت اليها يدى »[1] •

لو علم المشرع أن المال يمكن أن يكون غاية للانسان لبسط يده الى مفاتيح خزائن الارض ، ولو علم فيها خيرا له ولامته ما تركها أبدا ، ولبسط يده اليها فأخذها ونعم بها لنفسه وصحابته وأمته جميعا ، لكنه ﷺ تزهدت نفسه فى الدنيا ونعيمها بعد أن أطلعه الله — سبحانه وتعالى — على حقيقتها

وتصف لنا عائشة (رضى الله عنها) معيشتها فى بيت رسول الله ﷺ فتقول :

---

(١) ذكر هذا الحديث ابن المبارك فى كتابه الزهد •

« كان يأتى علينا أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رسول الله مصباح ولا غيره »[٢] .

وعندما سئلت عائشة (رضى الله عنها) فيم كنتم تعيشون ؟

ترد على السائل قائلة :

« بالاسودين » (التمر والمــاء) .

ويروى أبو ذر عن الرسول ﷺ أنه قال له :

« يا أبا ذر ان أمامك عقبة كؤود لا يقطعها الا كل مخف »*

ويرد أبو ذر الغفارى متسائلا : « أ أنا منهم يا رسول الله ! »

فيقول ﷺ :

« ان لم يكن عندك الا قوت ثلاثة أيام فأنت منهم »[٣] .

لقد زهد رسول الله ﷺ فى الدنيا مع قدرته عليها ، وزهد فى المال مع قدرته على الامتلاك وزهد فى المأكل والمشرب والملبس والفراش مع قدرته على العيش فى رغد ونعيم .

كان فراشه الذى ينام عليه من آدم وليف ، وتصفه لنا عائشة (رضى الله عنها) فتقول :

« كان ضجاع* الرسول ﷺ الذى ينام عليه وسادة من آدم* حشوها ليف »[٤] .

---

(٢) ابن المبارك ، كتاب الزهد ــ الجزء الاول ، ص ٣٤٥ .

★ مخف ، أى مخف عن الطعام .

(٣) أخرجه البيهقى فى شعب الايمان مع تغير فى اللفظ ، ذكره ابن المبارك فى كتاب الزهد بلفظه فى الجزء الاول ص ٣٧٦ .

★ فراش ، والادم : هو باطن الجلد اى جلد ناقة او كبش .

(٤) اخرجه الترمذى وذكره ابن المبارك فى كتاب الزهد .

فهل يمكن أن يقال أن هناك من التابعين والصوفية من كان أكثر من رسول الله زهدا فى الحياة الدنيا ونعيمها ؟

وهو الذى يملك ويهجر . ويعطى فيزهد ، وهو بخلاف الذى لا يملك ثم يزعم أنه يزهد .

لقد كره الرسول ﷺ هؤلاء الذين اغتروا بالدنيا وجعلوها جل همهم فعبدوا الدرهم والدينار وسماهم ﷺ بالاشرار ، ويقول فيهم :

« شرار أمتى الذين ولدوا فى النعيم وغذوا به ، همهم ألوان الطعام وألوان الثياب ، يتشدقون بالكلام »(٥) .

حدد لنا الرسول ﷺ الشر والاشرار وبين لنا أنهم المنغمسون فى الرفاهية والتنعم على حساب المثل العليا والمعايير الاخلاقية والاداب ، وأن هذه الحياة التى يعيشون فيها لا خير فيها لامته من بعده .

فلو كان التنعم بالملك والسلطان والطعام وبشهوة الكلام ما رفضه رسول الله ﷺ ولطلب أن يكون نبيا ملكا لا نبيا عبدا .

لقد حضره أحد الملائكة وقال له :

« يا رسول الله ان الله تعالى يخيرك بين أن تكون نبيا ملكا وبين أن تكون نبيا عبدا » .

فيرد ﷺ ويقول :

« بل نبيا عبدا »

---

(٥) ذكره الاوزاعى عن عروة بن رويم ، كما ذكره ابن المبارك فى كتابه الزهد .

لقد كان الرسول ﷺ يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد دائم التفكر ، لا يتكلم فى غير حاجة ، كثير البكاء والضراعة لله ، يمشى مع الفقراء والمساكين ليقضى حوائجهم ويتواضع فيخيط نعله ويرفع ثوبه ويحلب شاته ويخدم أهله ، ويعود المرضى من الكفار وأهل النفاق كما يعود مرضى المؤمنين(٦) .

وقد كان ﷺ يركب الفرس والبعير والحمير ويشهد الجنائز ويزور قبور المسلمين ويسلم عليهم ويستغفر لهم ، فكان يركب ناقته منفردا أو يردف خلفه خادمه أو زوجة ويكرم أهل الفضل ويتواضع لاكابر الناس ولو كانوا كفارا لانه كان يرى أنه اذا أتاه ضيفا كريما فعليه أن يكرمه(٧) .

كان ﷺ يمزح ولا يقول الا حقا ، ولا يخاف شيئا من أمر الدنيا ولا يحقر مسكينا لفقره ، ولا يهاب ملكا لملكه ، يزور بعض بساتين اخوانه اكراما لهم* .

« فهو أعظم الناس عشرة وأفضلهم حياءا لا يثبت بصره فى وجه أحد» أكثر الناس صمتا فى غير كبر ، وأنصحهم للناس فى غير تطويل ، يقبل الهدية ولو جرعة لبن ، ويجزل العطاء عليها بأكثر منها ، فاذا قدمت له الصدقة فلا يأكلها ، انما يوزعها الفقراء والمحتاجين .

ان غضب لا يغضب الا لربه ولا يغضب لنفسه أبدا لا ينطق الا الحق ولو كان يعود عليه بالضرر .

---

(٦) للمزيد راجع كتاب الزهد لابن المبارك . كذلك للمؤلف الاخلاق الاسلامية ص ٤٥—٥٢ .
(٧) المرجع السابق .
★ للمزيد راجع : نور الابصار — الشبلنجى .

ينظر فى تواضع الى الارض أكثر من نظرته الى السماء من رآه هابه ومن خالطه أحبه ، يعرف فى وجهه غضبه ورضاه .

لقد كان رسول الله ﷺ أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس ، ما طلب منه أحدا شيئا وقال لا ، وما أغضب خادما قط ، ولا انتهره قط ، وما قال له لشيء صنعه لماذا صنعته ؟ ولا لشيء تركه لماذا تركته ؟

من المأثور عن رسول الله ﷺ أنه كان يجلس مجلس حلم وصبر وحياء ، وما سلم على أحد بيده فأرسلها عنه حتى يرسلها ، لا يجلس ﷺ الا وهو يذكر الله .

وعندما يغضب لا يقول الاالحق ، منع أصحابه أن يمشوا خلفه ، ان كان يقدمهم أمامه .

عامل زوجاته بالحسنى وسوى بينهم فى النفقة والايواء ، أما المحبة فيقول :

« اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »(٨) .

ولقد اختص رسول الله ﷺ بكرامات كثيرة فضلا عن المعجزات التى أنعم الله بها دون غيره من الناس ، ونجد هذه الكرامات العديدة فى كتب الحديث عن الائمة المسلمين وقد أجمعوا عليها(٩) .

يقول بعض الصوفية : « أن للانبياء معجزات وأن للاولياء كرامات وللاعداء مخادعات » .

---

(٨) للمزيد كتاب ابى نعيم ، حلية الاولياء ، الجزء الاول ص ١ وما بعدها.

(٩) راجع للمزيد : كتاب حلية الاولياء جـ١ — ابو نعيم الاصبهانى — وكتاب الزهد لابن المبارك ، وكتاب نور الابصار للشبلنجى .

ومن هذا فانه لا ينكر على الصوفية كراماتهم التى اختصوا بها لسيرهم على قدم الرسول ﷺ •

ولم يزعم أحد منهم أنه صاحب معجزات ، انما يقررون أن الكرامة تأتى على أيدى الصالحين والاولياء لحكمة يعلمها الله تعالى •

والصوفية لا يهتمون بما يحدثونه من كرامات وخرق عادات ما لم تكن على الشريعة ، فلا يعول على من يمشى على الماء أو يطير فى الهواء أو يأتى بفاكهة الصيف فى الشتاء ما لم يكن مؤديا لحقوق الله ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر متأدبا بآداب الله لانه يجوز أن تكون الكرامة امتحان له من الله ، واختبار لمعدنه فلا يفتن عندما ينعم الله عليه ببعض هذه الكرامات خوفا من الافتتان والعبودية لله •

لقد اختص الرسول ﷺ وهو قدوة الصوفية فى كل زمان ومكان ببعض الكرامات فضلا عن المعجزات التى أنعم الله عليه بها •

ومن هذه الكرامات على سبيل المثال لاالحصر(١٠) :

١ — أنه كان اذا مشى مع طويل القامة بان عليه ، واذا جلس يكون كتفه أعلى من أكتاف الجالسين •

٢ — فضل ﷺ على الناس أجمعين بأربع خصال ، بالسماحة والشجاعة وشدة البطش وكثرة الجماع وقد أعطى قوة أربعين رجلا فى البطش والجماع •

٣ — لم ير له ﷺ ظل فى شمس ولا قمر ولم يقع ظله أبدا على الارض ، كما لم يقع ذباب على ثيابه ولا آذاه قمل أو نحوه •

---

(١٠) للمزيد : راجع السير النبوية لابن هشام ١٤٥ — ٩٢

٤ — تطوى له الارض طيا اذا مشى .

٥ — ومن كراماته ﷺ ، المعروفة أنه كان يرى من خلفه ما كان يراه من أمامه ، كما كان يرى فى الليل والظلمة ما كان يراه فى النهار والضوء .

٦ — لم ير له قط أثر قضاء حاجة بل كانت الارض تبتلعه .

٧ — عندما كان يبيت رسول الله ﷺ جائعا يصبح شبعانا اذ كان ربه يطعمه ويسقيه .

٨ — من رآه فى المنام فقد رآه حقا فان الشيطان لا يتمثل بصورته أبدا .

٩ — لقد اختص رسول الله ﷺ باختراق السموات السبع والقرب من سدرة المنتهى ووطء مكانا ما وطئه نبى مرسل ولا ملك مقرب ،ورأى فى حياته الجنة والنار .

يروى عن كعب الاحبار أنه قال(١١) :

نجد مكتوبا فى التوراة أن محمدا رسول الله — عبد مختار لا فظ ولا غليظ ولا صخاب فى الاسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة لكنه يعفو ويصفح .

فهل يمكن بعد عرضنا لشخصية الرسول ﷺ ومعجزاته وكراماته أن يزعم بعض الطاعنين فى الاسلام والحاقدين عليه أن للرسول ﷺ هفوات وأخطاء ؟

لقد جهلوا أن استتاب الله فى القرآن الكريم رسوله — ﷺ — انما هو لتبيان حجج الله الدامغة وحكمته البالغة ونسوا أن الوحى الالهى

---

(١١) الشبلنجى ، نور الابصار ، ص ٢٥—٣٧ .

للرسول ﷺ وان ظهر مخالفا للسنن والاعراف فى بعض الايات هو علم لدنى ورحمة الهية ، وهذا وارد فى قصة موسى والخضر عليها السلام •

« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » • (الكهف : ٨٥)

وهذا العلم اللدنى لم يستطع موسى عليه السلام — فى أول الامر — أن يقبله من الخضر عليه السلام ، لانه كان مخالفا للشريعة الظاهرة ، مثل خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار ، لكن موسى عليه السلام نيقن من هذا العلم اللدنى عندما فتح الله به على الخضر وذكر موسى به عندما قال له:

« وما فعلته عن أمرى » (الكهف : ٨٢) •

نسى انسان هذا العصر هذا العلم اللدنى ، وظن أكثرهم اغترارا أنهم ما داموا قد ركبوا الفضاء واخترقوا بعض الاغلفة الجوية وجلسوا فوق بعض الكواكب السيارة ونقلوا على شاشة صغيرة أحداث العالم وهم يجلسون فى بيوتهم ، نسى هؤلاء أن ذلك الذى توصلوا اليه لا يساوى بالمقارنة بالعلم اللدنى ، وأن تقدمهم المادى والتكنولوجى فى العلوم العملية والتطبيقية لا يمكن أن يشاكل ما حظى به أولياء من علوم ربانية ومن معارف رحمانية وعلوم لدنية •

لقد غفل هؤلاء أن عقولهم القاصرة لا يمكن أن تصل الى حجج الله الدامغة وحكمته البالغة ، فالمتأمل فى آيات الله البينات يجد أن ما توصل اليه سليمان النبى عندما طلب عرش ملكة سبأ فأتاه به أحد المؤمنين قبل أن يرتد له طرفه •• معجزة لم تتكرر أبدا ••• أبدا •••

فهل يستطيع هؤلاء المغترون بعقولهم المباهون بعلومهم أن يصلوا الى بعض ما توصل اليه الانبياء والمرسلون والاولياء الصالحون .

ان الذى يقتدى برسول الله ﷺ سيحظى بعلوم لدنية ومكاشفات وتجليات وفتوحات ومنن وعطايا ربانية لا يمكن أن يحظى بها أصحاب النظر فى قرون متطاولة مهما زعموا من توصلهم الى مستحدثات ومستكشفات هى عبارة عن سنن كونية يمكن أن يستكشفها المؤمن وغير المؤمن لانها مسخرة لكل انسان فى الارض ما دام يسعى ويمشى فى مناكبها بالدراسة والتحصيل والتجربة والنظر .

وأما العلم اللدنى فلا يمكن أن يحظى به الا من اتبع كتاب الله وسنة نبيه ﷺ واقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأعماله وسلوكه ، وهذا ما فعله صوفية أهل السنة فذاقوا بعض نعم الله ، فليس من ذاق كمن لم يذق .

وفى ذلك يقول الجنيد :

« لو علم الملوك ما نعانيه (نحظى به) من لذات ونعيم لجالدونا بالسيوف » .

ويقصد الامام الجنيد بهذه الاشارة أن الصوفية يتذوقون لذات وينعمون بثمرات ، ويفيض عليهم الله سبحانه وتعالى بتجليات ، ويحظون بأسرار ويفتح الله عليهم بمنن وعطايا وهبات ومبشرات لو علم بها ملوك الدنيا وحكامها وقادتها لحاربوا أهل الطريق والعارفين بالله حربا لا هوادة فيها ولو باستخدام الاسلحة والمكائد والمخادعات ليحظوا ببعض ما يحظى به الصوفية من هذه اللذات ومن ذلك النعيم الذى يتفضل به الله عليهم دون غيرهم .

الفصـــــل الثـــانى

المعلمـــون الاول

١ — قطب الدعاة (الصديق)

كان على بن أبى طالب كرم الله وجهه أول ذكر آمن برسول الله ﷺ ، وهو يومئذ ابن عشر سنين • ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ • ويسلم أبو بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه واسمه « عتيق » أيضاً • وكان رجلا محبوبا فى قومه أعظم أهل قريش نسباً وأعلم قريش بما فيها من خير وشر ، يأتيه الرجال ويستشرونه ويألفونه فى أمور كثيره وذلك لحسن مجالسته وغزير علمه فضلا عن سمعته الطيبة فى تجارته •

لقد كانت أخلاقه الدمثة وشخصيته المحببة السهلة ، عاملا مساعداً لدعوته الناس الى الله والى الدخول فى الاسلام ، ودخل الى الاسلام من وثق به من قومه ممن يصادقه ويجلس اليه •

ولقد دعا أبو بكر عثمان بن‌عفان — رضى الله عنهما — الى الاسلام فأسلم ، ودخل بدعائه الزبير بن العوام وكذلك عبد الرحمن بن عوف وسعد بن وقاص وطاحه بن عبيد رضى الله عنهم •

لقد دعاهم أبو بكر للقاء رسول الله ﷺ وعندما تم اللقاء واستجابوا للدعوة وصلوا مع الرسول ﷺ •

وصف الرسول ﷺ اسلام أبى بكر فيقول[1] :

« ما دعوت أحداً الى الاسلام الا كانت عنده كبوة (تأخر) ونظر وتردد ••• » الا ما كان من أبى بكر ، ما صد عنه حين ذكرته وما تردد فيه ••

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١

فكان أبو بكر أول الدعاة من الثمانية الاوائل الذين سبقوا الناس الى الاسلام ستة نفر وهذا يدل على حب الناس له ، وموافقتهم له وثقتهم فيه رغم أن الاسلام نشأ غريبا فى حى من أحياء مكة . . .

ومما يؤكد هذا أنه حين ضاقت عليه مكة ، وأصاب أبو بكر الاذى من الكفار ، ورأى من عداوة قريش للرسول ﷺ وأصحابه ما رأى ، عند ذلك قرر الهجرة واستأذن الرسول فأذن له .

وخرج أبو بكر مهاجرا حتى ابتعد عن مكة مسـيرة يوم أو يومين ، التقى بسيد الاحابيش ويدعى ابن الدغنة فبادره قائلا :

— الى أين يا أبا بكر ؟

فأجابه أبو بكر :

أخرجنى قومى وآذونى ، وضيقوا على ...

فقال سيد الاحابيش(٢) :

ولم ؟ فوالله انك لتزين العشيرة ، وتعين على النـوائب ، وتفعـل المعروف ، وتكسب مما هو معدوم ...

ثم استطرد قائلا لابى بكر :

أرجع يا أبا بكر .. فأنت فى جوارى ..

ورجع معه أبو بكر الى مكة حتى اذا دخلاها وقـف ابن الدغنـة فى قومه وقال :

يا معشر قريش ... انى قد أجرت أبو بكر بن أبى قحافة فلا يتعرض له أحد الا بخير ...

---

(٢) سيرة ابن هشـام ج١ .

وتوقف أذى الكفار لأبى بكر الى حين[٣]، وكفوا عن مضايقته لفترة ما بيد أنه كان لابى بكر مسجدا بجوار داره يقرأ فيه القرآن ، ويصلى فيه، وكان من المعروف عن أبى بكر زقة المشاعر فعندما يقرأ آيات الله يبكى خشوعا وورعا[٤] ، فيراه الصبية والنساء الذين يقفون ببابه على هذا الحال فيعجبون لما يرون ..

ويتكرر هذا المشهد كل يوم .. الصبية والنساء يتجمعون لبروا ذلك الشيخ الوقور يبكى وهو يقرأ القرآن ...

ويمشى بعض الرجال الى سيد الاحابيش ابن الدغنة ويقولون له :

ــ يا بن الدغنة ... انك تجير هذا الرجل (أبو بكر) ليؤذينا ..

ــ كيف ؟

ــ انه رجل اذا صلى .. وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى ... ثم تصبح له هيئة ونحن نتخوف على صبياننا ونسائنا أن يفتنهم ..

ــ وماذا تريدون منى ؟

ــ أن تأمره وقد أجرته ... أن يدخل بيته .. وليصنع فيه ما يشاء ..

ــ سأفعل ...

وقابل ابن الدغنة الصديق رضى الله عنه فقال له :

ــ يا أبا بكر ... انى لم أجرك لتؤذى قومك ...

ــ كيف ؟

---

(٣) المرجع السابق .

(٤) سيرة ابن هشام جزء ١ .

ـ لقد كره قومك مكانك (مسجدك) الذى أنت فيـــه ، وتأذوا بذلك منك ••• فهل لك أن تدخل بيتك فتصنع فيه ما أحببت •••

وأجاب أبو بكر فى حـــزم :

ـ لو رددت عليك جوارك (اجارتك لى) وأرضى بجوار الله •• فهـــل هذا يرضيك ؟

فقـــال ابن الدغنة :

ـ أردد على جوارى وافعل ما تشاء ••

فأجاب أبو بكر على الفور :

ـ لقد رددت عليك جوارك •

فقام ابن الدغنة من فوره ، وطلع على قومه فقال لهم :

يا معشر قريش ••• لقد رد أبو بكر بن قحافة على جوارى (أجارتى له) ••• فأنتم من الان أحرار •• فافعلوا به ما شئتم •••

جلس أبو بكر يوما بجوار الكعبة المشرفة ، فرآه سفيه من ســـفهاء قريش ، فقذف بحفنة من تراب على رأس أبى بكر الصديق ، وتصادف أن مر العاص بن وائل فقال له الصديق :

ـ ألا ترى ما يصنع ذلك السفيه ؟

فرد العـــاص ســـاخرا :

ـ أنت الذى فعلت ذلك بنفسك ••

فقال أبو بكر :

أى رب ، ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك•

---

(٥) سيرة ابن هشام جـ١ •

(أ) دمعـــة على خـــد الرســـول

لـــا خرج أبو بكر الصديق مع الرسول ﷺ متوجها الى الغار ، مشى أبو بكر طورا أمامه ، ومشى طورا خلفه ، وطـــورا عن يمينه وطـــورا عن شماله ••• فقل له الرسول ﷺ : ما هذا يا أبا بكر ؟

فأجاب أبو بكر : يا رسول الله ••• أذكر الرصيد ••• فلأحب أن أكون أمامك وأتخوف الطلب ••• فأحب أن أكون خلفك ••• وأحفـــظ الطـــريق يمينا وشمالا •••

فقال الرسول ﷺ : لا بأس عليـــك يا أبا بكر ••• الله منعنا(٦) ••

وعندما وصلا الى الغار تقدم الرسول ﷺ ليدخل فاستوقفه أبو بكر قائـــلا :

ـــ والذى بعثك بالحق نبيا ••• لا تدخله حتى أدخل فأســـيره قبلك (أى أتحقق منه قبلك) ••

فدخل الغار وأخذ يتفحصه بيده فى ظلمة الليل مخافة أن يكون فيـــه شىء يؤذى الرسول ﷺ ••• فلم ير فيه شيئا فدخل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الغـــار •••

وفى الغار وجد أبو بكر جحرا لحية ، فقطع من ثوبه وسد مكان الجحر ، الا أنه وجد غيره فأخذ يقطع من ثوبه قطعا يسد بها أجحار الحيات ، حتى قطع ثوبه جميعا ••• وما يزال هناك جحر لم يســـد بعد ، فجلس أبو بكر قريبا من الجحر ووضع عقبه على فتحة الجحر فسده فخرجت اليه الافاعى

---

(٦) السيرة النبوية ـــ ابن هشام جـ١

تلسعه وتضربه ، حتى بكى من شدة الالم وهو متجلد صابر لا يريد أن يوقظ الرسول النائم جنبه ..

وسقطت دمعة من دموع أبى بكر على خد الرسول ، فتنبه ﷺ وقال :

« مالك يا أبا بكر » ..

فأجاب أبو بكر : لدغت ... يا رسول الله ..

فتفل ﷺ على مكان اللدغ ... فذهب ما يحيره من ألم ..

وعندما أصبح سأله النبى — ﷺ — عن ثوبه فأخبره ما فعله به ، فتوجه ﷺ بالدعاء له قائلا :

« اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى فى الجنة » ...

فنودى انه قد استجيب لك يا محمد* ...

(ب) أربع خصال لابى بكر الصديق

امتاز أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، عن صحابة رسول الله ﷺ بالخصال الاربع الاتية :

١ — خص الله تعالى أبا بكر بالصديقية ولم يخص أحدا غيره بها ، ولم يسم بها غيره من صحابة رسول الله .

٢ — كان أبو بكر الصديق صاحب الغار مع رسول الله ﷺ والذى نزل فيه قول عز من قائل :

« ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ». (التوبة . ٤٠)

٣ — ولقد كان أبو بكر رفيق رسول الله فى الهجرة ، وقد أمره ﷺ بالصلاة اماما ، والمسلمون شهود على ذلك .

★ السنن النبوية : ابن هشام جا .

٤ — كما أن أبا جعفر يقول عن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما :

« كان أبو بكر من النبى ﷺ مكان الوزير ، يشاوره فى جميع أمره ، وكان ثانى اثنين فى الاسلام وفى الغار ، وفى العريش يوم بدر ثم فى القبر ولم يكن الرسول يقدم عليه أحدا »(٧) .

(جـ) ســـاعة ... وســـاعة

لقى أبو بكر الصديق الصحابى حنظلة رضى الله عنهما .. فقـــال له الصديق :

كيف حالك أنت يا حنظلة ؟

حنظلة : قد نافق حنظلة ؟ (أى أصبحت منافقا) .

الصديق : سبحان الله ... ماذا تقول يا حنظلة ؟

حنظلة : أكون عند رسول الله ﷺ ... يذكرنا بالجنـــة والنار فأنى أراهما رؤية العين ... فاذا انصرفت من عند رسول الله ، ولا مسنا أزواجنا وداعبنا أولادنا وانشغلنا بضيعاتنا ... نسينا كثيرا ...

فقال له الصديق رضى الله عنه مخففا من روعه :

— فوالله — يا حنظلة — انا لنلقى مثلما تلقى ... ويحدث لنا ما يحدث لك فانطلقا الى مجلس رسول الله ﷺ ، وعندما دخل حنظلة قال :

نافق حنظلة يا رســـول الله ..

فقال الرسول : وما ذاك يا حنظلة ؟

---

(٧) السيرة النبوية — ابن هشام جـ١ .

حنظلة : يا رسول الله ••• نكون عندك فتذكرنا بالنار والجنـة كأنا نراهما رؤية العين ، فاذا خرجنا من عندك ، لامسنا النساء وداعبنا الاولاد وانشغلنا بالضياع ••• فنسينا كثيرا ••

فقال ﷺ :

والله لو تداومون على ما كنتم عليه عندى ••• من الذكر لصافحتكم الملائكة فى فرشكم ••• وفى طرقكم ••• ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ، ساعة وساعة ، ساعة وساعة(٨) •••

(رواه مسلم)

(٢) قطب الزاهــدين

(أ) الفاروق عمــر :

أسماه الرسول الفاروق لانه فرق الله به بين الحق والباطل ، وذلك عندما قرر أن ينشر دعوة الله جهارا وكانت سرا ، اذ قال للرسول ﷺ : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن ، فأخرج الرسول ﷺ فى صــفين حمزة فى أحدهما وهو فى الاخر ••• فنظرت اليهم قريشا فأصابتهم كآبة لم تصيبهم مثلها •• فسماه الرسول يومئذ بالفاروق •

قالت له ابنته حفصة يوما : يا أمير المؤمنين ••• لو لبست ثوبا ألين من ثوبك ، وأكلت طعاما أطيب من طعامك ، فلقد وسع الله عليك من الرزق وأكثر لك الخير ؟

فقال لها عمر : انى سأخصمك الى نفسك يا حفصة •• أما تذكــرين ما كان يلقى رسول الله من شدة العيش •• وما زال يذكر ذلك حتى أبكاها

---

(٨) السيرة النبوية ــ ابن هشام جا •

قال لها : اما والله لئن استطعت لاشاركته بمثل عيشه الشديد •••
لعلى أدرك معه عيشه الرخى (السعيد) ••

مر يوما على مزبلة فتوقف عندها لحظة ، وكأن أصحابه قد تأذوا من الرائحة المنبعثة عنها فقال لهم عمر : هذه دنياكم التى تحرصون عليها[٩] ••
خاطب معدته يوما وهى تقرقر من الجوع :

« تقرقرين انه ليس لك عندنا غير الزيت •• حتى يحيى الناس » ••

رأى طلحة بن الزبير الفاروق عمر بن الخطاب يخرج فى سواد الليل فتبعه ، فوجده يدخل بيتا ثم يخرج ليدخل بيتا آخر •• وفى الصباح ذهب طلحة الى ذلك البيت ، فوجد فيه عجوزا عمياء مقعـدة فقال لها : ما بال ذلك الرجل يأتيك ؟ فقالت العجوز : انه يتعاهدنى منذ مدة ويأتينى بمـا يصلحنى ويخرج عنى الاذى •••

فندم طلحة على تتبعه ويوخ نفسه قائلا : ثكلتك أمك يا طلحـة •• أعمر تتبعع ؟

قال عمر الفاروق مقرنا بين الدنيا والاخرة :

نظرت فى هذا الامر فرأيت أننى اذا أردت الدنيا أضر بالاخرة ، واذا أردت الاخرة أضر بالدنيا •• ووجدت أنه ما دام الامر هكذا ••• فعلى أن أضر بالدنيا الفانيـة •••

كتب الى أبى موسى الاشعرى وكان أميرا على أحد الاقطار فقال له :
فان أسعد الرعاة من سعدت به رعيته ، وان أشقى الرعاة عند الله عز وجل من شقيت به رعيته ، واياك أن ترتع فيرتع عمالك ، فيكون مثلك عند الله عز وجل مثل البهيمة •• نظرت الى خضرة من الارض ، فرعت ، تبتغى ذلك

---

(٩) حلية الاولياء ـــ الاصبهانى ـــ ص ٤٧ جا .
(١٠) الحلية ـــ جزء ١ ص ٤٨ .

السمن .. وانما حتفها يكون فى سمنها ... والسلام عليك[١١] .

كلماته فى الزهـد والورع[١٢] :

١ — وجدنا خير عيشا فى الصبر .

٢ — خطب يوما فقال : تعلمون أن الطمع فقر ، وأن اليأس غنى ، وأن الرجل اذا يئس من شىء استغنى عنه ...

٣ — والله لقد لان قلبى فى الله ، حتى لهو ألين من الزبد ، ولقد اشتد قلبى (من قبل) فى الله حتى لهو أشد من الحجر ..

٤ — جالسوا التوابين فانهم أرق الناس أفئدة ..

٥ — كونوا أوعية الكتاب ، وينابيع العلم ، وسلوا الله رزق يوم بيوم .

٦ — لولا ثلاث لاحببت أن أكون قد لقيت الله :

(أ) لولا أنى أضع جبهتى لله (فى الصلاة) .

(ب) ولولا أننى أجلس مجالس ينتقى فيها طيب الكلام كما ينتقى جيد التمر .

(ج) ولولا أننى أسير فى سبيل الله عز وجل .

٧ — كان فى وجه عمر بن الخطاب خطان اسودان من البكاء . .

٨ — كان عمر يمر بالاية فتخنقه فيبكى حتى يغشى عليه ثم يلزم بيته حتى يعاد يحسبونه مريضا ...

٩ — الشتاء غنيمة العـابدين .

١٠ — يقول عبد الله بن عمر :

---

(١١) حلية الاولياء ص ٥٠ جا .

(١٢) المرجع السابق جا ص ٥١ .

صلب خلف عمر فسمعت حنينه من وراء ثلاثة صفوف

١١ — ليتنى كنت كبشا فأكلتمونى ولم أكن بشرا .

١٢ — خطب عمر على المنبر وهو خليفة وعليه ازار فيه اثنتى عشر رقعـــة .

١٣ — قال عمر وهو خليفة ، لو ماتت شاة على شط العراق لظننت أن ربى سائلنى عنها يوم القيامة ..

١٤ — لو نادى مناد من السماء أيها الناس كلكم داخلون الجنـــة الا رجلا واحدا فخفت أن أكون هـــو .

١٥ — يقول عمر : قال رسول الله ﷺ لى :

« اللهم اجعل سريرتى خير من علانيتى ، واجعل علانيتى حسنة » .

١٦ — وقف على المنبر يوما فقال :

« اللهم انى غليظ فليننى .. شحيح فسخنى ، ضعيف فقونى .. »[١٣]

١٧ — يقول عنه العباس بن عبد المطلب : كان عمر جارا لى فما رأيت أحدا أفضل منه ، ليله صلاة ، ونهاره صيام ، وســـعيا فى قضـــاء حاجات الناس ..

فلما توفى عمر سألت الله عز وجل أن أراه فى المنام ، فرأيته فى النوم مقبلا من سوق المدينة ، فسلمت عليـــه ثم قلت : كيف أنت يا عمـــر ، قال بخير ، قلت : ما وجدت ؟ فقال : الان فرغت من الحساب .. ولقـــد كاد عرشى يهوى بى ، لولا أنى وجدت ربا رحيما ...

---

(١٣) حلية الاولياء — جا ص ٤٨ وما بعدها .

١٩ — ان لله عبادا يميتون الباطل بهجره ، ويحيون الحق بذكره ، رغبوا فرغبوا ، ورهبوا فوهبوا ، خافوا فلا يأمنون ، أبصروا من اليقين ما لم يعاينوا ، فخلطوا بما لم يزايلوه ، أخلصهم الخوف فكانوا يهجرون ما ينقطع عنهم لما يبقى لهم ، الحياة عليهم نقمة ، والموت لهم كرامة ، فزوجوا الحور العين ، واخدموا الولدان المخلدين* ..

تعليق :

هذا هو الفاروق عمر ثانى الخلفاء الراشدين الذى قال فيه الرسول ﷺ ان الشيطان يخاف عمر .. وهو خائف دوما من الله يبكى الليل والنهار لعل الله يقبله قبولا حسنا ، ويطلب وهو المبشر بالجنة أن يكون كبشا ليأكله الناس ولا يكون بشرا عصيا ...

أنفق حياته فى سبيل نشر دعوة الله ، وجاهد مع الرسول جهاد أعاظم الرجال ، ولم يخش شيئا فى حياته الا الله ، ولم يخف من كفار قريش برغم كثرتهم ، بل وقف مع القلة القليلة التى لا تزيد عن أربعين رجلا الا قليلا ليجابهم علانية فيضربهم ويضربونه .. حتى نصره الاسلام عليهم نصرا عزيزا ..

ولا عجب أن نجد أقوال عمر وكلماته مدونة فى قلوب السلف والخلف من أهل الحق ، تناقلوها جيلا عن جيل حتى وصلت الينا سليمة معافية من كل تحريف ..

ومن هذه الكلمات التى وردت على لسان عمر تعبيرات يستخدمها الصوفية جعلوها مصطلحات لهم يتخاطبون بها ويستعملونها كما استعملها الفاروق عمر ، ومن هذه الكلمات :

★ حلية الاولياء : جا ص ٤٩ وما بعدها .

الخوف ــ الرهبة ــ الرغبة ــ المعاينة ــ المزايلة ــ البصر ــ اليقين الاخلاص ــ الانقطاع ــ الحيــاة ــ النعمة ــ العــرش ــ السريرة ــ العلانية ..

ويكفى أن نقول أن الصوفية يقسمون الناس الى ثلاثة أنواع مقتدين بحديث رسول الله فى ذلك لعمر عندما قال له الرسول ﷺ :

« قل اللهم اجعل سريرتى خيرا من عــلانيتى ، وأجعــل عــلانيتى حسنة »(١٤) ..

فقد قسم الصوفية الناس بناء على هذا الحديث الموجه الى عمر الى أقسام ثلاثة :

١ ــ ظاهرهم أفضل من باطنهم وهم المنافقون .

٢ ــ ظاهرهم مثل باطنهم وهم المؤمنون .

٣ ــ باطنهم أفضل من ظاهرهم وهم الاولياء الكمل .

وهذا التقسيم لاصناف الناس نجده عاما عند أئمة الصوفية بعامــة والحكيم الترمذى بخاصة ، ويقولون أن الصنف الثانى هم أصحاب الولاية الدنيا أو الولاية الصغرى من المؤمنين فان ظاهــرهم مثــل باطنهم ، أما المقربون المجتنون وأهل السلف من الاولياء الكمل ، فان باطنهم مشغول بالله دوما ، فهم محجوبون بالحق عن الخلق ، فلا يهتمون بالدنيا وزخرفها ، لذلك فان باطنهم خير من ظاهرهم ، وسريرتهم خير من علانيتهم ، وهذا ما دعا به الرسول ﷺ ، فأصبح من هؤلاء الاولياء الكمل الذى يقول عنهم الامام

---

(١٤) د. عبد المحسن الحسينى ــ المعرفة عند الحكيم الترمذى ــ وللمزيد راجع كتاب الحكومة الباطنية ــ للمؤلف .

أبو حامد الغزالى[١٥] انهم فى مقام الصديقية وعمر بن الخطاب يقينا على رأسهم باستثناء الصديق أبو بكر رضى الله عنهما .

(ب) الذى يفر منه الشيطان

لو عددت فضائل عمر ما وسعها كتاب ، ولو ذكرت الايات التى نزلت بحقه لاحتاجت الى فصول وأبواب ، ولو ذكر الحق الذى قاله فيكفى حديث رسول الله عنه :

« عمر معى وأنا مع عمر والحق بعدى مع عمر حيث كان ... »

(أخرجه البغدادى فى الفضائل)

ويكفى أن نبين هذا الحق الذى ينطق به عمر أن امرأة سمراء جاءت الى الرسول ﷺ وقالت له :

يا رسول الله . لقد نذرت أن اضرب بالدف بين يديك وأتغـنى ... أن ردك الله علينا سـالمـا ...

فقال رسول الله ﷺ :

« ان كنت قد نذرت ... فأضربى ... والا فلا ... »

وأمسكت المرأة[١٦] بالدف تضرب بين يدى رسول الله ﷺ .. ودخل أبو بكر وهى تضرب ... ثم دخـل على وهى تضرب .. ثم عثمان وهى تضرب .. وعندما دخل الفاروق عمر .. ألقت الدف تحتها وقعدت عليه .

فقال رسول الله ﷺ :

« ان الشيطان ليخاف منك يا عمر .. » (أخرجه الطبرى)

---

(١٥) احياء علوم الدين — الغزالى ، جـ٤ المقامات والاحوال .

(١٦) الطبرى — الرياض النضرة فى مناقب العشرة (عمر بن الخطاب) .

وجاءت امرأة من الانصار الى عائشة رضى الله عنها وقالت :

انى عهدت الى الله عهدا اذا رأيت النبى ﷺ فى أمن لانقرن بالدف على رأسه ..

أخبرت عائشة الرسول بطلب المرأة الانصارية فقال لها: فلتف المرأة التى حلفت فقامت المرأة بالدف على رأس النبى ﷺ فنقرت نقرتين أو ثلاثا ...

وأثناء ذلك دخل عمر ... فاذا بالدف يسقط من يديها .. وأسرعت قافلة الى خدر عائشة ... فلما رأتها على هذا الحال قالت لها مالك ؟ فأجابت : سمعت صوت عمر ... فهبته ..

فقال الرسول ﷺ :

« ان الشيطان ليفر من حسن .. عمر .. »(١٧)

(أخرجه ابن السمان فى الموافقة)

يقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه :

« كنا نرى أن الشيطان يخافه (يقصد عمر) أن يجره الى معصية الله تعالى » (أخرجه ابن السمان)

ويؤكد على قوة عمر فى الحق أنه كان يصارع الجن فيصرعهم ، ويروى عن ابن مسعود أن عمر بن الخطاب لقى رجلا من الجن فصارعه فصرعه ، فعاود الجنى لمصارعة عمر فصرعه فى المرة الثانية ، فقال عمر للجنى :

انى لاراك ضئيلا سخيفا .. كأن ذراعيك ذراعا كلب .. أهكذا أنتم معشر الجن ... أم أنت وحدك منهم هكذا .. ؟

---

(١٧) الرياض النضرة فى مناقب العشرة .

فقال الجنى : انى منهم لضليع ...

ثم قال الجنى لعمر : صارعنى للمرة الثالثة ... فان صرعتنى يا عمر علمتك شيئا ينفعك ...

فوافق الفاروق عمر فصارعه للمرة الثالثة فقال له عمر : هات ... علمنى ..

فقال الجنى لعمر : هل تقرأ آية الكرسى ؟

فأجاب عمر : نعم .

قال الجنى : فانك لا تقرأها فى بيت ... الا خرج منه الشيطان .. ثم لا يدخله حتى يصبح ...

(ج) زهـــد عمــــــر :

دخل الفاروق عمر يوما على ابنه عاصم وهو يتناول شريحة من اللحم فقال له عمر : ما هذا ... يا عاصم ...

فقال عاصم : قرمنا اليه (أى تحركت النفس واشتهت اللحم) .

فقال له عمر : أكلما قرمت (أشتهيت شيئا أكلته) ... كـفى بالمرء اسرافا .. أن يأكل كل ما يشتهى ..

بكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما وجد الرسول ﷺ مضجع على حصير وعليه ازاره واذا بالحصير قد أثر فى جنبه عندما جلس وليس عنده فى بيته من الدنيا غير قبضتين من شعير وقبضة من قرطى .

لمح الرسول ﷺ عمر بن الخطاب وهو يبكى فقال له : ما يبكيك يا ابن الخطاب[١٨] ...

---

(١٨) الرياض النضرة فى مناقب العشرة (راجع عمر بن الخطاب) جـ١ ص ٢٦٧ وما بعدها .

فقال عمر : كيف لاأبكى ••• وأنت صفوة الله ورسوله وخير خلقه وهذه الاعاجم كسرى وقيصر فى الثمار والانهار ينعمون ••• وأنت هكذا ؟

فقال ﷺ : يا ابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الاخـــرة ولهم الدنيـــا ؟

وفى يوم رأى عمر بن الخطاب الرسول ﷺ فى فراش من ليف ••

فقال له عمر : لو أتخذت يا رسول الله فراشا أفضل من هذا ؟

فقال ﷺ : يا عمر ••• مالى والدنيا •• ومال الدنياومالى انما مثلى ومثل الدنيا ، كراكب فى يوم فاستظل تحت شجرة ثم راح وتركها •

(أخرجه الثقفى فى الاربعين)

(د) أربع خصال لعمر بن الخطاب :

لقد أختص عمر بأربع وافق فيها الله سبحانه وتعالى على قوله ، وهذه الموافقـــات* :

١ — أشار على الرسول بأن يتخذ من مقام ابراهيم مصلى فكان ذلك موافقا للمشيئة الالهية •

٢ — أشار على الرسول أن يتخذ على نسائه حجابا لانه يدخل عليهن البر والفـــاجر ••

فنزل قول عز من قائل :

« واذا سئلتموهن متاعا فسألوهن من وراء حجاب »

(الاحزاب : ٥٣)

٣ — وقال عمر لازواج الرسول ﷺ لتنتهين أو ليبدلنه الله أزواجا خير منكن •

★ الرياض النضرة — جا ص ٢٦٧ وما بعدها .

ونزلت فى ذلك قـــول عز من قائل :

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين (الى قوله تعالى) فتبارك الله أحسن الخالقين » (المؤمنين : ١٢—١٤)

٤ — وقوله عن عبد الله بن سلول عندما مات وطلب ابنه أن يصلى عليه الرسول فقال عمر : انه منافق وقد نهاك الله أن تصلى على أحد منهم[(١٩)]

فقال الرسول ﷺ وقد تبسم : آخيرت يا عمر •• أما أنى خـــيرت فاخترت لو أعلم انى زدت على السبعين استغفارا يغفر الله لزدت عليه وهو يعنى قول عز من قال :

« استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم •• » (التوبة : ٨٠)

ثم انصرف عمر بن الخطاب ولم يلبث يسيرا حتى نزل على الرسول قول عز من قائل :

« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره •• (الى قوله تعالى) وماتوا وهم فاسقون » (التوبة : ٨٤)

ولقد استشار الرسول ﷺ عمر رضى الله عنه فى أمر عائشة حين دس لها أهل الافك ما قالوا ••

فقال عمر قولته المشهورة : من زوجكما يا رسول الله ؟

فقال الرسول ﷺ : الله تعـــالى •

فقال عمر : أفتظن يا رسول الله أن ربك دلس عليك فيها ؟

---

(١٩) الرياض النضرة — جـ١ ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢٠) الرياض النضرة — جـ١ ص ٢٦٧ وما بعدها .

فنزل قول عز من قائل موافقا لقول عمر ..[٢١]

(جـ) تأديب النفس

كان الفاروق عمر صادقا مع نفسه[٢٢] ، لم يكذب عليها أبدا ، ولم يوافقها فى رغباتها الدنيوية ، انما كان يربيها ويؤديها ، لكى تسير مع الحق فى طريق الاستقامة .

لقد جمع أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه الناس يوما للصلاة ثم صعد المنبر وحمد الله ، واثنى عليه ثم قال :

أيها الناس لقد كنت فى سابق عهدى أرعى الغنم لبنى مخزوم ، وأسقى لهم الماء ، وأتقاضى نظير هذا العمل أجرى من التمر والزبيب . ثم نزل من أعلى المنبر ... فقال له الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف: ماذا تقصد من هذا يا أمير المؤمنين ، يعنى هل تريد أن تحط من قدرك أمام الناس ؟.

فرد عمر قائلا : خلوت بنفسى ، فقالت لى : أنت أمير المؤمنين ... وليس بينك وبين الله أحد فأنت أفضل الناس .. وليس هناك من هو أفضل منك .. فجمعت الناس وقلت ما قلت حتى أعرفها قدرها ..

وهذا هو التطبيب الناجع لامراض النفس ، فالانسان العاقل هو طبيب نفسه وبمقدوره أن يقتلع جذور الاهواء من باطنه الذى يعرفه أكثر من غيره ، اذ ربما يخفى على غيره حقيقته ، أو يرائى الناس فلا تكشف

---

(٢١) الرياض النضرة جـ١ ص ٢٦٧ وما بعدها .
(٢٢) حلية الاولياء ــ المجلد الاول ــ ص ٣٨ــ٥٥ .

داخله ، لذلك فان العاقل من قام بتسليط الاضداد[٢٣] على نفسه عندما تجنح للاغترار أو العجب أو الرضى عن ذاتها ، أو الرغبة فى التسلط أو التجبر والتكبر .

فاذا طمعت النفس فى الرياسة والجاه وحب السلطان عولجت بالتواضع واذا شرهت فى الدنيا ومراكزها الاجتماعية عولجت كما فعل عمر رضى الله عنه بمصارحتها بحقيقتها ، وتذكيرها بما كانت عليه من العوز والفقر والحاجة .

عند ذلك تستقيم النفس الانسانية ، وتدرك أن ما هى عليه من نعم ليس بحولها ولا قوتها وانما هو فضل من الله ومنة ، ولقد وهبها الله تعالى هذه النعم كوسيلة لاختبار معدنها فاذا زعمت أن ما تحصلت عليه انما لعلم أو لذكاء أو قدرات اختصت بها دون غيرها ، فهذا باب يدخل تلك النفس الى متاهات لانه يذلها ويعرضها للتلف والعطب والفساد والافساد .. ولقد قام عمر بعملية تخلية للاوصاف المذمومة التى يمكن أن تتصف بها نفسه ، وذلك لتتحلى نفسه بالاوصاف المحمودة التى هى فى التواضع ، الذى اشتهر به عمر بن الخطاب رضى الله عنه[٢٤] .

لو استمع عمر رضى الله عنه لمناجاة نفسه ورضاها عن ذاتها وموافقته لخواطره ، والرضى عما تدعيه النفس أنه أفضل الناس .. وأنه ليس بينه وبين الله حجاب .

---

(٢٣) نحو علم نفس اسلامى للمؤلف (العلاج بالاضداد) .
(٢٤) للمزيد : حلية الاولياء ، المجلد الاول — ص ٣٨—٥٥ .

لو استمع عمر لخواطر نفسه هذه ولم يخالف تلك الخــواطر ، ولم يسكن تلك المناجاة ، فلربما قاده الافتتان بنفسه الى الاحساس بالعظمــة والشعور بالقوة وسلك سلوك الجبابرة الطاغين الذين نسمع عنهم فى كل حين ، والتاريخ يحكى لنا الكثير عن حياة هؤلاء الجبابرة الذين ظلمــوا الناس والعباد ، وابتعدوا عن الحق والرشاد ، وظنوا أنهم المعبودين من دون الله ، فشاركوا الله فى ملكه ، وتوهموا أنهم مفوضين من قبله تعــالى لادارة شئون الخلق أجمعين ..

خاف أمير المؤمنين أن تظلمه نفسه ، وأن توقعه فى معصية ربه ، وأن يؤدى به ذلك الى العجب بحاله ومقامه . فقام على الفور بتأديب نفسه ، وكشف حقيقتها . ولكى يكون ذلك عبرة لها فلا ترجع الى هذا القول مــرة فقد فضحها أمام الناس ، وهذا مالا يقدر عليه الا أهــل الحــق من ذوى العــزم .

فالمعروف أن الانسان يخاف أن يفضحه أحد أمام الناس ويحزن عندما تكشف عيوبه ، وربما يعادى الشخص الذى ينشر نقائصه أمام الناس ، أو يكشف ما أراد أن يستره ، أو يظهر ما يتمنى أن يخفيه ، فهل يمكن أن يرتفع الانسان الى هذا المقام العالى ، فيفضح نفسه بنفسه ويكشف أمام الملأ عيوبه ونقائصه وهو فى غير حاجة الى الجهر بها والافصاح عنها ؟ .

فالرعية كلها تعلم أن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، الراعى الزاهد ، الذى أثنى عليه رسول الله ﷺ وقال عنه قولته المشهورة :

« أن الشيطان ليخاف عمر »(٢٥) .

---

(٢٥) حلية الاولياء ــ المجلد الاول ، ص ٣٨ــ٥٥ .

وهو من العشرة البررة المبشرين بالجنة ، وقال فيه رسول الله :(٢٦)

« لو كان بعدى نبيا لكان عمر بن الخطاب » .

فما حاجته اذن الى التقليل من قدره ، كما قرر ذلك عبد الرحمن بن عوف سوى أنه يريد معالجة نفسه بنفسه ، دون حاجة الى أن ينبهه أحد من الصحابة أو الرعية ، أو أن يلجأ لاحد يستشيره فى أمر نفسه ، يخاف عمر على نفسه أن تشعر نفسه بالزهو ، والتعالى ، والافتخار ، وأن تركن الى هذا الشعور المدمر الذى يحجب حقيقتها ، فلربما لا يستطيع أحد غيره خوفا أو طمعا أن ينبه عمر وهو أمير المؤمنين ، لما وصلت اليه نفسه من عجب وغرور واغترار ...

فالحاكم كالمرأة الجميلة غالبا ما يكون موضع الثناء والمجاملة، ونادرا مايكون موضع التنقيص والنقد اللاذع ، فاذا لم يتعرف الحاكم على حقيقة نفسه وما يعتريها من ضعف ، ونقص ، وعيب ، ويحاول اصلاح ذلك أولا بأول وسعد بتصفيق الجماهير ، ومديح الناس ، وثناء الرعية ومجاملة الاصدقاء، والدعاء له فى المساجد والمحافل ، واستمع الى ذكر محاسنه التى لا تحصى وأفضاله التى لا تعد وأمجاده الخالدة التى سيذكرها التاريخ طويلا ...

اذا غرق الحاكم فى سماع مديح المنافقين ، وثناء المستفيدين ، ورضاء المتسلقين ، واستحب سماع الداعيين له من أصحاب المصالح والمنافع ... فقد ظلم نفسه وأضاع عمره هباء .

---

(٢٩) الطبرى — الرياض النضرة ، ص ٢٦٧ وما بعدها ج١ .

والمرأة الجميلة كالحاكم ، يلاحقها الكثير بنظراتهم ، ويود الكبير والصغير خطب ودها والتقرب اليها ، ويستخدم الناس أساليب متعددة ، وكلمات منمقة للوصول الى غايتهم فيها ...

ولا شك أن ذلك يقودها الى الاغترار بنفسها ، والرضا عن حالها والزهو بفتنتها ، ورفض كل نقد يوجه اليها من أرحامها الصادقين ، حيث أنها قد حجبت عنها الحقيقة ، وغمض عليها معرفة الكذب من الصدق .

فاذا لم تسارع لمعرفة نفسها ، وتعلم أن جمالها زائل ، وأن حياتها قصيرة ، وأن الثناء الذى يكال لها هو نفاق ورياء وأن الهدف منه اشباع الاهواء والشهوات .. اذا لم تعرف المرأة الجميلة ذلك ، فقد سقطت فى براثن الغواية ، واستبد بها الهوى ، وأغرتها الامانى ، وتصبح فريسة سهلة لاصحاب الاطماع ، وصيد ثمين للذئاب المفترسة ، فتضيع بذلك ضياعا رخيصا ، ثم لا تلبث أن تفقد جمالها وفتنتها ، فينفض عنها ما كانوا بالامس من الراغبين فيها والمتوددين اليها .

ان النفس البشرية تحتاج دوما الى الرد السريع الحاسم على خواطرها ووساوسها ، من خلال التمسك بأوامر الله والقنوت اليه تعالى وذلك بمخالفة الاهواء ، والبعد عن الغواية والشهوات والانتصار للحق الذى هو فى الاستقامة والقوامة والعدل(٢٧) .

فاذا جنحت النفس الى طلب الشهوات عولجت بالصيام ، والصبر على اللذات ، واذا طالبت النفس بالاهواء والحظوظ عولجت بالتزهد ، والتقشف والذكر الدائم والاستعاذة من ابليس اللعين .

---

(٢٧) للمزيد راجع : الطب النفسى النبوى ، نحو علم نفس اسلامى للمؤلفة

على النفس الانسانية اذن ألا تدخر وسعا فى فضح خواطرها النفسية وكشفها ، وبذلك تتخلص من كل وصف مذموم وتستبدل به كل وصف محمود ، كما كان عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حتى يمكن أن تقتدى به فكرا وسلوكا ومنهج حياة .

٣ — قطب الحكماء (على بن أبي طالب)

(أ) باب العلم والحكمة

باب العلم ، وينبوع الحكمة ، ينثر الكلام كالدرر المتألقة ويعطر بأريجه الظاهر والباطن ، كان مزينا بالزهد والورع . كشف له الغطاء وفضت عنه الاستار ، وفتحت له كنوز العلم فنهل منها ما شاء بدون حساب ... سيد العرب ، الولى الحليم قدوة المتقين وقطب العارفين ... حبيب الله ، قائد المسلمين وأمير المؤمنين .

يقول رسول الله ﷺ * :

« يا على لك سبع خصال لا يحاجك (لا يخاصمك) فيهم أحد من قريش ..

أنت أولهم ايمانا بالله ، وأوفاهم بعهد الله وأقومهم ..
بأمر الله ، وأقسمهم بالسوية ، وأعدلهم فى الرعية ..
وأبصرهم بالقضية ، وأعظم عند الله مزية[٢٨] ..

---

(٢٨) عن معاذ بن جبل وذكره ابونعيم فى الحلية ص ٦٤ جزء ١
★ للمزيد راجع حلية الاولياء — جـ١ ص ٦٤ وما بعدها .

اقتدى به الاولون والمتأخرون ، ومشى على دربه الائمة القانتون ، ورجع اليه فى المسائل كلها العلماء والمتفقهون ، القاضى بالحق والرائد فى الامامة ، يقول الرسول ﷺ :

« أنا دار الحكمة وعلى بابهـا » (متواتر)

« أنا مدينة العلم وعلى بن أبى طالب بابها » (متواتر)

قال رسول الله ﷺ لانس* :

« يا أنس أول ما يدخل عليك من هـذا الباب أمير المـؤمنين وسيد المسلمين ، وقائد الغر المحجلين ، وخاتم الوصيين » •

فقال أنس فى نفسه اللهم اجعله رجلا من الانصار •• واذ يدخل من الباب على بن أبى طالب فيقول الرسول له :

من هذا يا أنس ؟ فيقول : على

فقام الرسول مستبشرا فاعتنقه ثم جعل يمسح عرق على بوجهه ••

فقال على : يا رسول الله لقد صنعت بى شيئا لم تصنعه من قبل ؟

قال رسول الله :

وما يمنعنى أن أصنع ، وأنت تؤدى عنى ، وتسمعهم صـوتى وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدى •

ويكفى عليا فخرا أن الرسول ﷺ حدث أبا برزه وسمع أنس بن مالك الحديث وهو يقول[٢٩] :

يا أبا برزة ان رب العالمين عهد الى عهد فى على بن أبى طالب فقال :

---

(٢٩) الحلية ، جزء ١ ص ٦٦

★ المرجع السابق ص ٦٦ وما بعدها .

انه راية الهدى ، ومنار الايمان ، وامام أوليائى ، ونور جميع من أطاعنى ..

يا أبا برزة على بن أبى طالب أمينى غدا فى القيامة ، وصاحب رايتى فى القيامة على مفاتيح خزائن رحمة ربى .

يقول على كرم الله تعالى وجهه عن نفسه(٣٠) :

« والله ما نزلت آية الا وقد علمت فيم نزلت ، وأين نزلت ان ربى وهب لى قلبا عقولا .. ولسانا سؤولا » ..

سأله رجل من خزاعة فى مجلس يوما ... قال : يا أمير المؤمنين هل سمعت الرسول ﷺ يصف الاسلام ؟ قال نعم سمعته يقول :

بنى الاســـلام على أربعة أركان :

١ ـ الصـــبر ..

٢ ـ اليقـــين ..

٣ ـ الجهـــاد ..

٤ ـ العـــدل ..

زهـــده وورعه :

كان على عظيم الشمائل عديد الفضائل زاهد فى الدنيا يقول لها وهو أمير المؤمنين يا دنيا غرى غيرى ومن فضائله وزهده :

١ ـ ذهب الى السوق وقال من يشترى سيفى هذا؟ والله لو كان عندى ثمن ازار ما بعته ..

---

(٣٠) حلية الاولياء جا ص ٦٨ نقلا عن سليمان الاحمسى عن ابيه .

٢ — قيل له مرة : لمــاذا ترقع قميصك يا أمير المؤمنين ؟

فقال : ليخشع القلب وليقتدى به المؤمن ..

٣ — قدم اليه وفد من البصرة فيهم رجل من الخوارج يقال له الجعد فعاتب عليا فى لبوسه (ملابسه) .

فقال له على : مالك ولبوسى ، ان لبوسى هذا أبعد الى الكبر ، وأجدر أن يقتدى به المسلم ..

٤ — ذهب الى السوق وسأل : من عنده قميص بثــلاثة دراهم .. فقال رجل عندى ، فرآه على فأعجبه فقال للرجل لعــله خير من ذلك (أى أكثر فى الثمن) ؟ فقال الرجل : لا . هذا ثمنه .. فأعطاه ثمنه ولبسه فاذا بالثوب يصب الى أطراف أصابعه فقص ما زاد عن أطراف أصابعه ..

٥ — دخل عليه أحدهم وهو يرتعد فى ملابس خفيفة فقال له : يا أمير المؤمنين ان الله قد جعل لك ولاهل بيتك فى هذا المال حقا .. وأنت تصنع بنفسك ما تصنع ..

فقال : والله ما آخذ من مالكم شيئا ، وأن ملابسى هذه هى التى خرجت بها من منزلى ..

٦ — قدم له مرة فالوذج (طعام لذيذ) فلم يأكله[٣١] ..

٧ — كان يكنس بيت المــال ويصلى فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة

٨ — دخل ضرار بن ضره الكنانى على معــاوية فقال معــاوية له : صــف لى عليــا ؟

---

(٣١) الحلية جزء ١ ص ٦٨ وما بعدها .

فقال : اعفينى ..

فقال له : لا أعفيك ..

فوصف له عليا وما قاله : كان يبكى بكاء الحزين .. فكأنى أسمعه يقول : يا دنيا غرى غيرى ... فعمرك تصير ، ومجلسك صغير ، وخطرك يسير آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ..

فبكى معاوية وهبطت الدموع على لحيته والناس حوله يبكون[٣٢] ..

ويشرح لنا أبو نعيم معانى الصبر واليقين والجهاد والعدل عن على بن أبى طالب فيقول* :

١ ــ أما الصبر فله أربع شعب :

الشوق والشفقة والزهد أو الزهادة والترقب .. فمن اشتاق الى الجنة ابتعد عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات،ومن زهد فى الدنيا تهاون بالمصيبات (أى هانت عليه المصائب ..) ومن ارتقب الموت سارع فى الخيرات .

٢ ــ وأما اليقين فله أربع شعب :

تبصره الفطن وتأول الحكمة ومعرفة العبرة واتباع السنة ومن تأول الحكمة عرف العبرة ، ومن عرف العبرة أتبع السنة .. ومن اتبع السنة فكأنما كان فى الاولين ..

٣ ــ أما الجهاد فله أربع شعب :

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى المواطن وشنآن الفاسقين (عداوة) فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومن صدق فى المواطن قضى الذى عليه أحرز (ظفر)

---

(٣٢) الحلية جـ١ ص ٦٨ وما بعدها .

★ المرجع السابق .

بدينه ، ومن شنأ (عادى) الفاسقين فقــد غضب لله ، ومــن غضب لله ، يغضب الله له ..

٤ — وأما العدل فله أربع شعب[٣٣] :

غوص الفهم وزهرة العلم وشرائع الحكم وروضة الحلم فمن غاص للفهم فسر جمل العلم (أى كان مجتهدا فى العلم) ومن رعى زهرة العلم عرف شرائع الحكم ومن شرائع الحكم ورد روضة الحلم ومن ورد روضة الحلم لم يفرط فى أمره ، وعاش فى الناس وهو فى راحة ..

تعليــق :

زاد زهد على رضى الله عنه عن زهد أكابر الزهاد ، ولم يدخــل الى أهله وهو أمير المؤمنين شيئا من أموال المسلمين ، ولم يلبس وهــو أمير المؤمنين ازارا يزيد على ثلاثة دراهم ، يغسل بيت المال بيده عسى أن يكون ذلك شفيعا له يوم القيامة ، يبيع سيفه الذى قاتل به المشركين ويقول لو كان عندى ثمن ازار (قميص) ما بعته ، يرى وهو يلبس المرقــع من الثياب فيعاتبه أحد الخوارج فيقول له : مالك وثوبى أنه أبعد عن الكبر وأجــدر أن يقتدى به المؤمن ..

بمن يقتدى المسلم ان لم يقتدى بعلى ، باب العلم ، ومنارة الحكمة ، وشقيق الرسول وعلى سريره فى الجنة ..

الباكى الحزين ، المؤمن الصابر ، الصادق اليقين ، العــادل الامين أول المجاهدين ، الناصر للدين ، العالم الحكيم ... العارف بعلوم الظاهر والباطن والحق والباطل ..

---

(٣٣) هذا الحديث روى كثيرا مع اختلاف وقيل انه لعلى واستبدل بحفظ اليقين بالايمان .. الحلية ص ٧٥ جا .

ان لم يقتدى المسلم بأخلاق على وبسلوكه فمن يقتدى اذن ؟

أليس كلام وسلوك الائمة من الصوفية العارفين بالله أشبه بكلام وسلوك على كرم الله وجهه الذى قال فيه رسول الله :

« أنا مدينة العلم وعلى بابها »

« ان كلمات الائمة الصوفية وسلوكهم لم تخرج قيد أنملة عما رسمه لهم الامام على كرم الله وجهه ، فقد نور قلوبهم بكلماته ، واطمأنت قلوبهم بمحاكاته وسلمت نفوسهم بالاقتداء بزهده وورعه ... فعلى أصل من أصول الصوفية ومصدر لا يجارى من مصادر علومهم وحكمتهم...اذ وهبه الله قلبا عقولا ، ولسانا سؤولا ... »[٣٤] .

(ب) الاصول الصوفية عند على بن أبى طالب

هل التصوف الاسلامى له أصول اسلامية : أم من أصول أخرى يونانية أو ديانات شرقية قديمة ؟

تدل النصوص التى بين أيدينا من الصحابة بعامة وعلى بن أبى طالب بخاصة أن التصوف الاسلامى انما له أصول من القرآن الكريم والهدى المحمدى وأن ما يتقوله بعض المستشرقين أن التصوف الاسلامى له أصول أفلاطونية أو بوذية انما ينقصه الدليل وهذا نص لسيدنا على بن أبى طالب[٣٥] يؤيد ما نثبته فيما يتعلق بالانسان كانسان « الالسنة ثلاثة ، لسان العلم ولسان العطايا ولسن الوحدانية .

---

(٣٦) الحلية جا ص ٦٨ وما بعدها .

(٣٥) حاشية كتاب ختم الاولياء — للحكيم الترمذى ، تحقيق الدكتور عثمان يحى المركز القومى للبحوث ص ٤٤٩ — ٩٥٠ بيروت .

وهو تعبير عن الحلال والحرام والحدود والاحكام والمعاملات وغيرها وهو زين المؤمن وفضيلته .

٢ ـ لسان العطايا :

فانه يعبر عن الاخطاء والالهام والفهم والفطنة وعلو المراتب والدرجات وهو شرف المؤمن ورائده .

٣ ـ لسان الوحدانية :

فانه يعبر عن شهود الله بالله ولله «شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم » .

وواضح هنا أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه يقسم حال المسلمين الى أقسام ثلاثة :

الاول :

وهو حال العلم وفيه يفرق بين الحلال والحرام والحق والباطل والشر والخير وهذا الحال لم يختلف فيه أحد من الصوفية وقد أسماه الترمذى (٢٨٥ هـ) حال العلماء والفقهاء ، لانهم يفرقون بين الحلال والحرام .

وأيضا أسماهم الغزالى (٥٠٥ هـ) أصحاب العلم الكسبى أو الاكتسابى الذى يحتاج الى الدراسة والفحص والتمحيص فى الاحكام والمعاملات والحقوق ويؤيد ذلك قول الرسول ﷺ :

« عالم ينتفع بعلمه خير من ألف عابد » رواه الديلمى[٣٦]

---

(٣٦) عن على بن ابى طالب كرم الله وجهه .

« أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم »

رواه بن ماجه[٣٧]

ويؤيد ذلك القرآن الكريم فى قول عز وجل :

« والراسخون فى العلم »[٣٨] وأيضا « انما يخشى الله من عباده العلماء » ..

فالصوفية لم يأتوا ببدعة عندما قسموا الناس الى درجات ثلاث ، استبعدوا فيها الجهال .

وكما ورد عن الحكيم الترمذى فقال العلماء هم أصحاب الحلال والحرام وأولياء الدرجة الدنيا أو الوسطى ثم أولياء الدرجة العليا[٣٩] .

الثـــانى :

ولقد ذكر سيدنا على أصحاب الحالة الثانية وهم الذين أسماهم لسان العطايا وهؤلاء أعلى درجة من علماء النظر (الفقهاء) اذ أنه لا يقتصر علمهم على معرفة الحلال والحرام انما يتجاوز ذلك :

الفطنة ، والالهام ، والفهم ، وعلو الدرجات ، والمراتب .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »[٤٠] .

وهذا العلم مرتبط بالحكمة والرسوخ فى العلم يرتبط بالاعيان يقول الله عز وجل :

---

(٣٧) ابن ماجة .
(٣٨) آل عمران (٧) .
(٣٩) للمزيد راجع كتاب الحكومة الباطنية ، للمؤلف ــ دار المعارف .
(٤٠) المجــادلة : (١١) .

« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يوت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »[٤١]

الفطنــة :

ويدل حديث شريف على الفطنة فقال الرسول ﷺ :

« المؤمن كيس فطن »[٤٢] .

الالهــام :

فالانسان المؤمن يلهم بالحق والنفس البشرية يمكن أن تلهم بالحق كما تلهم بالباطل فقال تعالى :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »[٤٣] .

ويتضح من ذلك أن سيدنا على بن أبى طالب لم يتقول هذا التقسيم انما أخذه من القرآن الكريم والهدى المحمدى ودليلنا على صدق ما نقول ما ورد فى الحديث الشريف « المؤمن كيس فطن » .

ويدل القرآن الكريم والاحاديث النبــوية الشريفة على أنه لا يكون هناك وحى بعد الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا يبقى بعد ذلك الا وحى الالهام فاما أن يلهم المؤمن يقظة أو مناما فاذا

---

(٤١) البقرة : آية ٢٦٩ .

(٤٢) متواتر

(٤٣) الشمس آية : ٧ــ٨ .

كان الالهام مناما فهو رؤيا يراها المؤمن فتتحقق وأما فى حال اليقظة فان المؤمن يلهم بالحق الهاما(٤٤) .

ويؤيد ذلك الحديث النبوى عن عائشة رضى الله عنها :

« الرؤية من الله والحلم من الشيطان »(٤٥) .

ولقد أشار الامام ابن سرين فى مؤلفات كثيرة عن الرؤية وفرق بينها وبين الاحلام وقسم الرؤية الصادقة الى خمسة أقسام هى :

١ — الرؤية الصالحة .

٢ — الرؤية الصادقة .

٣ — الرؤية بالملك .

٤ — الرؤية بالشاهد .

٥ — الرؤية الرمزية(٤٦) .

أما الاحلام وهى الاباطيل التى لا تفسير لها ولا تأويل ولا يعول عليها فهى سبعة أقسام :

١ — أمان النفس .

٢ — تهاويل الشيطان .

٣ — الحلم الواجب الاغتسال .

٤ — اختلاف الطبائع .

٥ — أفعال السحرة .

---

(٤٤) راجع كتاب نحو علم نفس اسلامى للمؤلف ص ١٦٢ وما بعدها .
(٤٥) ابن سيرين : منتخب الكلام فى تفسير الاحلام .
(٤٦) للمزيد راجع كتاب نحو علم نفس اسلامى ص ١٦٢ وما بعدها .

٦ ــ الرجـــع •

٧ ــ الحـلم الشيطانى[٤٧] •

٣ ــ الدرجات :

قسم الصوفية الدرجات التى يمكن أن يصل اليها المؤمن فى أحـــواله ومقاماته الى ٤٩٩٫٩٩٩ درجة[٤٨] وهــذا التقسيم نجـــده عنـــد الشعرانى والشيخ الاكبر محى الدين بن عربى كما قسم الصوفية الاولياء الى درجات على رأسهم الاقطاب ثم الامامين ثم الاوتاد ثم الابدال ثم النقباء وأهل الغيب الى آخره وهذا التقسيم نجده عند الحكيم الترمذى فى مـؤلفاته المتعددة مثل ختم الولاية وتذكرة الاولياء وغيرها •••

وتوجد أحاديث شريفة تدل على الدرجات :

« العالم والمتعلم شريكان فى الخير وسائر الناس لا خير فيهم » •

(رواه الطبرانى عن أبى الدرداء)

« سارعوا فى طلب العلم فالحديث من صادق خير من الدنيا وما عليها من ذهب وفضة » •

ثالثا : لسان الوحدانية :

لسان الوحدانية التى أوردها باب العلم على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ لا تحتاج الى عرض مستفيض ، فاما أن يكون الانسان موحـــدا ، واما أن يكون مشركا أو يعبد الله على حرف واحد أو من المنافقين والفاسقين

---

(٤٧) راجع الشيخ عبد الغنى النابلسى فى كتابه : تعطير الانام فى تعبير المنام ص ١ــ٨ •

(٤٨) راجع كتاب الحكومة الباطنية للمؤلف ص ٣ــ٨ •

والرسول — ﷺ — يفرق بين المسلم والمشرك بالوحدانية أو بشهادة لا اله الا الله .

والصوفية انشغلوا جل حياتهم بتطبيق منهج الله فكرا وسلوكا ومعاملة ، وأخلاقا وجعلوا أحوالهم ومقاماتهم فى الطاعة والصبر والخوف والرجاء والصبر كلها مرتبطة بالله ولله وفى سبيل الله .

وهذه هى حقيقة الواحدانية لان المشغول بالحق محجوب عن الخلق ومن هذا يتضح أن ما أورده الصوفية من أهل السنة انما هو مستمد من الاصل القرآنى ومن الهدى المحمدى وأنهم ليسوا أصحاب البدع أو خارجين عن الاسلام ظاهرا أو باطنا وانما أخذوا من الكتاب والسنة المحمدية .

وتؤكد على صدق ما نقول ما أوردناه عن الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه — فهو نبع فياض وباب للعلم لا ينقطع أبدا ، وقد أخذ منه الصوفية فكرهم وسلوكهم وأخلاقهم كما أخذ على كرم الله وجهه من الرسول ﷺ فتأدب بآدابه وجعله قدوته فى الدنيا والاخرة .

(٤) قطب المتبتلين ذو النورين

عثمان بن عفان

كان قانتا لله ساجدا آناء الليل ، قائما يخاف الاخرة ويرجو رحمة الله ، كان حاله الكرم والحياء والخوف والرجاء ، حظه من النهار العطاء والصيام وحظه من الليل السجود والقيام .

قال عنه الحسن بن على — رضى الله عنهما — : أن على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — قال :

« عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم أتقوا ، وآمنـوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين »(٤٩) .

ويصف الرسول — ﷺ — سمات عثمان بن عفان الطيب .

فيقول : « عثمان أحيى (من الحياء) أمتى وأكرمها »(٥٠) .

كما أورد صاحب الحلية عن ابن عمر حديثا آخر مع تغيير فى اللفظ :

« أشد أمتى حياء عثمان بن عفان » .

لقد كان أمير المؤمنين عثمان بن عفان شديد الحياء حتى انه ليكون فى بيته والباب مغلقا عليه فما يخلع ثوبه ليضع عليه المـاء ، اذ يمنعه الحياء أن يصبح عريانا .

ويورد ابن عمر بعض أخلاق عثمان بن عفان فيقول :

ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها وأحسنها أخلاقا وأثبتها حياء ، ان حدثوك لم يكذبوك ، وان حدثتهم لم يكذبوك ، هم : أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان وأبو عبيده بن الجراح .

لقد كان عثمان يصوم الدهر ويقوم الليل إلا قليلا ، ولقد ذكر محمد بن سرين أن امرأة عثمان بن عفان قالت عندما أحاطوا به يريدون قتـله : ان تقتلوه أو تتركوه فانه كان يحيى الليل كله فى ركعة واحدة يجمع فيهـا القـرآن(٥١) .

---

(٤٩) حلية الاولياء — جا ص ٥٦ .
(٥٠) عن ابن عمر وقد أورد الحديث صاحب الحلية .
(٥١) حلية الاولياء — جا ص ٥٧ .

قال مسروق للاشتر : قتلتم عثمان .

فقال الاشتر : نعم .

فقال مسروق : أما والله لقد قتلتم صواما قواما .

بشر عثمان بالمحبة والابتلاء معصوما من الجذع والشكوى ، يقول أبو موسى الاشعرى كنت مع رسول الله — ﷺ في داره .

فقال : اذا جاء رجل فاستفتح الباب ، نبشره بالجنة على بلوى تصيبه، فلما جاء اذ به عثمان بن عفان فأخبرته بما قال رسول الله .

فقال : الله المستعان .

لقد أنعم الله على عثمان بن عفان بايمان وفير فتوسل به الى رضاء الله وبذله بسخاء لعباد الله ، وكان حظه فيه من القليل أقلا ، وفى لباسه وطعامه مقلا .

خطب الرسول ﷺ على المنبر وحث المسلمين على الجهاد بالمال لجيش العسرة .

فقال عثمان : على مائة بعير بعدتها وعتادها .

ثم أحث الرسول المسلمين مرة أخرى .

فقال عثمان : على مائة أخرى .

فقال الرسول ﷺ ما على عثمان ما عمل بعد هذا(٥٢) .

ويذكر صاحب الحلية نقلا عن مسروق أن الرسول — ﷺ — دعى لعثمان بن عفان يوم جيش العسرة فقال :

---

(٥٢) عن ابن أبى حباب السلمى وقد أورد هذه القصة صاحب الحلية فى الجزء الاول ص ٥٩ .

« اللهم أغفر لعثمان ما أقبل وما أدبر ، وما أخفى وما أعلن ، وما أسر وما أجهـر * » •

لقد كان يجلس عثمان بن عفان فى المسجد فى ملحفه وليس حوله أحد وينام فيه وهو أميرا للمؤمنين وخليفة للمسلمين ، ويقوم من مجلسه وأثر الحصى بجنبه فيقال له : أهذا أمير المؤمنين ، يطعم الناس طعام الامارة ويدخل الى بيته الخل والزيت •

كان يركب بغلة وخلفه غلامه نائل وهو خليفة للمسلمين ، وكان الخائف الراجى العطاء الباكى •

يقول عن نفسه : لو أنى بين الجنة والنار لا أدرى الى أيهما يؤثر لى لاخذت أن أكون رمادا قبل أن أعلم الى أيهما أصبر ، لقد أقسم عثمان انه لم يرتكب فاحشة الزنا فى الجاهلية أو الاسلام وأنه ازداد بالاسلام حياء فاذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته رضى الله عنه •

اختصم عثمان بن عفان هو وأبو عبيدة بن الجراح فقال : أبو عبيدة تخرج على (أى تتطاول) فى الكلام على ، وأنا أفضل منك بثـلاث خصال •

فقال عثمان : وما هى ؟

قال أبو عبيدة :

الاولى : أنى كنت يوم البيعة حاضرا وكنت غائبا •••

الثانية : شهدت بدرا ولم تشهدها •••

الثالثة : كنت ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت •

فقال عثمان : صدقت أما يوم البيعة فقد بعثنى رسـول الله ﷺ فى حاجة ومديده الشريفة وكانت يده الشريفة خيرا من يدى ، وأما يوم بدر

★ الحلية جـ١ ص ٥٩ .

فقد استخلفنى رسول الله ﷺ على المدينة ولم أستطع مخالفة أمر رسول الله ، وكانت ابنته رقية مريضة فاشتغلت بخدمتها حتى توفيت ودفنتها[٥٣].
وأما الثالثة وهى انهزامى يوم أحد فان الله تعالى عفا عنى وأضاف فعلى الى الشيطان ، ولقد غلب عثمان خصمه أبو عبيدة لمناقبه المشهورة فقد فتح فى خلافته أفريقيا وسواحل الاردن ، وسواحل الروم وفارس ، وطبرستان وسيجستان وغيرها من البلدان التى من الله عليها بنعمة الاسلام[٥٤] .

يروى عن عثمان بن عفان أنه لما كان محاصرا فى بيته رأى الرسول ﷺ فى المنام كما رأى أبو بكر وعمر فقالوا له اصبر فانك تفطر عندنا الليلة .

فلما قتل عثمان فتشوا فى خزائنه فوجدوا فيها صندوقا مقفلا ففتحوه فوجدوا ورقة مكتوبا فيها ، هذه وصية عثمان بن عفان يشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن يبعث من فى القبور ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد ، عليها نحن وعليها نموت وعليها نبعث ان شاء الله من الامنين برحمة الله[٥٥] .

(٥) الاقطاب المبشرون بالجنة

عرف كل منهم مقامه فى الجنة ، واتخذ معه أخا ورفيقا فى رحلته من الحياة الدنيا الى الاخرة ، وأطمأن قلبه وأمنت نفسه ، فقد بشره الرسول

(٥٣) حلية الاولياء — جـ١ ص ٥٧ وما بعدها .
(٥٤) الشبلنجى : نور الابصار ص ٧٠ وما بعدها .
(٥٥) المرجع السابق ص ٧٦ .

ﷺ بالبشرى التى تشتاق اليها كل نفس ، ويأمل النـــاس كل النـــاس أن يحظوا بها ، ويسكنوا اليها ، بعد رحلة المجاهدة فى سبيل الله ...

ولو عرف غير العشرة ـــ مآله ، وأيقن كل مسلم من الرحمة الالهية ، والنعمة الربانية ما أفضى به الرسول ﷺ الى العشرة المختارين لكان ذلك الحدث الاعظم فى حياته ، ولوصل الى شاطىء الامن والامان ، ووثق من طريقه وارتاح قلبه* ...

يشكو بعض المسلمين أحد الصحابة الاعاظم ويمنى النفس أن يدخله تعالى النار فقد اعتقد ظلما أنه ظلمه ، يشكو بعض المسلمين الصـــحابى الجليل حاطب بن أبى بلتعة الى الرسول ﷺ ويقول : ليدخلن حاطب النار يرد عليه الرسول ﷺ قائلا :

« كذبت لا يدخلها فقد شهد بدرا والحديبية » (عن ابن عباس)

لقد شرف الرسول ﷺ أصحابه ووضعهم فى منزلة عالية ومقام أمين، وأثنى على جهادهم ، وامتدح أفعـــالهم ، ونهى عن سبهم ، وغـــض عن هفواتهم ، وصفح عما جرى بينهم وصدر عنهم ، يقول الرسول ﷺ فى ذلك:

« لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »

وعن الحسن رضى الله عنه :

« قال رسول الله ﷺ أصـــحابى فى الناس كمثل الملـــح فى الطعام لا يصلح الطعام الا بالملح » .

انهم الثلة القليلة المباركة التى صاحبت الرسول فى رحـــلة دعـــوته الناس للايمان برب الناس ، انهم النجوم الساطعة فى الليـــل البهيم تنير الطريق الى الله .

★ للمزيد : الرياض النضرة فى مناقب العشرة للطبرى .

يقول الرسول ﷺ :

لا تزالون بخير ما دام فيكم من رآنى وصاحبنى ، والله ما تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآنى وصاحبنى ، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رأى من رآنى وصاحبنى(٥٦) .

وأول الصحابة الذين بشروا بالجنة أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، يقول عنه على بن أبى طالب كرم الله وجهه :

« أول من أسلم من الرجال أبو بكر » .

ويقول عنه حسان شاعر النبى ﷺ :

وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد طاف العـــدو بهم ، اذ صعدا الجبل.

لقد صاحب أبو بكر النبى ﷺ وهو ابن ثمان عشر سنة فى تجارة الى الشام ، حتى وصلوا الى مكان فيه سدرة ، وجلس الرسول ﷺ — فى ظل السدرة ، ومضى أبو بكر الى راهب يقال له بحيرا ، وسأله عن أمر الدين ، فقال له الراهب من الذى يجلس هناك فى ظل السدرة ؟

أجاب أبو بكر : هو محمد بن عبد الله ... قال الراهب : والله هذا نبى الله ما أستظل تحتها أحد بعد عيسى بن مريم الامحمد ﷺ(٥٧) .

فأيقن أبو بكر منذ تلك اللحظة أن الرسول هو النبى المرتقب ، ولل يدخل الشك فى قلبه طوال صحبته له .

وأما الفاروق عمر فلقد أعز الله به الاسلام وهاجر علانية دون خوف أو وجل وتوفى الرسول — ﷺ — وهو راض عنه وبشره بالجنة وأخبره

---

(٥٦) عن وثلة بن الاسقع وأخرجه الحافظ السلفى فى السداسيات .
(٥٧) عن حديث لابن عباس .

أكثر من مرة أن الله جعل الحق على لسانه وقلبه وأن الشيطان يفر منه ، وأن أهل السماء استبشروا باسلامه ، وسمى عمر بالعبقرى والمحدث وسراج أهل الجنة .

عاش الفاروق حميدا ومات شهيدا يكره الباطل ويحب الحق ، ولو كان بعد النبى نبيا لكان عمر بن الخطاب فهو أول من كتب التاريخ للمسلمين من الهجرة الشريفة ، وأول من حض على جمع القرآن ، وأول من جمع الناس على صيام رمضان ، وأول من حمل الدرة وأدب بها الخارجين ، وأول من وضع الخراج وعين القضاه ورتب الدواوين ، وأول من سمى بأمير المؤمنين وفتح الله على يديه بلاد الروم والقادسية بعد فتح دمشق حتى انتهى الى حمص وبلاد حران ونصيبين وعسقلان وبيت المقدس والاهواز ومصر ونهاوند وأصفهان وفارس وهمذان والنوبه وغير ذلك كثير .

وأما عثمان بن عفان ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهو كاتم سر رسول الله ﷺ وهو نور أهل السماء ، ومصباح أهل الارض ، وهو الذى جهز جيش العسرة ، كان كثير الحياء ، بل أصدق الامة حياءا ، وهو أول من هاجر الى أرض الحبشة ، وأشبه الصحابة خلقا بالنبى ﷺ ، وهو الرابع فى الدخول الى الاسلام ، ومناقبه لا تعدو ولا تحصى* .

وقد دعى له الرسول ﷺ ، بدخول الجنة فقد كان عثمان أوصل الناس للرحم ، حتى قيل أنه لن يحاسب أو يحاسب سرا ، وهو أفضل الناس بعد عمر ، ولقد شهد له النبى بأنه على الحق ، ووصفه بالامين(٥٨) .

★ راجع للمزيد الرياض النضرة .

(٥٨) حلية الاولياء — ص ٥٧ وما بعدها — جا .

وقد شبهه الرسول ﷺ بابراهيم عليه السلام • كان صاحب فراسة: فقد دخل عليه رجل وقد نظر الى امرأة أجنبية ، فقال له عثمان رضى الله عنه أيدخل على أحدكم وفى عينيه أثر الزنا ، فقال الرجل أوحى بعد رسول الله ﷺ ؟

فقال : « لا ••• قول حق وفراسة صدق »(٥٩) •

وأما على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فقد شهد له النبى بالجنة • وله بيت فيها ، كما أخبره الرسول ﷺ وأن له فى الجنة عصا ، من عصى الجنة يزود بها المنافقين عن الحوض •

وفضائل على كرم الله وجهه لا تعد ، فله محبة من الله ، وتفضيل فى المنزلة من رسول الله ﷺ كان شفوقا ، كما كان الرسول شفوقا به ، ومراعيا له ، وداعيا له بالجنة •

لقد أحرق على كرم الله وجهه ، قوما اتخذوه الها دون الله عز وجل ، وقال لهم انما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون ان طعته أثابنى ان شاء ، وان عصيت خشيت أن يعذبنى ••• فأبوا فطردهم ، ثم رجعوا يرددون هذا الكلام ، فقال لهم : انكم ضالون مفتونون فأبوا ، فلما كان اليوم الثالث رددوا نفس الكلام فقال قولته المشهورة والله لئن قلتم لاقتلنكم بأخبث قتلة فأبوا ، حفر أخدودا وأوقد فيه نارا وقال : انى طارحكم فيها أو ترجعون فأبوا ، فقذف بهم فيها(٦٠) •

---

(٥٩) أخرجه : الملاء فى سيرته .
(٦٠) المخلص الذهبى .

وقد شبهه الرسول ﷺ بخمسة خصـال من خصـال الانبياء عليهم السلام ، فقد ذكر أن الرسول ﷺ قال : من أراد أن ينظر الى آدم فى علمه والى نوح فى فهمه والى ابراهيم فى حلمه والى يحى بن زكريا فى زهده ، والى موسى فى بطشه ، فلينظر الى على بن أبى طالب[٦١] .

وأزاد ابن عباس رضى الله عنه « الى يوسف فى جماله » فلينظر الى على بن أبى طالب .

لقد كان على بن أبى طالب من خير البشر ، وأفقـه النـاس علما ، وأرسخهم قدما فى الايمان ، وأكرم الناس ، وأزهدهم فى الدنيا ، وأكثرهم تواضعا وحياء من النبى ، وخوفا من الله .

ومن المبشرين بالجنة طلحة بن عبيد الله ، فلقد شهد له الرسول ﷺ بالجنة ، وآخى بينه وبين الزبير فى رواية وآخى بينه وبين عبد الرحمن بن عوف فى رواية أخرى ، له مناقب كثيرة ، وفضائل عظيمة فقد شهد الحديبية وأبلى مع رسول الله ﷺ ، ووقى الرسول بيده فشـلت يده ، وهـو من الثمانية ، الذين سبقوا الى الاسلام ، ومن الستة الذين جعـل عمر منهم الشورى ، ولقد توفى رسول الله ﷺ وهو عنه راض ، وهو من حـوارى النبى ، قد نزع الله من صدره كل غل وحسد ، كان خطيبا من أعظم خطباء الصحـابة* .

أما الزبير بن العوام ، فقد كان سمحا ورعا ، كريما ، جوادا ، حتى عد من أكرم الناس على عهد رسـول الله ﷺ وهـو من العشرة المبشرين بالجنـة .

---

(٦١) أخرجه الحاكمى .

★ للمزيد راجع : الرياض النضرة فى مناقب العشرة .

ثم نجد عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، وهو الامين فى الارض وفى السماء ، وثق به النبى ﷺ وبايمانه ، حتى قيل أنه ممن سبقت له السعادة وهو ما يزال فى بطن أمه .

كان كثير العلم ، حتى أن عمر رضى الله عنه ، كان يستشيره بالرأى ، وأما عن خوفه من الله وتواضعه وتعففه فكان مضرب الامثال .

ومن المبشرين بالجنة سعد بن مالك ، فقد شهد له الرسول ﷺ بالجنة ومناقبه عديدة ، وفضائله كثيرة ، كان شديدا فى الدين ، زاهدا فى الدنيا ، شجاعا غيورا على أهل الله ، حريصا على البر والصدقة .

وأما عبيد بن الجراح رضى الله عنه ، فقد شهد له الرسول ﷺ بالجنة حتى أن عمر بن الخطاب اختصه بالخلافة أن مات وهو حى ، كما قربه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وقال عنه : عليكم بالهين اللين ، الذى اذ ظلم لم يظلم ، واذاأضيف اليه ظفر ، واذا قطع وصل ، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين ، عليكم بأبى عبيدة الجراح .

ومن العشرة المبشرين بالجنة ، سعيد بن زيد ، وهو من الذين عبدوا الله على دين التوحيد فى الجاهلية ، وقد هداهم الله اليه بغير كتاب ولا نبى، كان اسمه فى الاسلام ، سعيدا ، وكان فى الجاهلية أيضا سعيدا .

كان زاهدا ، ذو دعوة مجابة ، فلقد نازعته امرأة فى داره ، فقال دعوها ، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أخذ شبرا من الارض من غير حق طوقه فى سبع أرضين يوم القيامة ، اللهم ان كانت كاذبة فاعم بصرها واجعل قبرها فى دارى ، فأعمى الله بصرها ، وكانت تقول أصابتنى دعوة

سعيد بن زيد ، وبينما مرة كانت تمشى فى الدار فمرت على بئر فوقعت فماتت[٦٢] .

ولا يمكن أن ننسى أبا زر الغفارى ، وحمزة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ، والمنذر بن عمر ، وجعفر بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل ، وخارجة بن زيد ، وعيقان بن مالك ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن الربيع ، وسلمه بن سلامه ، وأويس بن ثابت وكعب بن مالك ، ومصعب بن عمير ، وأبو أيوب خالد بن زيد ، وأبو حذيفة بن عتبه بن ربيعه ، وعباد بن بشر ، وأبى بن كعب ، وسالم مولى أبو حذيفة ، وسلمان الفارسى ، وسعد بن أبى وقاص ، وصهيب ، وبلال الحبشى ، وأسامه بن زيد .

فان هؤلاء ثلة من الصحابة الاجلاء ، الذين جاهدوا فى سبيل رفع راية الاسلام ، ورافقوا الرسول ﷺ فى جهاده ضد المشركين لاعلاء كلمة الدين ، فمنهم من قتل شهيدا ، ومن عاش حميدا ، وقد أثنى النبى ﷺ على جهادهم فى الدنيا ، ودعى لهم بدخول الجنة ، وقد بشروا بها جميعا .

---

(٦٢) أخرجه مسلم مع اختلاف فى اللفظ .

الفصـــل الثــانى

العلماء الحــكماء

الباب الثانى

الرواد الاول

مقـــــدمة :

يحلو لكثير من المستشرقين ومن تابعهم من المستغـربين الزعم بأن التصوف الاسلامى قد نشأ فى القرن الثالث الهجرى ، وأنه لم يكن هناك رابطة بين الصحابة وبين المذاهب الصوفية التى نشأت فى القرن السادس وما بعد ذلك ، وفى هذا الباب نرد على هذا الزعم مؤكدين على وجود رابطة متينة بين الصدر الاول للاسلام وبين القرون اللاحقة وندلل بأدلة قطعية على أن الصحابة والتابعين كانوا الرواد الاول للتصوف الاسلامى .

ذلك فقد أخذنا أمثلة من شخصيات عن الصحابة والتابعين مثل :

عتبه بن غزوان — وسعد بن أبى وقاص — وسعد بن مالك — وعريف الصفة أبو هريرة ، وأبو الدرداء الذاكر لله فى السراء والضراء — وسلمان الفارسى بحر العلم .

هذه الشخصيات التى ترجمنا لاخلاقياتها وسـلوكها وممـارساتها الروحية هم القدوة لصوفية أهل السنة فى كل زمان ومكان ومن يزعم غير ذلك بوعى أو بغير وعى انما تحـركه دوافع نفسـية مرضية كالتعصب أو الحقـد أو الجهل بحقيقة الاسلام .

لقد كان الصحابة الاول يملكون لكنهم كانوا يهجرون وهذا هو الطريق الذى ترسمه من بعدهم صوفية أهل السنة اذ كانوا يقولون دائمـا « أن التزهد هو أن تملك وتهجر » فليس ذلك معناه أن لا تملك شيئا ثم تزعم أنك متزهـد .

وهذه النقطة من الدقائق التى تفرق بين الزهد فى العقائد والديانات القديمة وبين الزهد فى الاسلام .

نجد أن ذا النورين عثمان بن عفان يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فينفقها فى سبيل الله على الفقراء والمساكين ويقول للتجار ان الله يشترى منى بأكثر مما تشترون يربحنى عشرة أمثال ما أشترى وهذا يدل على أن مفهوم الزهد فى الاسلام يختلف تماما عن مفهومه فى العقائد الاخرى كما أن التصوف الاسلامى يختلف فى مفهومه عن التصوف البوذى والمسيحى والافلوطينى وغيره .

وهذا ما يجعل للتصوف الاسلامى أصالته التى لا يمكن لرشيد العقل وسليم القلب وصحيح النقل أن ينكره .

الفصـــل الاول

أهل الصفة والتصوف

عاش فى عهد الرسول ﷺ أناس فقراء بسطاء أطهار وسماهم الرسول ﷺ أهل الصفة ، وسماهم أبو هريرة أضياف الاسلام ، وورد عن الرسول ﷺ أنه أوصى أصحابه بهم خيرا ، وحض على اطعامهم واستضافتهم وقال ﷺ لهم :

« من كان عنده طعام أثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنـــده طعام أربعة فليذهب بخامس ، بسادس »(١) .

ويروى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه جاء بثلاثة ، وانطلق نبى الله ﷺ بعشرة »(٢) .

ويؤكد ذلك الشيخ محمد بن سيرين فيقول :

كان النبى ﷺ اذا أمس قسم رجال من أهل الصـــفة بين رجال من أصحابه ، فكان الرجل الصحابى يذهب بالرجل من أهل الصفة والرجـــل الصحابى يذهب بالرجلين ، والرجل يذهب بالثلاثة ... حتى أن الرجل يذهب بالعشرة ليقدم لهم العشاء ...

ويؤكد صاحب الحلية أن يعد بن عباده كان يرجع كل ليلة الى بيته ومعه ثمانين رجلا من أهل الصفة يعشيهم ...

---

(١) متفق عليه .

(٢) هذا حديث مجمع متفق عليه كما اورده صاحب الحلية ص ٣٢٨ .

يقول عنهم الشيخ أبو نعيم الاصبهانى[٣] :

« لقد استوطنوا الصفة فصفوا من الاكدار ، ونقـوا من الاغيار ، وعصموا من حظوظ النفوس والابشار ، وأثبتوا فى جملة المصطنع لهم من الابرار ، فأنزلوا فى رياض النعيم ، وسقوا من خالص التسنيم ... »

والتسنيم هو أشرف شراب لاهل الجنة من المقربين والصديقين .

يحكى عن أبى هريرة أنه ذكر أمامه أهل الصفة فقال عنهم :[٤]

مر بى رسول الله ﷺ فقال لى :

يا أبا هـر ...

فقلت : لبيك يا رسول الله ..

قال ﷺ : « الحق ... أهل الصفة ... فأدعهم ... »[٥]

ويستطرد أبو هريرة رضى الله عنه فى ذكر أوصاف وصفات أهل الصفة فيقول عنهم :

ان أهل الصفة هم أضياف الاسلام ، لا يحصلون الاموال ، ولا يأوون على أهل ولا ديار ، واذا أتى الرسول — ﷺ — صدقة بعث بها اليهم ولم يأخذ فيها شيئا ، واذا أتته هدية أرسل الى أهل الصـفة فأشركهم فيهـا وأصـاب منها ...

يقول طلحة بن عمر عن أهل الصفة :

---

(٣) حلية الاولياء للاصبهانى ص ٣٤٣ جا .
(٤) المرجـع السـابق ص ٣٣٨ جا .
(٥) متفـق عليه .

ان الرجل اذا قدم على النبى ﷺ من مكان بعيـــد وكان له أحـــد فى المدينة نزل عنده ، فان لم يكن له أحد بالمدينة نزل مع أصحاب الصفة ...

ويستطرد طلحة بن عمر قائلا عن نفسه :

وكنت أنا ممن نزل على أهل الصفة وكان رسول الله — ﷺ — يجرى علينا كل يوم معلوما من التمر ...

لقد كان لاهل الصفة وجودا دائما فى صدر الاسلام ، وحبا عميقا فى قلب الرسول ﷺ ، ويكفى أن نؤكد على هذا الحب ، التساؤل الذى طرحته فاطمة الزهراء على النبى — ﷺ — عند ولادتها الحســين رضى الله عنهما فتقـــول :

فاطمة : ألا أعق[٦] .. عن ابنى ؟ (أى أن أذبـــح عن ولدى يـــوم اسبوعه ؟) .

فيرد الرسول ﷺ :

لا يا فاطمة ... ولكن احلقى للحسين رأسه .. وتصدق بوزن شعره ورقا ((أى بوزنه فضـــة) ... عــلى الاوفاض (أى أهــل الصـــفة) والمساكين[٧] .

لقد نزلت آيات كثيرة تصف أخلاقيات أهل الصفة وتبين عفتهم وحبهم لله ورسوله ، وخوفهم من الدنيا وزينتها ، وورعهم وتقواهم واقبالهم على أعمال الاخرة ...

(٦) وتسمى الشـاة التى تذبح فى يوم أسبوع المولود العقيقة .
(٧) حلية الاولياء للاصبهانى ص ٣٣٩ جا .

ويصف لنا فضـــالة بن عبيد حال أهل الصفة فيقول :

كان رسول الله — ﷺ — اذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم فى صلاتهم لمـــا بهم من الخصاصة (أى من الوهن نتيجة الفقر والجـــوع) ويستطرد قائـــلا :

وهؤلاء أهل الصفة ، حتى أن الاعراب تقول عنهم :

أن هؤلاء لمجـــانين •••

وفى تصورنا أنهم هم عقلاء المجانين ، وهم قدوة لمن جاء بعدهم من الصوفية ومن سار على دربهم وتسمى باسمهم وتزى بزيهم من الصوف الخشن والادم •• يقول أبو هريرة عن أهل الصفة :

كان من أهل الصفة سبعون رجلا ليس لاحدهم من رداء •••

وجلس أبو هريرة مع أصحاب الصفة أياما ، فأرســـل لهم الرســـول — ﷺ — عجوة •• فكانوا يقرنون الاثنين من الجوع ••

أى أنهم كانوا يأكلون الحبتين من العجوة مرة واحدة بدلا من واحدة واحدة اشارة الى شدة الجـــوع •

وهؤلاء القوم لم يفرحوا بما أتاهم ولم يحزنوا على ما فاتهم ،حماهم الله عن التمتع بحظوظ الدنيا وشهواتها والانكباب عليها حتى لا يطغوا ولا يبغوا ، ولا يظلموا انهم أهل الصفة رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله •

وذكر أبو نعيم الاصبهانى[٨] ، أن عمر بن حريث وكذلك حبوة بن أبى هانى وغيرهما ذكروا أن الاية الكريمة :

---

(٨) حلية الاولياء للاصبهانى ص ٣٣٨ .

« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض » .

(الشورى : ٢٧)

ذكروا أن هذه الاية انما نزلت فى أهل الصفة لانهم تمنوا الدنيا ونعيمها ... والمقصود بتمنى الدنيا أن ذلك حال الانسان فيها اذ ينشغل بها فيحبها ، فالمنشغل بشىء يحبه ، لكن أهل الصفة حفظهم الله من الدنيا وذلك بأن زواها عنهم ، وقبضها محافظة عليهم ، وصونا لأنفسهم ، وخوفا عليهم حتى لا يطغوا ولا يبغوا ولا يظلموا فى الارض .. فهم فى حالهم هذا فى حمى الله تعالى محفوظين عن أثقال الدنيا ، محروسين من الانشغال بها ولا تهمهم كثرة الاموال وزينتها أو قلتها ، ولا تتغير أحوالهم مع الله قيد أنملة .

وتصديقا لما نقول فقد مر رسول الله ﷺ بأهل الصفة ، فقال لهم :

السلام عليكم ... يا أهل الصفة ...

فيقول أهل الصفة :

وعليكم السلام يا رسول الله ...

يقول ﷺ :

كيف أصبحتم ...؟

فيقول أهل الصفة :

بخير يا رسول الله ...

يقول ﷺ :

يا أهل الصفة .. أنتم اليوم خير من يوم يغدو أحدكم فى حلة ويروح فى أخرى ... أنتم اليوم خير من يوم تسترون فيه كما تستر الكعبة ..

فيقول أهل الصفة :

نحن يومئذ خير ... يعطينا فنشكر ..

(أى عندما ينعم الله علينا فاننا نكون فى خير أفضل ، وسنشكر الله تعالى عليه ونتصدق بأموالنا ونعتق عبيدنا) .

فيرد الرسول ﷺ عليهم قائلا :

بل أنتم اليوم خير ....

والسؤال الان لماذا يرد عليهم الرسول بأن حياتهم فى الفقر أفضل من حياتهم فى الضراء والغنى ؟ ولماذا تكون حياتهم فى هذه الفترة .. أفضل من حياتهم فى غيرها ؟.

فى الحقيقة أن الرسول — ﷺ — أعلم بهم .. فلو أعطاهم الله الثراء والغنى لوقع بينهم التناحر والتحاسد ، والتكالب على الدنيا ولحدثت بينهم الضغينة ، وسقطوا فى البغضاء وتفرقوا شيعا وأحزابا وساء ذلك سبيلا .

وواضح من حديث الرسول — ﷺ — أنه كان يرد أهل الصفة عندما يتمنون الدنيا وحظوظها وعوارضها الزائلة .. ويحببهم — ﷺ فى عمل الاخرة والاقبال على الصلاة وتعلم آيات الله والانشغال بما يفيدهم بحالهم ، وما هو أصلح لبالهم ، وما يعود عليهم بالنفع ، وما يبعدهم عن الاخطار والمهالك ، وما يعصمهم من المعاصى والضلالات .. ويجعل قلوبهم تستروح اليه من نعم الامن والسكينة بعيدا عن الامانى الزائلة ، والامال الزائفة ، وأضغاث الاحلام ..

وصـــف أحوال أهل الصـــفة :

كان عدد ساكنى الصفة يختلف من آن لاخر بحسب الوقت والاحوال وربما تفرق عنها بعضهم أو أكثرهم ، فنقص بذلك عدد ساكنيها ، وربمـا زاد عددهم من الغرباء والقادمين من بلاد بعيدة ، وينضم الوافـــدون الى الموجودين فيكثر عدد القاطنين بالصفة .

أما عن وصفهم فيقول صاحب الحلية :

أن الظاهر من أحوالهم .. والمشهور من أخبارهم غلبة الفقر عليهم ، وايثارهم القلة واختيارهم لها .. (القليل من كل شىء) .. فلم يجتمع لهم قط ثوبان .. ولا حضرهم من الاطعمة لونان ..

(أى لم يقدم لهم من الطعام نوعان) ..

ويستطرد صاحب الحلية نقلا عن أبى هريرة قوله :

« رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون ... فمنهم من يبلـــغ ثوبه ركبته .. ومنهم من هو أسفل من ذلك .. فاذا ركع أحدهم قبض على ثوبه مخافة أن تظهر عورته » ...

يقـــول أبو نعيم عنهم :

انهم المتحققون بالفقر من الصحابة وتابعيهم الى قيام الساعة أمارتهم وأعلام الصدق لهم شاهرة ، وبواطنهم بمشاهدة الحق عامرة ...

قـــراءة القـــرآن :

ويصف لنا واثلة بن الاسقع(٩) حال أهل الصفة فيقول :

« كنت مع أصحاب الصفة ، وما منا أحد عليه ثوب تام » ...

---

(٩) حلية الاولياء للاصبهانى ص ٣٤١ جا .

لقد كان شغل أهل الصفة الشاغل تفهم كتاب الله وتعلم آياته البيانات وكان لهم فهم شديد فى التدين بها ، ويصف أبو سعيد الخدرى هذا الحال عن أهل الصفة وحبهم للقرآن وتعلمه فيقول[١٠] .

أتى علينا رسول الله — ﷺ — ونحن أناس من ضعاف المسلمين (يقصد أهل الصفة) فلما دخل علينا وجد رجلا يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا .. ولم يكن أحد منا على ما أظن يعرفه الرسول ﷺ ... وكان بعض منا يتوارى من بعض من العــرى ...

فسلم الرسول — ﷺ — الحاضرين وقال :

بم كنتم تراجعــون ؟

قالوا : كان هذا الرجل يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا ...

فقال ﷺ :

عودوا الى ما كنتم فيه ... ثم قال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر معهم .. تذكيرا بالاية الكريمة : وأصبر نفسك مــع الذين ....

ثم استطرد قائــلا :

ليبشر فقراء المؤمنين بالفوز يوم القيامة .. قبل الاغنياء بمقــدار خمسمائة عام .. هؤلاء فى الجنة لينعمون .. وهؤلاء يحاسبون ...

(رواه جعفر بن سليمان)

(١٠) المرجع السابق ص ٣٤٢ جا .

ذكـــــر الله :

مر الرسول ﷺ بجماعة يذكرون الله وكان فيهم الصـــحابى الجليـــل سلمان الفارسى .. فعندما رأوا الرسول كفوا عن الذكر .

فقال الرسول ﷺ* :

ماذا كنتم تقـــولون ؟

فقـــالوا :

« كنا نذكر الله ... يا رسول الله » ...

فقال ﷺ :

قولوا كما كنتم تقولون .. فانى رأيت الرحمة تنزل عليكم .. فأردت أن أشارككم فيها » ..

ثم استطرد ﷺ قائلا :

« الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم » ..

تصـــديقا لقوله تعـــالى :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عـــن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » . (الكهف : ٢٨)

★ الحلية جـ١ ص ٢٤١ وما بعدها .

١ — عتبة بن غـــزوان

هو عبد الله بن عتبة بن غزوان يقول عنه صاحب الحليــة « ســابع الاسلام والايمان » • كان من الصحابة الاتقياء المدبرين عن الدنيا الزاهد فى الامارة والسلطان والتارك لولاية المدن والبلدان •

خطب فى الناس يوما فقال :

أيها الناس ان الدنيا قد آذنت بصرم (أى انقطاع) وولت حذاء (أى بسرعة) ، ولم يبق منها الا صبابة كصبابة الاناء (القليل القليل) •••

ثم يستطرد قائلا :

وانى رأيتنى مع رسول الله ﷺ سابع سبعة ومالنا من طعام الا ورق شجر حتى قرحت أشداقنا (جوانب الفم) فوجدت بردة (كساء) فشققتها وينتهى من خطبته قائلا :

« فليس من هؤلاء السبعة اليوم رجل حى الا وهو أمير على مصر والامصار » • لقد صبر عتبة مع رسول الله وجاع كما جاع عليه الصــلاة والسلام فى سبيل الاسلام وتثبيت الدعوة حتى انه يقول عن هؤلاء السبعة الرواد فى نصرة الدعوة :

لقد رأينا مع رسول الله ﷺ سابع سبعة مالنا طعام الا ورق الحبلة (ثمر شجرة العنــاة) حتى أن أحدنا ليضع كما تضع الشاه وما يخــالطه شىء[١٢] •

---

(١١) حلية الاولياء المجلد الاول ص ١٧١ — ١٧٢ •

(١٢) يشبه نفسه وأصحابه عند دخولهم المرحاض مثل الشاه التى فلا تترك اثرا بعد ولادتها ..

ولا شك أن عتبة كان قدوة طيبة فى التزهد فى الدنيا مع قدرته عليها فقد عرضت عليه الامارة للامصار بعد أن نصر الله الدين فرفضها واستحب الفقر على الغنى والجوع على الشبع •• حيث اعتبر الحياة الدنيا قصيرة وأنها وشيكة الانتهاء ، ولا تستحق من المؤمن الامل فيها فما بقى منها من القليل أقــلا ••

ويقتدى الصوفية بالصحابة فى أخلاقهم وسلوكهم ومأكلهم ومشربهم، ورفضهم لتولى المناصب وحياة التقشف والفقر :

ولقد سئل أحد الصوفية : من أين تأكل ؟ فقال : مذ عــرفت خالقى ما شككت فى رازقى •••

ويروى القشيرى عن الخواص انه رأى فقيرا لم يأكل منذ ثلاثة أيام فقال له : ماذا تطلب ؟ فقال : خبزا حارا ومصلية ، فانطلق الخواص يبحث طول النهار فى طلب الفقير ، فلم يتحصل عليه ، فدخل داره وأغلق عليه بابه، فسمع قرعا على الباب ففتحه ، فوجد الفقير وفى يده خبزا حارا ومصــلية يقدمها له قائلا : لقد تخاصم أولادى معى فحلفت ألا يأكل هذا الا أهــل المسجد فرفع الخواص يديه الى السماء ، وقال :

الهى ان كنت تريد أن تطعم ذاك الفقير •• فلم أتعبتنى طول النهار؟•

وهذه الاخلاق الصوفية ثمرة طيبة للاقتداء بالرسول ﷺ ، ويروى لنا القشيرى أن فاطمة الزهراء أتت الرسول بكسرة خبز قد خبزته •

فقال لها : ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟

---

(١٣) القشيرى ــ التجبير فى التذكير ص ٤١٤ تحقيق د. ابراهيم بسيونى

فقالت : خبز خبزته ولم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة ..

فقال ﷺ : « أما وانه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام »(١٤) .

ويعتبر الجوع فى نظر الصوفية أول أركان المجاهدة ، وقد اعتاد الصحابة والصالحون اقتداء بالنبى ﷺ على الجوع والامساك عن الطعام. فوجدوا أن ذلك يثمر ينابيع من الحكمة ، ويرى القشيرى عن يحيى بن معاذ قوله :

الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزهاد سياسة وللعارفين مكرمة* .

والجوع هنا تجربة فردية ، لا يقصد منها تعذيب البدن واتلافه كما يفهمه بعض متصوفة الديانات الشرقية القديمة . انما هو عملية تهذيب وارتقاء بالنفس ، وطلب للمحب ومخالفة لحظوظها ، والتعفف عما فى أيدى الناس والاقبال على ما عند الله اذ هو المطعم الرزق على الحقيقة ...

وهكذا كانت حياة عتبة الصحابى الجليل مثلا يقتدى به الصحابة ونبراسا يستضىء به الذين لا يريدون علوا فى الارض انما استقامت نفوسهم ليغنيها الله ويشبعها الله ويرفعها فى الحياة الاخرة مقاما عليا ...

٢ — سعد بن أبى وقاص*

عن سعد بن أبي وقاص أنه قال لرسول الله ﷺ :

من أنا يا رسول الله ؟(١٥)

---

(١٤) الرسالة القشيرية جا ص ٣٣٠ .

★ الرياض النضره ، للمحب الطبرى — ص ٣٩٤،٣٩٠ جـ٢ .

(١٥) أخرجه الضحاك وأورده صاحب الرياض النضرة — ال...

★ يوجد فرق جوهرى بين التصوف الاسلامى و صحاب ال...

راجع كتابنا نحو ثقافة اسلامية ص ١٧٩ — ٢١٠ .

قال رسول الله ﷺ :

أنت سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة من قال غير ذلك فعليه لعنة الله . وأمه بنت سفيان بن أبى أمية .

لقد كان سعد بن أبى وقاص من المشهور عنه بسرعة اجابة الدعاء كما اشتهر بأنه أول من رمى بسهم فى سبيل الله يقول عن نفسه :

أنى لاول العرب فى رمى بسهمى فى سبيل الله .

ولقد دعى الرسول ﷺ أن يستجاب لدعائه فكان ذلك حقا وصدقا ، اذ كان ذا دعوة مجابة اذ قال الرسول ﷺ فى حقه :

« اللهم استجب لسعد اذا دعاك »[(١٦)] .

ويقال عن يحيى بن عبد الرحمن عن جده أن سعد بن أبى وقاص قال :

يا رب ان لى بنينا صغارا .. فأخر عنى الموت حتى يبلغوا أشدهم .. فأخر الله عنه الموت عشرين عاما .

أتهم رجل يقال له أبو سعده بن أبى وقاص وكان وقتها على الكوفة بأنه لا يعدل فى القضية ولا يقسم بالسوية ولا يسير بالسرية فقال سعد : والله لادعون بثلاث :

« اللهم ان كان كاذبا فأطل عمره ، وأطل فقره ، وعـرضه للفتن .

فكان هذا الرجل بعد ذلك يقول عن نفسه اذا سئل :

لقد أصابتنى دعوة سعد أصبحت شيخا كبيرا مفتونا .

---

(١٦) اخرجه الترمذى الطبقات الكبرى للشعرانى جـ١ .

وقد سقط حاجباه على عينيه ، وأنه ليتعرض للجوارى فى الطرقات فيصهرهن .

ودخل عليه مولى لابنه يشتكى اليه من أذى ابنه عمير وأنه يضربه حتى أدماه فنهاه سعد عن ضربه مررا وأمره بمعاملته بمعروف والنهى عن منكر ، وأغلظ له فى القول ، لكنه لم ينته فدعى عليه وقال :

« أجرى الله دمك على عاقبيك »(١٧) .

فلم يلبث أن قتله المختار بن أبى عبيد .

لقد اشتهر سعد بن أبى وقاص كما سبق الذكر باجابة الدعوة فكان الناس يخافون دعوته ، كما كان ترجى دعوته لاشتهار اجابتها .

ويذكر أن الرسول ﷺ دعى له فقال :

« اللهم سدد سهمه وأجب دعوته »(١٨) .

٣ — سعد بن مالك(١٩)

هو سعد بن مالك أبا سعيد الخدرى . وعلى الرغم من كونه من الانصار أن حاله قريب من حال أهل الصفة لايثاره الصبر ، واختياره الفقر والتعفف ، فكان بذلك يعد من أهل الصفة .

روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من يصبر يصبره الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يسألنا نعطه ، وما أعطى عبد رزقا أوسع له من الصبر » .

---

(١٧) أخرج هذا الحديث الملا .
(١٨) اخرجه ابو عمر وأبو الفرج فى الصفوة .
(١٩) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الاولياء ـ جـ١ ص ٣٦٩، ٣٧٠ .

قال ﷺ : ثم الصالحون ، ان كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد الا الثمرة أو نحوها •••

مما سبق نستطيع أن نؤكد أن الصبر سمة غالية على حياة أبى سعيد الخدرى ومما لا شك فيه أن الصبر غاية أهــل الحــق ، وتتركز آدابهم وأخلاقهم على الصبر لانهم يرون أن الصبر من سمات البشرية وصفة من صفات الانسان لان الانسان الصابر انما يصبر على حال البلاء ، ويشكر على حال النعمة ، والبلاء فى الصبر أفضل لانه أشق على النفس ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى يتكفل بالصابرين ويوفيهم أجورهم(٢٠) •

وذلك تصديقا لقوله سبحانه وتعالى :

« انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (الزمر : ١٠)

ويعتبر الصبر سمة من سمات أهل الحق ويرى بعض العــارفين أن الصبر حال ومقام ، والحال كما نعرف هو موهبة واستعداد ، وأما المقام فهو الدرجة التى يعتليها الصوفى فاذا دام الحال أصبح مقاما • ويعد مقام الصبر من أعظم المقامات ، والصبر أنواع فهناك صبر فى الله والله ومن الله وأصعب أنواع الصبر كما يراه الصوفية وهو الصبر عن الله لانه فى هــذه الحالة يشعر الصوفى بالوحشة ، وكأن الله سبحانه وتعالى ليس معه يبتليه ويجــربه •

فاذا شعر بالانس أصبح صبره مع الله يأخذ بيده ويعينه على أمره ويبشره بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر •

---

٢) المؤلف : ألفاظ الصوفية ومعانيها ص ٢١٠ .
للمزيد راجع : التعرف على مذهب أهل التصوف . الكلاباذى ١١٢—١١٣

فيشعر بالامن والسكينة ويصدق عليه قول عز من قائل :

« وبشر الصـــابر » (البقرة : ١٥٥)

فاذا اتخذ أبو سعيد الخدرى طريقه الى الله عن طريق الصبر فهـــو طريق للمجاهدة والمعاناة والمكابدة للوصول الى القربى من الله ٠

وقد اقتدى به من بعده كثير من الصوفية المسلمين ٠

٤ ــ عريف الصفة (أبو هريرة)

هو أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الرومى اليمانى ، كان اسمه فى الجاهلية عبد شمس ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن ، واشتهر بكنيته حتى غلبت على اسمه وعندما سئل لـــا كنيت بذلك ؟

قال : كنيت أبا هريرة لانى وجدت هرة فحملتها فى كمى فقيل لى : أبو هريرة ٠

ويعتبر أبو هريرة أشهر من سكن الصفة وأقام فيها طوال عمر النبى ﷺ وكان النبى ﷺ اذا أراد أن يجمع أهل الصفة لطعام حضره تقدم الى أبى هريرة ليدعوهم ويجمعهم لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم ٠

وروى عن أبى هريرة أنه كان ذاهبا مع رسول الله ﷺ الى منزله فوجدا فى المنزل لبنا فى قدح فسأل ﷺ : من أين هذا اللبن ؟

فقالوا : أهداه لك فلان ٠٠ أو فلانة ٠٠

فقال ﷺ : يا أبا هـــــر ٠٠٠

فأجاب ملبيا : لبيك يا رسول الله ٠٠٠

---

(٢١) راجع أبو نعيم الاصبهانى : حلية الاولياء ص ٣٧٦ــ٣٨٥ ج١ ٠

فقال ﷺ : الحق أهل الصفة فادعهم ...

ولقد كان الرسول — ﷺ — يعتبر أهل الصفة أضياف الاسلام اذا أتته صدقة بعث بها اليهم ولم يتناول منها شيئا ، واذا أتته هدية أرسل اليهم وأصاب منها وأشركهم [٢٣] .

ومما يروى عن أبى هريرة أنه كان ورعا ملتزما سنة رسول الله — ﷺ يحذر الناس من الانغماس فى ملذات الدنيا وشهواتها يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، صبر على الفقر الشديد حتى انه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع .

ونظرا لان أبا هريرة كان عارفا بمنازل أهل الصفة فيقول عنهم :

« كنت فى سبعين رجلا من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء أو بردة »أو كساء قد ربطوها فى أعناقهم ... »

ومما اشتهر به أبو هريرة روايته الحديث عن رسول الله ﷺ وفى هذا الصدد يقول عن نفسه :

انكم تقولون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبى ﷺ وتقولون : ما للمهاجرين والانصار لا يحدثون عن النبى ﷺ مثل حديث أبى هريرة ..؟

وأن اخوانى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالاسواق ، وكان يشغل اخوانى من الانصار عمل أموالهم ، وكنت امرءا مسكينا من مساكين الصفة ألزم النبى ﷺ على ملءبطنى ، فأحضر حين يغيبون ، وأعى حين ينسون »[٢٣] .

---

(٢٢) محمد طاهر حكيم : السنة فى مواجهة الاباطيل ص ١٣٥ — ١٣٧ .

(٢٣) حلية الاولياء ص ٣٧٥ — ٣٨٥ جـ١ .

لهذا كان أبو هـريرة حافظا متقنا ضـابطا لمـا يروى من أحاديث — رسول الله ﷺ ، اجتمعت فيه صفتان عظيمتان تتمم احدهما الاخرى ، الاولى سعة علمه وكثرة مروياته ، والثانية قوة ذاكرته وحسن ضـبطه ، وهذا غاية ما يتمناه أولو العلم .

ويستطرد أبا هريرة قائلا[٢٤] :

يقولون : أكثرت يا أبا هريرة ... والذى نفسى بيده لو حدثتكم بكل ما سمعته من رسول الله ﷺ لرميتمونى بالحجارة ..

وكان أبو هريرة عفيف النفس مع فقره فياض اليد مبسوط الكف لم يحمله فقره على البخل والشح ، وروى عن سعيد بن المسيب أنه قال :

« رأيت أبا هريرة يطوف بالسوق ثم يأتى أهله فيقول : هل عندكم من شىء ؟ فان قالوا : لا . قال : فانى صائم .

ومن محاسن أبى هريرة التى تروى عنه أنه كان حسن المعشر طيب النفس ، صافى السريرة نظر الى الدنيا بعين الراحل عنها وكان اذا مـر بجنازة قال :

روحى فانا غادون .. أو أغدى فانا رائحون ..

وكان أبو هريرة فى مرضه الاخير يبكى فقيل له : ما يبكيك ؟.

فقال : اما انى لا أبكى على دنيا كم هذه ، ولكنى أبكى على بعد سفرى وقلة زادى ، وأنى أ صبحت فى صعود مهبط على جنة ونار ، لا أدرى أيهما يؤخـذ بى ...

---

(٢٤) المرجع السابق .
(٢٥) حلية الاولياء ص ٣٧٥—٣٨٥ جـ١ .

ومما هو جدير بالذكر أن أبا هريرة كان يدعو الى الزهد فى الدنيا وعدم زخرفة المساجد أو تحلية المصاحف وفى هذا الصدد يقول :

« اذا ذوقتم مساجدكم ، وحليتم مصاحفكم ، فالدمار عليكم » •

ويعتبر أبو هريرة من أعظم رواة الحديث فى عهد رسول الله ﷺ برغم أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب • الا أنه كان يمتاز بذاكرة حافظة ، وأنه كان يسمع الحديث مرة واحدة فلا ينساه أبدا ، ويذكره بلفظه ومعناه ، كما ورد عن رسول الله ﷺ أو عن أحد أصحابه •

ويعد أبو هريرة من الرواد الاول للتصوف الاسلامى اذ أنه بالاضافة الى معرفته بعلوم الحديث والفقه معرفة تامة الا أنه كان على علم بالطبائع الباطنية والتى كان لا يذيعها بين الناس ولا يتحدث بها خوفا من أن يفتتن المسلمون •

الا أنه كان يتحدث بهذه العلوم مع أصحابها مثل على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وحذيفة بن اليمان الذى كان صاحب علم المنافقين* •

ومن هذا يتضح لنا أن عدم انتشار علوم الصوفية برغم أصالتها وأنها تأخذ مباشرة من الكتاب الكريم والسنة المحمدية ان عدم انتشارها فى صدر الاسلام راجع الى أن الدعوة الاسلامية كانت فى نشأتها فى مكان لابد أن يخاطب الناس على قدر عقولهم بالاضافة الى أنه ليس هناك من حاجة الى نشرها على العامة من الناس خوفا من البلبلة والفتنة فضلا عن أن الرسول ﷺ كان يرد على كل استفسار أو سؤال يحتاج الى اجابة شافية ومن هنا لم يكن هناك من داع الى التبحر فى العلوم الصوفية والباطنية ، خاصة فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين •

★ راجع للمزيد — المحب الطبرى — الرياض النضرة فى مناقب العشرة.

فلما فتحت البلاد الاسلامية وبدأ المسلمون يختلطون بأمم وشعوب وقبائل أخرى وتفشت بينهم الافكار الدخيلة والمذاهب الضالة ، نحى بعض الصالحين منحى بعيدا عن تلكم التيارات الغربية وابتعدوا عن الاضـــواء والعز والسلطان ليفلتوا بجلودهم من نار طغيان الشهوات والسلطان .

ولقد لقب هؤلاء باسم الصوفية وقد اتخذوا الرسول ﷺ قدوة وأسوة فى سلوكهم وأخلاقهم ومعاملاتهم حتى يسلموا من الوقـــوع فى المعـــاصى والاثام(٢٦) .

فاذا تتبعنا منهج الصوفية فاننا سنجد مما لا شك فيه أنهم ســـاروا على نهج الرسول ﷺ فى أفكارهم وسلوكهم وحياتهم وأن شطحات أحدهم ووقوع أحدهم فى الذلل والخطأ ليس معناه أنهم قد خرجوا عن شريعة الله انما هذا الخطأ أو تلكم الشطحات نتاج للضـــعف الانســـانى اذ الكمال لله وحـــــــده * ...

قال أبو هريرة للرسول ﷺ :

ما لنا يا رسول الله .. اذا كنا عندك رقت قلوبنا ، وزهدنا فى الدنيا فكنا من أهل الاخرة ... واذا خرجنا من عندك أحببنا الدنيا واشتهيناها وشممنا (لمسنا) النساء والاولاد ..

فقال ﷺ :

لو أنكم تكونون فى كل حال على الحال التى أنتم عليها عنـــدى ... لزارتكم الملائكة فى بيوتكم ...

---

(٢٦) للمزيد راجع : حلية الاولياء — الاصبهانى — المقدمة .

★ للمزيد راجع كتابنا : الحكومة الباطنية .

ولو أنكم لا تذنبون لجاء الله بخلق جديد ليذنبوا فيغفر الله لهم[٢٧] ..

٥ ــ أبو الدرداء الذاكر لله فى السراء والضراء

اشتغل أبو الدرداء قبل البعثة بالتجارة ، فلما بعث النبى ﷺ ودخل أبو الدرداء فى الاسلام أراد أن يجمع بين عبادة الله والتجارة فى آن واحد فلم يستطع ذلك ، ففضل العبادة على التجــارة ... فلما ســئل عن ذلك قال[٢٨] :

والذى نفس أبى الدرداء بيده ، ما أحب الى اليوم الا أن يكون لى حانوتا بجوار المسجد حتى لا تفوتنى صلاة ... أبيع فيه وأربح أربعين دينارا أتصدق بها كلها فى سبيل الله ...

فقيل له :

وما يمنعك من ذلك يا أبا الدرداء ؟

فقال : خوفى من شدة الحســاب .

لقد أراد أبو الدرداء أن يطبق قوله تعالى ؟

« أحل لكم البيع وحرم الربا* » ، فيتكسب من البيع والشراء ثم ينفق ذلك كله فى سبيل الله كل يوم فلم يقدر على ذلك ، لانه يريد أيضا أن يطبق قوله عز من قائل : «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله*» فلم يجتمع له ذلك أراد أن يكون عبدا ربانيا وأن يكون تاجرا ناجحا متصــدقا بماله فى سبيل الله .

---

(٢٧) حلية الاولياء ص ٣٧٥ــ٣٨٥ جا .
(٢٨) حلية الاولياء ، الاصبهانى ، ص ٢٠٩ جا .
★ البقرة : ١٨ .
★ النور : ٣٧ .

كان خوف أبى الدرداء من الله عظيما ، وعندما سأل عبد الله بن عتبة أم الدرداء عن أفضل عمله ، قالت : التفكر والاعتبار[٢٩] ...

ولقد طلب رجل من أبى الدرداء أن ينصحه بنصيحة تنفعه فى دنياه وآخرته فقال أبو الدرداء له :

« أذكر الله فى السراء ... يذكرك فى الضراء »

ويبين لنا أن الله تعالى أنزل فى حقه بعض آياته البينات اذ يحكى لنا صاحب الحلية أن أبا الدرداء تعرض أحدهم له فى الطريق ، وقاه له :

ما لكم يا معشر القراء ... أجبن منا ... وأبخل منا اذا اسئلتم ..؟ وأعظم لقما منا اذا أكلتم ... ؟

فأعرض عنه أبو الدرداء ، ولم يرد عليه ، فعلم عمر بن الخطاب بالخبر ، فسأل أبا الدرداء ..

فقال له :

« اللهم عقوا ... وكل ما سمعناه منهم ... نأخذهم به ... فانطلق عمر بن الخطاب الى الرجل وأمسك واقتاده الى الرسول ﷺ :

فقال الرجل : انما كنا نخوض ونلعب ، فنزل قول عز من قائل :

« ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب »[٣٠] .

لقد كان أبو الدرداء يتمتع بفراسة نادرة وفهم صادق للنفس البشرية وآفاتها . ومن أفضل ما فى هذا الصدد قوله :

---

(٢٩) نفس المرجع السابق .
(٣٠) حلية الاولياء ص ٣٧٥—٣٨٥ جا .

« لا تكلفوا الناس ما لم يكلفوا ... ولا تحاسبوا الناس دون ربهم ،
يا ابن آدم عليك نفسه .. فانه من تتبع ما يرى فى الناس يطلْ حـزنه ..
ولا يشف غيظه » ..

ويأخذ الشيخ محيى الدين بن عربى عن أبى الدرداء قوله :

« أعبدوا الله كأنكم ترونه وعدوا أنفسكم من الموتى »

ويظهر هذا المعنى عند محيى الدين بن عربى فى قوله* :

وفى كـل شىء له آيــة   تدل على أنـه الواحـد

ويناجى ذو النون ربه كأنه يردد قول أبى الدرداء :

إلهى ما أصغيت الى صوت حيوان ... والى حفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقعـة رعـد ، وجدتها شاهدة بواحدنيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شىء ...

العلم والعمـل :

ركز أبو الدرداء رضى الله عنه على الربط بين العلم والعمل .

يقول أبو الدرداء فى ذلك :

لا يكون الانسان تقيا حتى يكون عالمـا ولن يكون للعلم جميلا حتى يكون به عاملا ، وينادى أبو الدرداء فى أهل دمشق قائلا :

يا أهل دمشق أنتم الاخوان فى الدين والجيران فى الدار والانصار على الاعداء ما يمنعكم من مودة .. مؤمنة على غـيركم ، مالى أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون وأراكم قد أقبلتم على ما تكفل الله لـكم به ، وتركتم ما أمرتم به ألا ان قوما بنوا بنيانا كبيرا وجمعـوا مالاً كثيرا ، وأملوا فى الدنيا بعيدا فأصبح بنيانهم قبورا وأمالهم غروا وجمعهم بورا

★ الفتوحات المكية ــ راجع كتابنا : الحكومة الباطنية .

... ألا فتعلموا وعلموا فان العالم والمتعلم فى الاجـــر سواء ولا خير فى الناس بعـــدهم .

ويربط أبو الدرداء بين الخوف من الله وبين العمل لله فيقول :

أخوف ما أضافه (على) أن يقال لى يوم القيامة : أعلمت أم جهلت ؟

فان أجبت وقد علمت فلا تبقى لى آية آمرة أو آية زاجرة الا أخذت بفريضتها . فالاية الامرة تقول لى هل أئتمرت ، والاية الزاجرة تقول هل أزدجـــرت ؟

وأعوذ بالله من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع[٣١] .

ان خوف أبى الدرداء أن يسأل يوم الحساب هل علمت بمـــا علمت ويقول فى ذلك :

انما أخشى على نفسى أن يقال لى على رؤوس الاشهاد يا أبا الدرداء هل علمت ؟

فأقـــول : نعم .

فيقال لى : ماذا علمت بما علمت ؟

خطب يزيد بن معاوية أبنة أبى الدرداء فرفض تزويجهـــا اياه ، ثم خطبها رجل من عامة الناس فزوجها له ، فلما سئل فى ذلك قال :

انى خفت على ابنتى عندما تعيش فى قصور يلتمع فيها بصرها وقام على خدمتها الخدم والحشم فأين دينها منها يومئذ ؟

---

(٣١) حلية الاولياء جـ١ ص ٢١٤ .

لقد اقتدى كثير من الصالحين بأبى الدرداء فى مسألة تزويج بناتهن من الامراء وأولاد السلاطين فكانوا يتحررون من تزويجهن بالامراء خوفا عليهن من ضياع دينهن مثل سعيد بن المسيب عندما رفض تزويج ابنته لابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان •

وكذلك أبو العباس المرسى ، وفضل الاخير أن يزوجها لمريده الاسمر ياقوت العــرشى •

يقول أبو الدرداء فى علم السلوك :

ثلاث تجعل المرء يملك زمام نفسه : الامر الاول لا تشكو مصيبته ، والامر الثانى لا تحدث بوجيعتك ، والامر الثالث لا تزكى نفسك بلسانك ••

كــراماته :

بينما كان سلمان الفارسى رضى الله عنه فى زيارة لابى الدرداء وكان يوقد نارا تحت قدر له ، واذا القدر يصدر صوتا ، ثم يرتفع الصوت بتسبيح كهيئة صوت صبى ثم انكفأ القدر ثم رجع الى مكانه ولم ينصب منه شيء ، فجعل أبو الدرداء يقول : يا سلمان •• يا سلمان •• أنظــر الى العجب ، أنظر الى ما لم تنظر الى مثله أنت ولا أبوك •

فقال له سلمان : أما أنك لو سكت ••• لسمعت من آيات الله الكبرى

٦ ــ سلمان الفارسى بحر العلم

يكفى أن قال عنه على بن أبى طالب :

« سلمان تابع العلم الاول والعلم الاخر •• ولا يستطع أحد أن يدرك ما عنــده من علم » •

---

(٣٢) حلية الاولياء ص ٣٦٧ــ٣٦٨ ج١ .

★ راجع الطبقات الكبرى ــ الشعرانى (أبو العباس المرسى) .

لقد أسماه على بن أبى طالب كرم الله وجهه لقمان الحكيم ، وأكد أنه من أهل البيت ، فلقد قرأ الكتاب الاول والكتاب الاخر والعلم الاول والعلم الاخر .. فهو بحر لا شاطىء له فى العلم ..

زار سلمان الفارسى صديقه أبا الدرداء فوجد امرأته رثة الهيئة ، فقال لها : ماذا بك ؟ فقالت لسلمان : ان أخاك ليست له حاجة فى شىء من الدنيا ، لا يريد النساء ، يقوم الليل ، ويصوم النهار ...

فلما دخل سلمان قرب أبو الدرداء اليه الطعام .. فأقسم سلمان ألا يأكل الا اذا أكل معه ، وكان صائما فأفطر .. ثم بات عنده ... وأراد أبو الدرداء قيام الليل كله ، فحبسه سلمان ... وقال له :

يا أبا الدرداء ... ان لربك عز وجل عليك حقا ... ولاهلك عليك حقا ... ولجسدك عليك حقا ... فاعط كل ذى حق حقه .. صم وأفطر .. وقم ..ونم .. وائت أهلك ...

فلما كان الصبح قاما وصليا ، ولما انتهيا الى الرسول ﷺ قال أبو الدرداء للرسول ان أخى سلمان قال لى ما سبق ذكره ... فقال ﷺ : يا أبا الدرداء ان لجسدك عليك حقا ...

وفى رواية أخرى : « لقد أوتى سلمان من العلم » .

ويحكى عنه أنه عندما تزوج دخل على امرأته فى بيتها فوجده قد أحسن فرشه وتنجيده بالستائر والمفروشات ، وامتلأ بالرياش والمتاع ، ووجد نسوة يجلسن عند امرأته ... فقال لزوجه :

---

(٣٣) حلية الاولياء ص ٣٦٧—٣٦٨ جـ١ .

لقد أمرنى الرسول ﷺ عند الزواج ألا أتخـذ من الاثاث الا أثاث المسافر ••• ولا أتخذ من النساء الا الزوجة •• فقامت النسوة وخرجن من بيته ، ثم قال لوجه أتطعينني ؟ أم تعصينى ؟ فقالت : نعم أطيعك ، فقاما فصليا •

وفى الصباح جاءه بعض أصحابه فسأله كيف وجدت امرأتك ؟••• فسكت فأعاد السؤال فسكت فأعاد السؤال وقال له سلمان : ما بال أحدكم يسأل عن أشياء من وراء الابواب والحيطان •• انما يكفى أن يسأل •• فاذا أجيب عن الشيء •• فقد أجيب والا سكت عنه •••

واذا دلت هذه القصة على شيء فانما تدل على أدب سلمان ومحافظته على المودة والرحمة بين الزوجين وعدم هتك ما بين الزوجين من أسرار ••

وعن بريدة أن الرسول ﷺ قال* :

نزل على الروح الامين فحدثنى أن الله يحب أربعة من أصحابى ••• فقال له : من حضر المجلس ، من هم يا رسول الله ؟ •••فقال : « على وسلمان وأبو ذر والمقداد » •

وعن أنس قال سمعت الرسول ﷺ يقول : اشتاقت الجنة الى أربعة « على والمقداد وعمار وسلمان » •

اسـلامه :

كان سلمان من أهل فارس من قرية يقال أن أهل القرية كانوا يعبرون الخيل ، ولم يكن سلمان يعتقد فى دينهم ••• انما كان يعتقد برب السموات والارض ••• فأنطلق فى الارض يطلب الدين الحق •• فقابل رجل لم يكن يكلم الناس فقال له سلمان : أريد الدين الحق •

★ حلية الاولياء جا ص ٢٦٨ .

فقال له : لا علم لى الا أن هناك راهبا بالموصول هو ما نطلبه ، فانطلق سلمان اليه ووجده يقوم الليل ويصوم النهار فكان يفعل ما يفعل ثم اذ به بعد ثلاث سنين ويوصيه أن يذهب الى راهب فى الجزيرة ويقرئه السلام فذهب وقص عليه فأكرمه وعبد ما كان يعبده ، ومكث ثلاث سنوات ولما دنا أجله ، قال له : بماذا توصينى ، قال ما أعلم الا راهب بعمورية وهو على الدين الحق ... فأذهب اليه .. ومكث سلمان معه ثلاث سنوات ثم عندما قرب أجله قال له : يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبـــوة .

بماذا توصينى قال : هناك نبى سيظهر فى بلاد الحجاز .. فأخذ يسأل بنى التجار فقالوا له : ان هذا حق ... فسألتهم أن يصحبونى الى مكة على أن أكون عبدا لاحدهم .. فوافق أحدهم .. ولما وصلوا مكة علمت عند هذا الرجل فى بستان له وخرجت أطوف مكة كلها فاذا بى أجـــد امرأة من بلادى ، فلما كلمتها علمت أنها وأهلها قد أسلموا جميعا .

فسألت عن مكان رسول الله ﷺ ، فعلمت أنه يجلس مع أصحابه ، حتى اذا طلع الفجر تفرق الجمع ، فوطدت العزم على لقاء الرسول ﷺ فى المكان الذى أخبرونى به حتى اذا أتيته وقفت خلفه فعرف منى الذى أريد ، فأسقط ازاره قليلا فرأيت خاتم النبوة بين كتفيه ، فقلت فى نفسى :

الله أكبر .. هذه العلامة الاولى التى أعلمنى الراهب بهـــا .. وفى الليلة الثانية حضرت مجلس الرسول وفى يدى شىء من تمـــر فلما جلس الرسول وضعت التمر بين يديه ، فقال : ما هذا ... ؟

---

(٣٤) حلية الاولياء جـ١ ص ٣٦٧ وما بعدها .

قلت : صـــدقة ••

قال لاصحابه : كلوا أنتم •••

ولم يعد يده الى التمر ••• فقلت فى نفسى :

الله أكبر •• هذه هى العلامة الثانية التى أطلعنى عليها •• وفى اليوم الثالث جمعت شيئا من التمر ثم جئت به الى مجلس الرسول ﷺ ووضعته بين يديه ، فقال : ما هذا •• ؟ —

قلت : هـدية •••

فأكل ﷺ وأكل الصحابة معه ••

فقلت : أشهد أن لا اله الا الله •• وأنك رسول الله •

فسأل الرسول عن قصتى ، فأخبرته بها ، ولمـا علم أننى عبد لصاحب البستان قال : « انطلق » فاشتدت نفسى •••

فقال صاحب البستان : تدفع لى وزن نواه من ذهب وتغرس لى مائة نخلة وتضمن انباتها •

فأتيت الرسول ﷺ وأخبرته بما حدث فقال : أعطيـه الذى سـألك وأحضر لى الدلو الذى تسقى به ذلك النخل •

فأتيت بالدلو فدعى لى رسول الله ﷺ ، فانطلقت وغرست به ذلك النخل •• والله ما ماتت نخلة من المائة نخلة ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فدعى لى بوزن نواة من ذهب •• فأعطيت لى • فذهبت بها الى صاحبى فوضعها على الميزان ووضع فى الكفة الاخرى نواة ، فرجحت فى الميزان(٣٥) •

---

(٣٥) حلية الاولياء جـ١ ص ٣٦٧ وما بعدها .

فانطلقت بعدها الى النبى ﷺ فكنت معه لم أتركه أبدا . ولما حضرت سلمان الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك يا سلمان ألم يفارقك الرسول ﷺ، وهو عنك راض* .

قال سلمان : والله ما أخاف أو أجزع من الموت ولكن عهد الينا الرسول ﷺ عهدا ، ليكن متاع أحدكم من الدنيا كزاد الراكب .

ونظر الحاضرون فلم يجدوا الا بضعة عشر دينارا ، ويقال أن متاع سلمان قد بيع فبلغ أربعة عشر درهما .

ولقد عين سلمان الفارسى أميرا على أكثر من ثلاثين ألفا من الفرسان المسلمين وكان يخطب فى الناس وهو يرتدى عباءة يلبسها أحيانا ويفترشها أحيانا .

ويحكى عن الحارث بن عميرة هذه القصة التى حدثت بينه وبين سلمان الفارسى أتيت الى المدائن ، فوجدت رجلا ذا ثيابا ممزقة ومعه آديم أحمر ، ... فألتفت الى وأشار بيده أن أبقى مكانك ... فسألت من كان عندى ؟ « من هذا الرجل » ؟

قالوا : هذا سلمان .. فأنظرت حتى خرج بعد أن لبس ثيابا بيض ، ثم أقبل وأخذ بيدى وصافحنى .

فقلت : يا عبد الله .. ما رأيتنى فيما مضى وما رأيتك وما عرفتنى وما عرفتك .

قال . نعم .. والذى نفسى بيده لقد عرفت روحى روحك حين رأيتك، ألست أنت الحارث بن عميرة .

فقلت له : نعم ...

★ حلية الاولياء جا ص ٢٦٨ وما بعدها .

فقال : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : الارواح جنود مجندة ما تعارف منها أئتلف وما تناكر منها اختلف •

لقد كان سلمان الفارسى يلحق رأسه كله ، وعندما يسأل : لماذا تفعل ذلك يا أبا عبد الله ؟

فيقول انما العيش عيش الاخرة(٣٦) •

وكان يقول عن آل الرسول ﷺ :

لقد كانوا يصبحون وما عندهم دينارا ولا درهم ولا مد من طعام •

وكان يعمل بيديه فاذا أصاب رزقا اشترى لحما أو سمكا ودعى مرضى الجزام ليأكلوا معه وكان يقول : انى لاحب أن آكل من كد يدى •

جاء اليه رجلين فدخلا عليه وسلما عليه ثم قالا : هل أنت سلمان الفارسى ؟

فقال سلمان : نعم •

قالا : أنت صاحب رسول الله ﷺ •• ؟

قال سلمان : لا أدرى •

فارتاب الرجلان فيه واعتقدا أنه ليس سلمان الذى يريدانه •

فقال لهما سلمان : أنا سلمان الذى تريدان ، قد رأيت رسول الله ﷺ وجالسته •• لكن صاحب رسول الله من دخل معه الجنة •

ثم استطرد قائلا : ما حاجتكما ؟

قالا : جئناك من عند أخ لك بالشام يسمى أبا الدرداء •

---

(٣٦) حلية الاولياء جا ص ٣٦٧ •
(٣٧) حلية الاولياء جا ص ٣٦٧ وما بعدها •

فقال سلمان : فأين الهدية التى أرسلها معكما ؟

فقالا : ما أرسل معنا هـــدية .

قال سلمان : أتقيا الله وأديا الامانة ، ما جاءنى أحد من عند صاحبى الا وجاء معه بهدية .

قالا : والله ما بعث معنا بشىء ،ولكن معنا أموال اذا أردت أن تأخذ منها فخـــذ ما تشـــاء ...

فقال سلمان : والله ما أريد أموالكما ولكن أريد الهدية التى بعث بها معكما .

قالا : أى هدية انه لم يرسل معنا شيئا الا أنه قال عنك : ان رسول الله ﷺ كان يقربك اليه ويحبك حبا جما ، ثم قال لنا : فاذا أتيتم ســـلمان فاقرأه منى السلام .

فقال سلمان : أى هدية أحب لى من هذه .. هذه هى الهدية التى أريد منكما .. وأى هدية أفضل من السلام ، وتحية من عند الله مباركة طيبة .

قابل حذيفة بن اليمانى سلمان فقال له : يا أبا عبد الله الا أبنى لك بيتا فكره سلمان سماع ذلك من حذيفة .

فقال له حذيفة : مهلا يا أخى .. حتى أخبرك بهذا البيت انى سأبنى لك بيتا اذا نمت فيه تكون رأسك عند القبلة ، ورجلاك من الجانب الاخر ، واذا قمت لم تستطع وأصبيت رأسك .

فقال سلمان : كأنك يا حذيفة فى نفسى .

ويحكى عن سلمان الفارسى انه قال :

ان الله تعالى اذا أراد بعبد شرا نزع منه الحياء ، فاذا لقيته ، لقيته ممقتا ، فاذا كان مقيتا ممقتا نزعت منه الرحمة ، فاذا نزعت منه الرحمة

---

(٣٧) حلية الاولياء جـ١ ص ٣٦٧ وما بعدها .

لقيته فظا غليظ القلب ، فاذا أصبح فظا غليظ القلب نزعت منـــه الامانة ، فيصبح خائنا ، فاذا أمسك ذلك نزعت عنه بيضة الاسلام فكان لعينا ملعونا.

ولقد كان سلمان الفارسى مسقطا للتدبير متوكلا على الله ، يقول :ـــ

عليك بالتوكل .. نعم الشيء التوكل .. نعم الشيء التوكل .. نعم الشيء التـــوكل ..

وكان له صديق يدعى عبد الله بن سلام ، فقال له ســـلمان : اذا مت قبلى ، فأخبرنى بما تلقاه عند ربك ، وان مت أنا قبلك أخبرك بما ألقـــاه

ومضت الايام ، ومات سلمان ورآه صاحبه عبد الله بن سلام فى المنام .

فقال له : كيف أنت يا سلمان ؟

قال : بخير والحمـــد لله .

فقال عبد الله : أى الاعمال وجدتها أفضل ؟

قال : وجدت فى التوكل شيئا عجيبا .

ذهب سلمان الفارسى مرة الى السوق ورآه أحدهم وقد اشترك قدرا من الطعام .

فقال له : يا سلمان ، أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ .

فقال سلمان : ان النفس اذا حصلت رزقها اطمأنت وتفرغت للعبادة وييئس منها الشيطان* .

ولـــا كان سلمان على فراش الموت دخل عليه بعض أصحابه فأطالوا الجلوس عنده فقال لامرأته : أين المسك الذى عندك ؟

فقـــالت : هـــو ... ذا .

---

(٣٩) حلية الاولياء للاصبهانى ـــ ابو نعيم الاصبهانى ص ١٨٥:٢٠٨ ج١

★ راجع : ألفاظ الصوفية ـــ للمؤلف (التوكل) .

فقال سلمان : ألقيه فى المـاء •• ثم رشى حول فراشى •• فانه الآن يزورنا أناس ليسوا بالانس ولا بالجن •• فخرج الذى عنده •• فرجعوا بعد فترة فوجدوه قد انتقل الى رحمة الله — رضى الله عنه •

وتحكى امرأة سلمان عن وفاته تقول : عندما حضر سلمان الموت كان فى بيت له أربعة أبواب •

فقال لها : أفتحى هذه الابواب •• فانه سيزورنى زوار سيدخـلون على •• لا أدرى من أى الابواب سيدخلون •• ثم أخذت بمسك فطرحته على فراشـه •

وقبض وكأنه نائم فى فراشه — رضى الله عنه •

ولقد توفى سلمان الفارسى عن عمر يناهز مائتان وخمسين سنة •

لقد كان سلمان حكيما زاهدا عالمـا بعلوم الدنيا والاخرة وهو قبلة العارفين ومنارة للعلماء وقدوة فى السلوك والاخلاق الاسلامية احتذى به كثير من شيوخ الصوفية ومريديهم وأخذوا عنه رضى الله عنه •

٧ — بـلال بن رباح

دخل عليه أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — على حذر ، وهمس فى أذنه بالنبأ الهام الذى كان ينتظره طويلا •

فقد كان بلال يؤمن بأن هذه الاحجار يسمونها آلهة لا تنفع ولا تضر ••• ولكن بحكم العادة وكطلب سيده « أميه » ، كان يتوسل بها فى السفر ، ويستأذنها فى أمور التجارة التى يرعاها لمولاه •

---

(٤٠) الكواكب الدرية — المنباوى ص ٥٩ •
(٤١) الطبقات الكبرى — الشعرانى)ا ص ٢١ •

فكان يذهب من وقت لاخر لذلك الكاهن ليضرب له بالقداح فى مقابل بعض الهدايا والقرابين .

فان فتر أو بخل فى هداياه عاكسه « هبل » الاله المصنوع من العقيق الاحمر ، صاحب اليد الذهبية ومنعه من السفر أو ما يستهدف اليه من عمل أو تجارة . كان هبل العظيم يغير رأيه فى التو والساعة ويسمح له بالسفر للتجارة متى قدم اليه قربانا آخر .

ما هذا الهراء ... أيعقل أن يكون ما هو حق متغيرا ... وما هـو باطل حقا ..؟ ان هذا الاله كاذب غشاش ... كانت هذه الخواطر الدفينة تجوب عقل بلال ، ولا يستطيع أن يصرح بها لاحد فقد كان عبـدا ضعيفا لاميه يعمل له ، ويأكل من فضله ، ويعبد ما يعبد ، فكيف يمكن أن يتشكك أو يجهر بما فىنفسه وهو فى هذه الحالة من الرق والعبودية ؟

دخل أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — سرا الى غرفة بلال ، وكان الليل دامسا وأدلى له بالنبأ الهام .. « لقد ظهر نبى الامة يا بلال » ... وتفتحت أوداج بلال وبدأ بريق عينيه يظهر فى حلكة الدجى كمصباح منير ، وأراد بلال أن يستزيد علما فقال : ومن هو ؟[٤٢] .

فقال أبو بكر — رضى الله عنه — : محمد بن عبد الله « ﷺ » .

قال بلال : وكيف علمت ؟

قال أبو بكر : سرى همس فى مكة أن محمدا قد أوحى اليه ، فذهبت وسألته وصدقته وآمنت بأن « لا الل الا الله وأن محمدا رسول الله » ... فما رأيك يا بـــلال ؟

---

(٤٢) حلية الاولياء جـ١ (بلال بن رباح) .

ومضت لحظة سكون — لكن بلال كان يتخذ قراره •• وكأن بأبى بكر يحثه على اتخاذ القرار الخطير •• فيقول له :

قل يا بلال أشهد أن لا اله الا الله •• وأشهد أن محمدا رسول الله ••

صمت بلال قليلا ثم قال :

أى والله ، لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله •

وقتها انفرجت أسارير الصديق وشاع البشر فى نفسه •••

ثم قال لبلال :

سأنتظر غدا لنذهب سويا الى محمد — ﷺ — لتبايعه •• وفى الموعد ذهب بلال وبايع الرسول عليه الصلاة والسلام — وبدأ بلال حياة جديدة تماما •

خرج بلال من عند الرسول — ﷺ — واتجه الى هبل العظيم ، اله قريش ومن حوله من الالهة الاصنام •• وأخذ يتساءل :

كيف كنت أعتقد فى هذه التماثيل ••؟ كيف كنت أتقرب اليها بالقرابين؟ انها لا تدرى شيئا •• لا تدرى ما الرضا ؟ وما الغضب •• ؟

ويعاتب بلال نفسه فيقول لها : (٤٣)

كيف لم تهتدى يا نفسى ، ان هذه الالهة من صنع انسان ، وانها حقيرة •• حقيرة بدرجة أنها لا تسمع •• ولا ترى •• ولا تحس •• ولا تعقل شيئا ••

---

(٤٣) حلية الاولياء جـ١ (بلال بن رباح) .
(٤٤) الحلية جـ١ (بلال بن رباح) .

اتجه بلال الى هبل الهيم العظيم ووقف أمامه قائلا :

وأنت أيها الاله العاجز •• ألم تكسر يدك •• ولم تستطع أن تفعل شيئا — ألم يصنعوا لك يدا ذهبية بدلا من يدك المفقـودة المكسورة ••؟ ماذا تستطيع أن تفعل لى لو لطمتك •• لو ضربتك •• أو بصقت فى وجهك•• ثم بصق فى وجه « هبل العظيم » بملء فمه وانصرف •

فى تلك الاونة كان يقف غير بعيد منه رجل من قريش •• وسمع بلال وهو يسب الالهة ورآه وهو يبصق فى وجه هبل ، فدخل على أميه وأخبره بمـا فعل عبـده ••

فغضب أمية وهاج وماج وذهب الى بلال ، وقبل أن يخطو الى غرفته سمعه يقرأ بصوته الرقيق كلاما لا هو بالشعر ولا هو بالسجع •• فثارت ثورته ودهم الباب عليه ، وقال غاضبا :

ماذا كنت تقرأ ؟

قال بلال : كـلام الله •

— أى اله هذا ؟ ومتى كان الاله يتكلم ؟

— أنزل الله تعالى على عبده ورسوله محمد ﷺ الكتاب والحكمة •

— كفاك هـراء يا بلال ••

— انه الحـق وربى ••

— ومن ربك هـذا ؟•

— رب السموات والارض وما بينهما سبحانه •••

— ان لم تكف عن هذا الهراء أيها العبد القذر كتمت أنفاسك ••

وكأن بلال لم يسمع شيئا ، واستطرد فى حديثه قائلا :

— خالق كل شيء ، القادر على كل شيء ، العليم بكل شيء •••

— يا أيها العبد الحقير .. أكفرت بآلهتنا واتبعت رجلا مسحورا ..؟

— بل آمنت .. وهدانى الله صراطا مستقيما ..

وهنا لم يتمالك أميه غضبه وانقض على بلال لطما وضربا وهو يصيح :

انك عبدى ملك يمينى أفعل بك ما أشاء ، فى أى وقت أشاء ، وأنت تفعل ما أريد ، وتعتنق ما أريد ، وتدين بما أدين ..

ويرد بلال فى ثبات وايمان راسخ :

انك مولاى لا أنكر ذلك . وانى ملك يمينك تفعل بى ما تريد ، وعلى أن أفعل ما تريد .. ولكن أعلم يا مولاى أن جسدى فقط هو ما تستطيع أن تملكه أما عقلى ووجدانى .. أما ما فى صدرى .. أما حبى وكرهى .. أما ايمانى ... فهذا جميعه ملكى وحدى ، لذلك يا مولاى لن تستطيع أن تحولنى عما اعتنقت ، أو ترغمنى على ترك دين الله مهما فعلت .. فلا تحاول يا سيدى عبثا .

وحاول أميه أن يستخدم السياسة مع بلال ، فقال له :

— عد يا بلال الى رشدك ... لقد أفسد روحك (محمد) .. عـــد يا بـــــــلال* ..

— لم يفسدها وانما أصلحها وهداها سواء السبيل .

— أتعصى أوامرى ..؟

— اذ عصيت ما تأمر به فقد أطعت الله .

فثارت ثائرة أمية فصرخ فيه قائلا :

— واللات والعزى لاعذبنك عذابا مميتا حتى تترك هذا الدين ..

فــــرد بلال قائلا :

---

(٤٢) حلية الاولياء جـ١ (بلال بن رباح) .

- والله لو قطعت جسمى اربا اربا •• وأزهقت روحى نفسا نفسا أن أترك هذا الدين ما تركته ••

وهنا بدأ أميه يمن على بلال فيقول له :

- ألم أطعمك أشهى الطعام •• ألم ألبسك أفخر الثياب •• ألم أجلسك مع علية القوم وساداتهم •• ثم تأتى اليوم وتعصينى[٤٥] ••

لقد نفض بلال عن نفسه ذل العبودية عندما دخل الى الاسلام ، وما عاد يخاف الجوع ولا المرقع من الثياب ، ولا يحفل بالجلوس مع المشركين •• فقال لاميه فى شجاعة نادرة :

- ما عدت أحفل بطعامك الجيد •• ولا بثيابك الغالية •• وانك ان كنت تلبسنى أفخر الثياب ، وتطعمنى بأجود الطعام •• فذلك لانى أخدمك •• وأخلص لك فى العمل ، وما أدخله على ندمائك من بهجة وسرور عندما كنت أطربهم بصوتى •• فأنت تعطينى لا لله ولكن لانى أخدمك •• فاذا عجزت أو هدمت هل كنت تعطينى أفخر الثياب ، وتطعمنى بأجود الاطعمة ••

وكان رد بلال كالصاعقة على نفس أميه الذى استدعى خدمه فجاءوا جميعا مسرعين فأشار الى بلال وصاح :

- اخلعوا عنه هذه الثياب وألبسوه ثيابا بالية •• قيدوه •• قيدوه حتى يعرف من أنا •••؟

وتقدم الخدم سريعا لينفذوا أوامر سيدهم ، فقال لهم بلال :

---

(٤٥) الحلية جا (بلال بن رباح) .

— مهلا .. وأخذ الثياب البالية وخلع الغالية وقدم لهم يديه ليقيدوها، ثم قال :

— مالى حاجة لهذه الثياب الغالية ؟ ومالى حاجة بهذه الدنيا الفانية.؟ ثم انتظر العذاب .. وصمد لما ينزل عليه من اضطهاد بنفس آمنة مطمئنة واغتاظ أميه من ثباته فأنذره قائلا :

— سيكون عذابى رهيبا وسترى يا بلال(٤٦) ..

ونفذ أميه وعيده ، وتجرع بلال كؤوس العذاب ، وتحمل فى صبر ، وتقوى بالله على العناد والاضطهاد والبلاء ...

وراح أميه يزيد من اهاناته حتى يسلب عنه الايمان .. فربط عنقه بحبل وأمر الصبية أن يطوقوا به فى حوارى مكة ... وهو صامت صابر .. ثم أقبل عليه أمية وقال له :

— ايه يا بلال .. عسى أن تكون قد رجعت عن غيك .. وتبت الى رشدك .

— أحد ... أحد .

— لا تتمادى يا بلال .. لا توغر صدرى .

— أحد ... أحد .

— يا ابن السوداء ... كف والا قتلتك .

---

(٤٦) الحلية جـ١ (بلال بن رباح) .
(٤٧) الحلية — بلال بن رباح جـ١ .

ـ أحـــد ••• أحـــد •

ـ وهجم أميه على عنق بلال كوحش كاسر •• وراح يضغط ويضغط ثم تركه فجأة •• وقال له :

ـ لو قتلتك لارحتك من عذابى •• ولكن لن تنال هذه الراحة أبدا ••

رد بـــلال : أحـــد ••• أحـــد •

تتابع العذاب على جسم بلال ، وهو صامت ، صابر ، راض بقضاء الله دون وهن أو جـــزع ••

وسحبه أميه يوما الى العراء فى حر مكة القائظ ووضع على صـــدره حجرا ثقيلا •• بعد أن قيده •• وفى المساء جاءه أميه وقال :

ـ ايه ••• يا بـــلال •••

ـ أحـــد ••• أحـــد •

وسمع أبو بكر الصديق بتعذيب بلال ، فذهب حيث وجده مقيدا فى حر مكة القائظ وقد غطى صدره بحجر كبير ••• وبكى أبو بكر وحنق على أميه وقاه له :

ـ على ما تعـــذب هذا العبـــد ؟

ـ وما شأنك انه عبدى افعل به ما أشاء ، وما أفسده غيرك ، وغير صاحبـــك •••؟

ـ لن أدعـــكم حتى تطلقوه •••

ـ لن نطلقه حتى يرجـــع لديننا •••

— لن يرجع .. أبيع الهدى بالضلالة .. انه سيبقى على دينه حتى يموت .. وفى موته فقد لثمنه .. وانى على استعداد لشرائه ..

— كم تدفــع ؟

— ما تطلبون .

— خمس أواق ذهبــا .

— ونقده أبو بكر ما طلب وأخذ بلال وانصرف ..(٤٨)

وبذلك انقضى عهد استرقاقه واضطهاده وتعذيبه .. وبدأ بلال رحلة جديدة وعهدا جديدا من العبادة والجهاد فى سبيل الله .

وقرب بلال من الرسول — ﷺ — وأخذ عنه وتربى فى أحضان النبوة .. وأصبح مؤذن الرسول ، وكان يجلس ما شاء له الجلوس عند الرسول ، وقد نزل فيه وأصحابه قوله تعالى :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا★ » ...

هاجر بلال بأمر الرسول الى يثرب عندما اشــتد عــذاب الكفار من قريش للمؤمنين ، وبقى فى يثرب حزينا لفراق الرسول — ﷺ — حتى جاء عمر بن الخطاب الى يثرب مهاجرا وبشره بحضور الرسول ففــرح بذلك فرحا عظيما ، وكأنه ارتوى بعد عطش شديد ...

واجتمع بالرسول الحبيب وبقى الى جواره ما شاء له أن يبقى حتى اذا هلت تباشير الفجر .. فصعد المسجد ليؤذن للصلاة بصوته العــذب الرقيــق ..

---

(٤٨) الحلية جا .

★ الكهف : ٢٨ .

الله أكـــبر ••• الله أكـــبر ••• الله أكـــبر •••

وكانت رحلة الجهاد فى بدر ، وانتصر المسلمون انتصارا وغنموا غنائم كثيرة وعين الرسول — ﷺ بلالا خازنا على أمـوال المسـلمين وغنائمهم ليوزعها كما أمر الله :

« واعلموا أن ما غنمتم من شىء ، فان لله خمسه وللرسـول ولذوى القربى واليتامى وابن السبيل »(٤٩) •

انقضى عهد اغتراب المسلمين وانتشر الاسلام قويا منيع الجانب •• وتأسست الدولة الاسلامية على أركان راسخة وعمد قوية من الدين قائمة على العدل والحكمة لها شخصيتها المستقلة ، ونظامها السـياسى والدينى والاخلاقى ، وفتح المسلمون مكة واعتلى بلال الكعبة لاول مـرة ليـؤذن للصلاة أمام أعين الناس جميعا واستأذن بلال النبى — ﷺ — فى السفر لليمن •• وهناك خطب من آل هند ••• ووعده أهلها خيرا ••

ثم جاءوا الى الرسول ﷺ ليستشيروه فى أمر هذه الزيجة ، فقـال صلى الله عليه وسلم :

أين أنتم من بلال •• أين أنتم من رجل من أهل الجنة •••؟

عرف آل هند مكانة بلال فى الاسلام ، وعـرفوا حب الرسـول ﷺ له •• فوافقوا على الفور من تزويجه ابنتهم ••

وفى ليلة حالكة السواد انتشر النبأ الحزين ، ونزل على المسلمين وكأنه الطامة الكبرى •• لقد فقد بلال أعز الناس ، أعظم الناس ، أصدق الناس ،

---

(٤٩) الحلية — بلال بن رباح جا •
(٥٠) الحلية — بلال بن رباح — جا •

فقعد فى داره باكيا حزينا لا يعرف للحياة معنى ولا للوجود طعما .. لقد هده النبأ ، واعتزل الناس ، كل الناس ...

طــرق بابه طارق :

لقد استخلف الصديق يا بلال .. هلم الى المسجد .. فقد حان موعد الصـــــلاة ..

ودخل بلال المسجد مطرق الرأس واتخذ لنفسه فى ركن قصى مجلسا، وحان موعد الصلاة ، فطلب الناس من بلال أن يؤذن . لكن بلال لم يؤذن وجاء اليه خليفة رسول الله ﷺ بنفسه ليقول له :

— أذن يا بـــلال ..

— لا ... مروا غيرى .

— ولم لا يا بلال ؟

— لا أؤذن لاحد بعد رسول الله ...

فقد ضاقت الدنيا فى وجه بلال بعد انتقال الرسول الى الرفيق الاعلى، لذلك لم يضغط عليه الصديق وتركه حتى تندمل جراحه ...

وعندما جهز أبو بكر رضى الله عنه جيشا الى الشام بقيادة أسامة كما أوصى الرسول ، وأقبل بلال لينضم لجيش أسامة فرآه الصديق فقال له :

— الى أين يا بـــلال ؟

رد بـــــلال :

— لقد شعرت بفزع شديد بعد فــراق الرســول ﷺ وتاقت نفسى للجهاد لعلى أنال الشهادة .

ـ أنشدك الله يا بلال .. وحرمتى وحقى الا بقيت ... انى لمحتاج اليك ..

وصمت بلال لحظة وتذكر مآثر أبى بكر وفضله ومكانته ، فقال :

ـ سأبقى يا خليفة رسول الله .

ومرت الايام وانتصارات المسلمين المتتالية تشنف الاذان وازدهار الدولة الاسلامية يؤتى ثماره .

واشتاقت نفس بلال مرةأ خرى للجهاد بعد انتقال أبى ربكر رضى الله عنه للرفيق الأعلى .. واستأذن بلال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ للاشتراك فى حرب جيوش الروم والفرس فى الشام والعراق ووافق عمر بعد الحاح بلال كارها .. والتحق بلال بجيوش المسلمين واشترك فى فتح بيت المقدس .. ودخل بلال المدينة ليؤذن للصلاة ..

ومضت الايام من انتصار الى انتصار وساد الاسلام المشرق والمغرب .. وعاد الى ذاكرة بلال حديث الرسول ـ ﷺ ـ للمسلمين بالنصر المبين .. وها هو الاسلام وقد نشر راياته على الدنيا ..

وجلس بلال وغلبه النعاس وهو فى نشوة الذكرى فرأى الرســول ﷺ فى منامه وكأن الرسول الكريم يعاتبه قائلا :

ـ ما هذه الجفوة يا بلال .. أما أن لك أن تزورنا ..

ويرد بـــلال :

ـ ليست جفوة يا رسول الله ، ما غاب حبك عن قلبى .. ورسمك عن بصرى .. وما نسيت ذكراك أبدا .. اننى بجسدى قريب لك بروحى عليك الصلاة والسلام ..

وقام وفزع من نومه ، ولاحظت زوجه تغيرا فسألته : ما بك ؟

قال بلال : أريد الانطلاق ليثرب ..

قال : لازور قبر الرسول — عليه الصلاة والسلام ..

وركب بلال راحلته متوجها الى مقام الرسول حاملا كل الذكـريات الحلوة .. وحملته كالبراق كأنما تطوى الارض حتى ظهرت مشارف يثرب .. وزاد حنينه .. حتى بلغ قبر الرسول فانهمـرت الدمـوع من عينيه وجاشت بنفسه الذكريات فهتف من قلبه :

السلام عليكم ورحمة الله .. يا رسول الله ..

وانقضت برهة وسمع بلال من يرد عليه السلام :

السـلام عليك يا بـلال ..

فالتفه نحو مصدر الصوت فرأى الحسن والحسين .. فغمرته فرحة ممتزجة بالدمع .. وجرى نحوهما يضمهما الى صدره .. ويصيح قائلا :

وكأنى رأيت بكما رسول الله ...

وساد السكون لحظات ثم قال الحسن — رضى الله عنه :

— أين تبيت ليلتك ؟

— فى المسجـد ..

— لا ... تبيت عندنا الليلة يا بلال ..

وامضى بلال الليلة عند آل الرسول — ﷺ — وما أن بدرت بشـائر الفجر ، حتى سمع الناس صوت بلال رقيقا حنونا وهو يؤذن للصلاة :

الله أكبر •• الله أكبر •• الله أكبر •• الله أكبر[٥١] •

فعرف الناس صوت بلال وتذكروا وبكوا ••

مكث بلال بيثرب ما شاء الله له أن يمكث ، ثم استأذن فى الرحيل الى الشام ، وودع الأحباب والأصدقاء •

ورجع بلال الى الشام وودع مع رجوعه الذكريات •• وسارت حياته كما أراد الله لها أن تسير الى أن جاء يوم أحس بصدره يعلو وينخفض •• كما شعر بضيق فى تنفسه •• وجلست زوجته هند بجواره تسعفه ••

فقال لها بـــلال : دنا الفـــراق •••

ومضى جزء يسير من الليل وأشرق وجهه بنور الايمان وهو يتمتم :

الله أكبر •• لا اله الا الله محمد رسول الله •••

ثم زفر زفرة وأسيل عينيه ••• وانطفأت شمعة من شموع الاسلام •• وبقيت حكاية بطل من أبطال الاسلام الاوائل تحكى على كل لسان ••

٨ — المقـــداد بن الاســـود

حبيب الله

اقترن اسم المقداد بن عمر بن ثعلبة بالاسود ، لانه كان قبل الاسلام مولى الاسود بن عبد يغوث ••• ولقد كان المقداد فارسا فى الحرب يشهد له بالشجاعة والاقدام ، وأول ما ظهرت شجاعته حين عزم على اسقاء الرسول ﷺ واطعامه والكفار يمنعونه عن ذلك •••

يقول رسول الله ﷺ عن بعض صحابة منهم المقداد[٥٢] :

---

(٥١) الحلية — بلال بن رباح — جا •

(٥٢) عن بريده ورادة الاصبهانى فى الحلية — مجلد ١ ص ١٧٢ •

« ان الله تعالى أمرنى بحب أربعة وأخبرنى أنه يحبهم انك يا على منهم والمقداد وأبو ذر ، وسلمان رضى الله عنهم » .

ليس غريبا أن يحب الله عبدا من عباده ، ويحبه الرسول ﷺ لحب الله له ، وينزل جبريل فى الناس ليبشرهم بحب الله لهذا العبد ويأمرهم أن يحبوه كما أحبه الله ...

ولم يكن هذا الحب الالهى بلا أسباب ، فلقد وقف المقداد مواقف كثيرة لنصرة دين الحق تعز على الرجال الاشداء ، ويكفى المقداد فخرا أنه لما رأى الرسول ﷺ غاضبا وقد احمرت وجنتاه ..

فقال له :

« أبشر يا رسول الله ... فوالله لا نقول لك كما قالت اليهود لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا .. انا ها هنا قاعدون » . ولكن والذى بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك ... حتى يفتح الله عز وجل لك » .

لم يأت بنعم المقداد بالحب الالهى الا أنه كان صادق الوعد ، مقاتلا مقداما لنصرة دين الله ، فاستحق هذا الحب الالهى ، واستحق حب الرسول واستحق حب الناس له ...

فلا غرابة اذن ، اذ يطلب الصوفى الحب الالهى ، ولقد وجد الرسول ﷺ يبشر بعض أصحابه به لعلى والمقداد وأبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى ، وفى أحاديث أخرى يبشر بعض الصحابة بالجنة وبرضاء الله عنهم وحبه لهم ...

وهذا الحب وذلك الرضا للصالحين المؤمنين قد أكده الله فى بعض آياته • وهو نوع من البشارة ليطمئن به قلب العبد ويعلم أن جهاده فى سبيل الله قد أتى ثماره اليانعة :

« ان كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله » (آل عمران : ٣١)

« سوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » (الصف : ١٢)

والمحبة هى ميل القلب الى الله والى مالله بلا تكلف أو رياء ، وهى تعظيم لله ، وأما محبة الله للعبد فانه سلبه لحب سواه فلا يصلح لحب غيره، وهذا وارد فى معنى قوله تعالى :

«واصطنعتك لنفسى » (طه : ٤٣)

ويقول فى ذلك سهل بن عبد الله التسترى ، واصفا هذا النوع من المحبة الالهية (٥٣) :

« من أحب فهو العيش ، ومن أحب فلا عيش له »

ومعنى من أحب فهو العيش ، أن المحب لله لا يتلذذ الا بحبه تلك ولا يسعد الا بقربه فذلك هو العيش ، فاذا استمر هذا الحب فان المحب لا عيش له مع دون الله ، ولا يرى حبيبا سواه ، فيذهب عيشه من الدنيا ويبقى عيشه فى الله ومن الله ولله وبالله ••

يقول الامام حجة الاسلام فى معنى الحب :(٥٤)

---

(٥٣) الاحياء — الغزالى — ج٤ ص ٢٥٧ وما بعدها .
(٥٤) المرجع السابق .

« وأسعد الناس فى الاخرة أقواهم محبة لله ، فهو سعيد بانتقاله من الدنيا ، وسعيد بلقاء محبوبه » ..

ويروى عن الامام الشبلى قوله :

أهل المحبة شربوا كأس الوداد ، فضاقت عليهم الارض والبلاد ، وعرفوا الله حق معرفته ، وتاهوا فى عظمته ، وتحيروا فى قدرته ، وشربوا من كأس حبه ، وفرقوا فى بحر أنسه ، وتلذذوا بمناجاته » . ثم ذكر للشبلى بيتا فى هذا المعنى يقول فيه :

ذكر المحبة يا مولاى اسكرنى وهل رأيت محبا غير سكران

ومن الابيات المشهورة فى المحبة عن ربعة قولها :

تعصى الاله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى التياس بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته ان المحب لمن يحب مطيع(٥٥)

ان اتهام صوفية المسلمين بأنهم استقوا فكرة المحبة الالهية من الافلاطونية والافلوطينية المحدثة والفلسفة المسيحية قول ينقصه الدليل ، اذ أن الايات القرآنية والاحاديث النبوية ترسم للمسلم الطريق الموصل لمحبة الله دون حاجة الى استلهام مضمونها من الفكر اليونانى القديم أو من العقائد والفلسفات الاخرى .. وقول عز من قائل :

« يحبهم ويحبونه » ... « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ..

---

(٥٥) المرجع السابق .

دليل صادق على أن المسلمين قد استقوا معانى المحبة الالهيـــة من القرآن الكريم وسنة الرسول واقتداء بصحابة رسول الله والتابعين .

لقد كان الصحابة منهم المقداد بن الاسود كثير الخـــلوة بالله ، دائم التفكير ظاهر الصمت ، قليل الاختلاط بالناس ، يحزن اذاأصيب ببـــلاء ، يأنس بالله ، ولا ينازع أهل الدنيا فى دنياهم ..

كان عارفا بالله فقد استولى حب الله على قلبه والمحبـــة والمعـــرفة متلازمان ، فاذا عرف الله ، كان حب الله ...

أليست هذه سمات الصوفية المسلمين وأخلاقهم ، قـــد أخذوها عن أسلافهم من الصحابة وأهل الصفة اقتداء بالرســـول وعمـــلا بكتاب الله القويم ... فاذا وجدت بعض التشابه بين أقوال الصوفية ، وبين أقوال الفلاسفة وأصحاب العقائد الاخرى فى معنى المحبة الالهية ، فان ذلك راجع يقينا الى أن أصحاب الفطر السليمة يمكن أن يصلوا الى نفس الحقائق دون حاجة الى تقليد أو اقتباس ومع افتراض وجود نوع من التشابه بين الفكر الصوفى وبين غيره من الفلسفات والعقائد القديمة .

يبقى أن نقول أن هناك كثيرا من الاختلاف بين مضمون المحبة الالهية عند الصوفية وبين مضامينها فى غيرها من العقائد والديانات والفلسفات ، وهذا الامر سنذكره فى بابه ...

٩ ــ خبــاب بن الارث

كان خباب بن الارث من المهاجرين الاولين ، وقد أســلم خباب حبا ورغبة فى الاسلام . كما أنه كان ممن عذب فى الله تعالى فما وهن ولا ضعفت ايمــانه .

انما كان عذاب المشركين له يزيده ايمانا ويثبت اسلامه .

روى أن خباب بن الارث جاء الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب،فقال له عمر :

أدن ... مما (يعنى اقترب) فما أرى أحدا أحق بهذا المجلس منك ...

فجعل خباب يريه آثارا فى ظهره مما عذبه المشركون .

ويروى لنا صاحب الحلية أن خباب بن الارث أسلم سادس ستة وله سدس الاسلام ، وانه كان من النواحين البكائين وكان دائم القول :

« لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يتمنين أحدكم الموت ... لتمنيته » ..

ولقد جاء قوم من كفار قريش الى الرسول ﷺ فوجدوا عنده عمار بن ياسر ، وصهيب ، وبلال ، وخبــاب بن الارت ... وبعــض أناس من ضعفاء المؤمنين .

---

(٥٦) حلية الاولياء للاصبهانى ص ١٤٣ــ١٤٧ جـ١

فلما رأى الكفار هذا .. حقروهم وطلبوا من الرسول ﷺ أن يطردهم ويجلس معهم لانهم أسياد وهؤلاء عبيد .. فنزل قول عز من قائل : فى حق هؤلاء المؤمنين الضعفاء :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين » . (الانعام : ٥٢)

واستكمالا لهذه الرواية يقول ابن الارت :

ان رسول الله ﷺ دعانا فأتيناه ، وهو يقول : « سلام عليكم » فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته ، فكان رسول الله ﷺ يجلس معنا ، فاذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم » .. (الكهف : ٢٨)

ويستطرد خباب الارث قائلا* :

فكنا بعد ذلك نقعد مع النبى ، فاذا بلغنا الساعة التى يقوم فيها قمنا وتركناه والا صبر أبدا حتى نقوم .

وروى عن على بن أبى طالب أنه حينما رجع من صفين وعندما بلغ مشارف الكوفة وجد قبرا فتساءل قائلا :

لمن هذا القبر ..؟

فقيل له : يا أمير المؤمنين ان خبابا توفى بعد مخرجك الى صفين ، وأوصى أن يدفن فى ظهر الكوفة .

★ الحلية الجزء الثانى ص ٢٠ــ٢٥ .

فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه :

رحم الله خبابا لقد أسلم راغبا ، وهاجر طائعا ، وعاش مجـاهدا ، وابتلى فى جسمه .. ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا ...

ثم استطرد أمير المؤمنين على بن أبى طالب قائلا :

« طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله عـز وجـل » .

١٠ — أبو ريحـانه

أبو ريحانة هو شمون الازدى ، وقيل الانصارى ويعد من الصحابة المجتهدين ، ومن أهل الصفة فى الصدر الاول للاسلام ، ولقد كان مثـالا للتزهد فى الدنيا والاقبال على الاخرة . ويحكى لنا عنه ابن المبارك فى كتابه الزهد ، أنه رجع مرة من غزوة من الغزوات ، فلما أتى الى أهـله تنـاول عشاءه ، ثم توضأ ثم قام الى الصلاة فى المسجد ، فقرأ سورة ثم أخرى وما يزل كذلك يفرغ من سورة ليفتتح أخرى ، حتى أذن المـؤذن لصـلاة الفجر ... فلما انتهى أتته امرأته فقالت له* :

— يا أبا ريحانة ... خرجت للغزو فغبت فى غزوتك ... ثم قدمت الى فلم يكن لى منك حظ ونصيب ...

فأجاب أبو ريحانة : بلى والله ... ما خطـرت أنت لى على بال .. ولا ذكرتك ولو تذكرتك لكان لك على حق ..

فقالت له : وما الذى يشغلك يا أبا ريحانة ؟

★ ابن المبارك — الزهد — جـ ٧ ص ٣٠٤—٣٠٧ .

فأجابها قائلا : لم يزل قلبى يهوى ما وصفه الله فى جنته من لباسها •• وأزواجها •• ونعيمهــا ••• ولذاتها •• حتى سمعت المــؤذن يؤذن للصــــــلاة* •••

ويروى عن أبى ريحانة أنه كان يعمل فى حماية السواحل ، فاستأذن قائده فى اجازة ليعود أهله ، فأذن له •••

فسأله الوالى مستفسرا : كم تريد أن تكون أجازتك ؟

فقال أبو ريحانة : ليلة واحــدة ••

فلما سمح لابى ريحانة بالاجازة ••• وكان منزله ببيت المقدس ، دخل المسجد قبل أن يأتى أهله ••• فقرأ سورة ثم أخرى ولم يزل كذلك حتى أدركه الصبح وهو فى المسجد لم يغادره •• ولم يأت أهله ••• وفى الصباح ركب دابته متوجها رأسا الى عمله فاعترضه بعضهم ، وقال له :

ــ يا أبا ريحانة •• لقد استأذنت لتأتى أهلك •• فــلو مضيت حتى تأتيهم ثم تنصرف الى عملك •••

فأجاب أبو ريحانة : لقد سمح لى الامير بأجازة بليلة واحــدة ••• وقد مضيت ••• فلا أكذب ولا أخلــف وانصرف الى عمــله •• ولم يأت أهـــله •••

ويروى عن صاحب حلية الاولياء عن أبى ريحانة أنه كان مع رسول الله ﷺ فى غزوة من الغزوات فأصابه برد شديد حتى أن بعض الرجال كان يدخل الى الحفرة ويغطى نفسه ، ويقول أبو ريحانة عن هذا الموقف انه سمع الرسول ﷺ يقول فى ذلك :

★ ابن المبارك ــ الزهد ــ جـ ٧ ص ٣٠٤ــ٣٠٧ .

من يحرسنا فى هذه الليلة من الرجل ... فادعو له بدعاء يصيب به فضله .

فقام رجل فى هذه الليلة الشديدة البرد وقال : أنا يا رسول الله .

فقال : ﷺ : من أنت ؟

فقال : أنا فلان بن فلان الانصارى .

فدعا له الرسول ﷺ بدعاء خصه به .

ويستطرد أبو ريحانة فى الحديث فيقول لما سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهذا الدعاء للانصارى قمت وقلت للرسول ﷺ مثل مقاله الانصارى.

فسألت كما سأل الانصارى ثم قربنى اليه ، ودعا لى بدعاء دون ما دعا به الانصارى ثم قال ﷺ :

« حرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله

وحرمت النار على عين بكيت من خشية الله

وحرمت النار على عين غضت عن محارم الله »

ولقد كان أبو ريحانة ينسى بعض آيات القرآن ويجد مشقة فى حفظها، فقال له الرسول ﷺ :

« لا تحمل عليك مالا تطيق وعليك بالسجود » .

فكان أبو ريحانة يكثر السجود لله تعالى ..

---

(٥٧) حلية الاولياء للاصبهانى ، المجلد الثانى ، ص ٢٨ .

لقد كان أبو ريحانة مثالا يحتذى به فى الاخلاق والسلوك ، فلقد كان رجلا دينا صادقا مع نفسه ، وفى العهد مع الله ، ويذكر عنه انه اشترى حبلا بدرهم ، بيد أنه نسى أن يعطى البائع حقه ورجع قافلا الى بيته الذى يبعد أكثر من اثنى عشرة ميلا ..

فقال للغلام الذى كان يرافقه : هل أعطيت صاحب الحبل حقه ؟

فقال الغلام : لا ..

فنزل عن دابته وأخرج نفقة أعطاها لغلامه ، وقال لاصحابه : عاونوا غلامى حتى يبلغ بيتى ...

فقالوا له : ولمـا كل ذلك ؟ ..

قال أبو ريحانة : انى سأرجع الى البائع حتى أدفع اليه حقه فأؤدى أمانتى وأنصرف ، حتى بلغ صاحب الحبل ، فأعطاه حقه ثم انصرف راجعا الى بيته(٥٨) ..

ويحكى عن بركاته أنه مر يوما بمدينة حمص ، فسمع ضوضاء شديدة كأن الناس يتحاربون ، فقال لاصحابه ما هذه الضوضاء ..

فقالوا له : ان أهل حمص يختلفون على مساكنهم ، فرفع أبو ريحانة يده وأخذ يدعو الله ألا يجعلها فتنة : « انك على كل شىء قدير » . فلم يزل يدعو حتى انقطعت الضوضاء .

---

(٥٨) كتاب الزهد ــ الشيخ عبد الله المبارك ــ المتوفى سنة ١٨١ ص ٣٠٦.

١١ — أبو رزين (٥٩)

ذكر ان النبى ﷺ ، قال لرجل من اهل الصفه يكنى بأبى رزين :

« يا أبا رزين — اذا خلوت فحرك لسانك بذكر الله فانك لا تزال فى صلاة ما ذكرت ربك ...

ان كنت فى علانية فصلاة العلانية ، وان كنت خاليا فصلاة الخلوة » .

وقد روى أن الرسول ﷺ وجه النصيحة الى ابن رزين ، وهذه النصيحة اذا عمل بها المرء يستطيع من خلالها أن يصيب خير الدنيا والاخرة . قال له رسول الله ﷺ :

« عليك بمجالس أهل الذكر ، واذا خلوت فحرك لسانك ما استطعت بذكر الله ... وأحب فى الله ... وأبغض فى الله »

ومما سبق نستطيع أن نلاحظ أن الخلوة تعتبر من المستلزمات الروحية التى يؤديها المريد فى الطريق الصوفى والتى يهتم بها مشايخ الطريق لتربية النفوس وتزكية قلوب مريديهم .

وفى الخلوة يقضى الانسان أوقاتا قريبا من ربه يستغفر عن ذنبه ، وينظر الى نفسه فيصلح عيوبها ، ويداوى ما أعوج من أمرها ويتوب عما أقترف من ذنوب وآثام (٦٠) .

---

(٥٩) أبو نعيم الاصبهانى : حلية الاولياء جا ص ٣٧٦، ٣٦٧ .

(٦٠) للمؤلف : الالفاظ الصوفية ومعانيها ص ١٥١، ١٥٢ .

ولقد تطاول بعض المستشرقين والمستعربين على أئمة الصوفية* الذين يدعون الى الخلوة أحيانا ويتهمونهم بأنهم خرجوا عن تعاليم الاسلام ، وها هو أبو رزين ينصحه رسول الله ﷺ بما يتوجب عليه أن يفعله فى الخلوة وذكـــر الله .

فالخلوة أصل من الاصول الشرعية لا ينكرها الا جاهل بالاســـلام . فقد كان الرسول ﷺ يختلى بنفسه فى غار حراء على مدى سنوات طويلة قبل الدعوة وبعدها أكثر من أربعين يوما فى العام الواحد .

كما أن نصيحة رسول الله لابى رزين تتعلق بحثه على الذكر الدائم فى المجالس وهو يذكر فيه علانية . كما أنه اذ خلا الى نفسه عليه أن يحرك لسانه ما استطاع بذكر الله وأن يبغض فى الله ويحب فى الله .. وظاهر أن الذكر له أصل فى الشريعة قد حث عليه رسول الله ﷺ .

فاذا اقتدى الصوفية برسول الله ، فليس ذلك بدعا أو خــروجا عن التعاليم الاسلامية .

فكثير من أهل الصفة كان يختلون على مشهــد من رســـول الله ﷺ لانفسهم ولم يعارضهم فى ذلك الرسول أو أحد من صحابته رضوان الله عليهم أجمعين .

---

* للمزيد راجع كتاب هذا هو الاسلام . للدكتور محمد غلاب .

١٢ — سفينة أهل الصفة

أبو عبد الرحمن مولى رسول الله

عاش أبو عبد الرحمن فى أهل الصفة ، وقد اعتقته أم سلمة ليخدم رسول الله ﷺ ، ولقد خدم الرسول عشر سنين ، وكان أليفا ودودا مما جعله بآل النبى خليطا .

يحكى أبو عبد الرحمن فيقول :

لقد اشترتنى أم سلمة وأعتقتنى واشترطت على أن أخدم النبى ﷺ ما دمت حيا .. فقلت لها :

« أنا ما أحب أن أفارق أبدا ... النبى ﷺ ما عشت »[٦١] ...

ولقد سماه الرسول ﷺ بالسفينة ، ولهذه التسمية قصة يرويها لنا صاحب الحلية[٦٢] .

سأله أحدهم ما اسمك ..

فرد قائلا : سمانى رسول الله سفينة .

فقال له : ولماذا سماك سفينة .

فقال : خرج رسول الله ومعه أصحابه ، فثقل عليهم متاعهم .

فقال لى رسول الله : أبسط كساءك .. فبسطته ، فوضع فيه رسول الله المتاع ثم أعاننى على حمله ..

---

(٦١) الحلية ص ٣٦٨ المجلد الاول .
(٦٢) نفس المرجع ص ٣٦٨ .

ثم قال : أحمل ... ما أنت ... الا سفينه ..

ثم يستطرد سفينة قائلا :

فلو حملنى رسول الله يومئذ حمل بعير أو بعيرين أو خمسة أو سته ما ثقل على ذلك ..

وفى تصورنا أن هذه الواقعة تظهر معجزه الرسول من ناحية وكرامه الولى من ناحية برغم أن هذه الكرامة التى حدثت لسفينة أجراها الرسول ﷺ على يديه ..

فكيف يتسنى لرجل أن يحمل حمولة خمسه أو ستة من البعير وكل حمل منها يزن طن أو يزيد ... ألا يكون ذلك نوع من خرق العادة . ومن ذلك أن كرامت الاولياء كانت فى عهد الرسول ولم ينكرها أحد من الصحابة أو التابعين* ..

والكرامة هى خرق للعادة على غير المألوف والطبيعى(٦٣) ، كما حدث مع سفينة اذ الرجل القوى يمكن أن يحمل مائة كيلو على الاكثر أما اذا استطاع أن يحمل أكثر من ألف كيلو دفعة واحدة مثلا فهذا خرق للعادة .. يدخل فى باب الكرامات كطى المكان ، وهو الانتقال من مكان الى مكان يبعد مئات الاميال فى خطوة أو خطوات ، كذلك يعد من باب الكرمات المشى على المـاء ، وكلام البهائم ، وظهور الاشياء فى غير موضعها أو وقتهـا كقلب الاعيان أو اتيان فاكهة الصيف فى الشتاء وتحويل المعادن الخسيسـة الى معادن ثمينة كتحويل الرصاص الى ذهب ..

---

(٦٣) المناوى : الكواكب الدرية ، جا ص ٢٤٦ .

* راجع للمؤلف : الحكومة الباطنية . النشاط الصوفية (كرامات الاولياء)

والقرآن الكريم يروى بعض القصص التى تشتمل على الكرامات مثل دخول زكريا على مريم فوجد عندها طعاما ، فقال لها : « أين لك هذا؟ قالت: « من عند الله » • وقصة الخضر عليه السلام مع موسى عندما خرق السفينة وقتل الغلام ، وأقام الحائط الذى كاد ينهار •••

وللصحابة كرامات الا أنهم لم يكونوا يهتمون بها ولا يفرحون باجابة الدعوات برغم أنها عين الكرامات ••• لان أدعية الكفار تجاب أحيـــانا ، والارض تطوى للشياطين . والهواء مسخر للطير . والماء للاسماك والحوت ••• فمن أنعم عليه ببعض الكرامات فلا يأمن من مكر الله •

فالكرامة التى أنعم بها على سفينة انما هى تأييد لدعوة الرسول ﷺ وظهور صدق رسالته . وكذلك فى الاولياء الكمل لا يدعون لانفسهم حولا ولا قوة وأن ظهرت لبعضهم بعض الكرامات •

اذ يجوز أن تظهر لبعض أعداء الله بعض الكرامات ويسميها الصوفية مخدعات ، وذلك بقصد استدراجهم للوقوع فى الهلاك ، اذ أن خرق مألوف العادات يولد عندهم الغرور والكبرياء ويظنون افتراء انما منحوا هـــذه الكرامات لانهم يستحقونها دون غيرهم وأن لهم الفضل على الخلق ، مما يزيد فى عذابهم وهلاكهم* •••

أما أهل الله فان ظهرت على أيديهم بعض الكرامات ازدادوا خشوعا وتضرعا وتذللا وخشيه واستكانه وطاعة لله وقنوتا ، وتصبح الكرامة قـــوة تقوى من مجاهدتهم ونعمه تزيد من شكرهم لربهم •••

---

* المرجع للطوسى — اللمع ص ٣٩٠—٤٠٤ .

وجملة القول أن لكرامات الاولياء أصل فى الشريعة الاسلامية لا ينكر ، ولقد ظهرت على الفاروق عمر بعض الكرامات مثل نداءه على سارية قائد جيشه وهو على المنبر وسارية على بعد مئات الاميال وسمعه واطاعة وغير ذلك كثير سنذكره فى حينه .

١٣ — البراء بن مالك

منشد أهل الصفة

البراء بن مالك هو شقيق أنس بن مالك[٦٤] كما أورد ذلك صاحب حلية الاولياء . ويؤكد أنه كان من أهل الصفة الصادقين ، ويحدثنا عنه فيقول :

كان طيب القلب يميل الى السماع ويستلذ بالترنم[٦٥] ، شهد بدر كما شهد دونها من المشاهد ... ويستطرد قائلا : البراء أحد الشجعان والفرسان المسلمين ... ويجدر بنا أن نشير الى معنى السماع عند الصوفية والذى له أصل عند أهل الصفة .

يرى الكلاباذى أن السماع لا يسمع الا فى حالة الوجد ، وهو غالبا ما يكون فى مجلس الذكر[٦٦] ، ويعنون به استجمام من تعب الوقت ، وتنفس لارباب الاحوال واستحضار الاسرار لذوى الشواغل ، ولا ينعقد مجلس السماع فى أوقات الصلاة والطعام والخصام ولا عند وجود شواغل كعمل من الاعمال ..

---

(٦٤) أبو نعيم الاصبهانى ، ص ٣٥٠ المجلد الاول .
(٦٥) المرجع السابق .
(٦٦) الكلاباذى ، التعرف ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

ويشترط فى السماع حفظ الاداب فلا يكون طالبه من أهل الهوى ليلهو فتغلب عليه شهوته انما يتوجب أن يكون مريد السماع قد انكسرت شهوته وتفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله .

ويلاحظ أنه فى مجلس السماع يغلب على بعض المريدين وخاصة من الشباب أو المبتدئين فى الطريق ، الوجد ، وهذا مسموح به عند شيوخ الصوفية ما دام قد حدث الوجد دون اختيار المريد ، ويستندون فى اباحة الرقص والبكاء والصياح فى مجلس السماع أن السيدة عائشة كانت تقف بجوار الرسول وتساعد أهل الحبشة وهم يرقصون فى المسجد ...

ويرى الامام الغزالى أن السماع يكون حراما اذا صدر من شباب تغلب عليهم شهوة الدنيا فلا تتحرك فيه الا الشهوات ... أما غير ذلك فمباح الا فى خمسة عوارض :

١ — أن يكون المنشد امرأة وذلك خوف الفتنة .

٢ — أن يكون المنشد صبيا .

٣ — اذا كان فى الشعر مجنونا ، وهجاء وغزل للنساء . .

٤ — أن تكون الشهوة غالبة عليه .

٥ — أن يكون الشخص من عوام خلق الله ولم يغلب عليه حب الله .

وهكذا فان السماع الصوفى والانشاد والترنم فى مجالس الصوفية قد سبقهم اليه بعض الصحابة من أهل الصفة ، يقول أنس بن مالك عن أخيه البراء :

« كان حسن الصوت ، فكان يرجز بنشد الشعر[٦٧] برسول الله ﷺ فبينما هو كذلك يرجز برسول الله فى بعض أسفاره اذ قارب النســـاء أى قارب ذكر النساء » ...

فقال له ﷺ : « اياك والقوارير ... اياك والقوارير »[٦٨] .

ويتضح من هذه الرواية التى ذكرها مالك بن أنس رضى الله عنه ، أن البراء كان يتغنى بالشعر على مسمع ومرأى من الرسول ﷺ ، ولم يأمره الرسول بالتوقف عن الانشاء والتغنى بالشعر ، لكنه حذره من الاقتراب من الغزل فى النساء فى مجلسه ، وكأن التغنى بالشعر ما هو محمود ، وما هو مذموم وليس مكروها على اطلاقه ..

وهذه الرواية تؤكد على اباحة الانشـــاد فى مجلس السماع ما دام الغناء لا يثير الشهوات ولا ينتهك حرمة النساء ...

استلقى البراء بن مالك كعادته مترنما وكان بجوار مالك ابن أنس فلما عاتبه على هذا الحال قال له : أى أخى ..

فاستوى البراء جالسا ثم قال له :

أترانى أموت على فراشى وقد قتلت مائة من المشركين مبارزة عدا من شاركت فى قتلهم ...

يقول عنه الرسول ﷺ [٦٩] :

---

(٦٧) حلية الاولياء ــ المجلد الاول ، ص ٣٥٠ .
(٦٨) الرجز فى اللغة بفتحتين اى الشعر ..
(٦٩) ذكره أبو نعيم فى الحلية : ص ٣٥٠ المجلد الاول ص ٣٥٠ .

« رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره منهم البراء بن مالك » ..

وهذا الحديث يشبه الحديث المتواتر : رب أشعث أغبر لو أقسم ...يا على الله لابره » .

فالبراء بطبيعة قلبه وبساطته وفقره وزهده له منزلة عند الله عظيمة ، وهذا ما أخبره به الرسول ﷺ من أنه من أصحاب الكرامات الذى اذا أقسم على شىء استجاب الله له ...

ويصفه صاحب الحلية فيقول :

فلما سمع الناس قول الرسول عن البراء ، وانكشف لهم أمره ومنزلته عند الله قالوا له : يا براء أقسم على ربك .

فقال البراء : أقسمت عليك يا رب ... لما منحتنا أكتافهم أن الحقنى بنبيك ...

واستجاب الله وبر بقسمه ، فاستشهد يوم موقعة تستر ... رحم الله البراء ، فقد كان فارسا فى الحرب ، مترنما فى السلم قريب الدعوة الى الله ...

١٤ ــ مولى رسول الله ﷺ ثوبان

يذكر صاحب الحلية أن أبا عبد الله ثوبان ، مولى رسول الله ﷺ ، كان رجلا قانعا بما أتاه الله من فضل نعمه ، عفيف اللسان لا يسأل أحد من الناس .

فقد روى أن رسول الله ﷺ قال :

« من يتكفل لى أن لا يسأل الناس وأتكفل له بالجنه » ؟

فقال ثوبان : أنا يا رسول الله ...

فكان ثوبان لا يسأل أحدا شيئا ، حتى أنه لربما كان على بعيره وسقط السوط من يده ، فلا يسأل أحد أن يعطيه له حتى ينزل من بعيره ويأخذه .

ولقد روى عن ثوبان أنه قال ، قال رسول الله ﷺ :

« ان أفضل دينار .. دينار أنفقه رجل على عياله ، أو على دابته فى سبيل الله أو أنفقه على أصحابه فى سبيل الله » ...

روى عن ثوبان أنه قال :

كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير ونحن نسير معه اذ قال المهاجرون لو نعلم أن فى المال خير ما أنزل ــ الله تعالى ــ فى الذهب والفضة ما أنزل ..؟

ويستطرد ثوبان قائلا :

ولقد كان عمر بن الخطاب حاضرا معنا فقال لنا :

---

(٧٠) حلية الاولياء ص ١٨٠ ــ ١٨٣ جا .

ان شئتم سألت لكم رسول الله ﷺ عن ذلك ...؟

فوافق القوم على مقولة عمر بن الخطاب ، فانطلق ابن الخطاب الى الرسول ﷺ وثوبان فى أثره ... فلما وصل الرسول صلى الله عليه وسلم قال عمر بن الخطاب :

يا رسول الله ان المهاجرين قالوا أى المال خير اذ أنزل الله فى الذهب والفضة ما أنزل .. ؟

فقال ﷺ :

ايتخذ أحدكم لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وزوجة مؤمنة ، تعين أحدكم على ايمانه .

١٥ ـ معاذ بن جبل

فقيه الامة

أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل امام العلماء ، جامع القرآن ، كان أمة قانتا لله حنيفا .

قال الرسول ﷺ عنه : « أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل »، ويقول عنه عمر لو استخلفت معاذ بعدى وسألنى ربى لماذا استخلفته لقلت سمعت رسولك ﷺ يقول : « ان العلماء اذا حضروا ربهم كان معاذا بين أيديهم » ...

(٧١) عن انس وذكره الاصبهانى فى الحلية .

يقول ابن مسعود عنه كنا نشبه معاذا بابراهيم عليه السلام ، قيل له من الامة ؟ قال : الذى يعلم الناس الخير ..

كان يجلس فى مجالس العلم فلا يتكلم الا اذا سئل ، فاذا اشتبه على القوم شىء ردوه اليه ، فيحدثهم به .

واذا تكلم كأنه يخرج من فيه نور ولؤلؤ ، وكان أصحاب رسول الله اذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا اليه هيبة له ، وكان شابا جميلا سمحا لا يسأل شيئا أعطاه ، ولم يكن يجلس مجلس ذكر الا ويقول الله حكم قسط ، تبارى اسمه هلك المرتابون .

حث على كثرة ذكر الله وجعله أفضل من الجهاد بالسيف فى سبيل الله الا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع .. لان الله يقول « ولذكر الله أكبر » .

---

(٧٢) الحلية جا ص ٢٣٠—٢٣١ .

الفصـــل الثانى

١ ــ حـبر الامـــة (٧٣)

ابـــن عبــــاس

سمى بالحبر لغزارة علمه ، وبالثقة الامين لوثوق معارفه وأمانته ، وسماه جبريل عليه السلام بحبر الامة ، ودعا له الرسول ﷺ قائلا :

« اللهم آته الحكمة » ، ودعا له : « اللهم احش جوفه حكما وعلما »٠

وقال له مرة : « ترجمان القرآن أنت » ٠٠

ابتدره الرسول ﷺ وهو ما يزال غلاما يافعا قائلا :

« ألا أعلمك كلمات ينفعك بهن ؟ احفظ الله يحفظك ، واحفظ الله تجده أمامك ، تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، اذا سألت فاسأل الله : واذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما هو كائن ٠٠٠ ولو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئا لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقــدروا عليه ، وعلى أن يمنعوك شيئا كتبه الله عز وجل لك لم يقدروا عليــه ، بالرضى فى اليقين ، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » ٠

ومن هذا الحديث يحث فيه الرسول ابن عباس على معرفة الله وحفظه تعالى فى قلبه وجوارحه ٠٠٠ والزهد فيما عند غير الله فاذا سأل فليسأل الله واذا استعان فليستعن بالله ٠٠

---

(٧٣) سماه هذه التسمية ابن الحنفية وذكرها الاصبهانى فى الحليــة ــ مجلد ١ ص ٣١٦ ٠

ثم يستطرد الرسول ﷺ فيعلم ابن عباس كيف يسقط التدبير مع الله ويبين له أنه لو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئا لم يكتبه الله له لم يقدروا على ذلك ، كماأنهم لو اجتمعوا على أن يمنعوا عنه شيئا كتبه الله له لم يقدروا على ذلك أيضا ، فعليه أن يدبير ألا يدبر مع الله كما يقول أبو الحسن الشاذلى .

ان هذا الحديث الذى يمكن اعتباره حديثا يمثل الطريق الموصل الى القربى من الله ، وهو بمثابة قواعد اتخذها الصوفية بعد ذلك سلوكا عمليا لمذهبهم فى الحياة .

فلقد اشتمل الحديث على بعض مصطلحات الصوفية وتعبيراتهم وألفاظهم ، من ذلك تعبيرات حفظ القلب ومعرفة الله والقدرة والرضى واليقين والصبر والنصر والفرح والكرب ...

وليس هناك مكان شرح هذه المصطلحات وتفهم معانيها ، ولقد أفردنا لها كتابا خاصا يبحث فى تلك المعانى(٧٤) .

انما المهم أن هذه المصطلحات التى يستخدمها الصوفية لم تنشأ من فراغ ، ولم تكن واردة كما يدعى بعض المستشرقين والمستغربين من حضارات أجنبية وثقافات غربية عن الاسلام ، انما هى وليدة الثقافة الاسلامية بعامة والسنة النبوية بخاصة ...

لقد استن صوفية أهل السنة بأقوال وأفعال وأعمال وسلوك الرسول ﷺ ، فأتى مذهبهم يجب كل الشبهات التى تزعم أن التصوف الاسلامى امتداد طبيعى للفلسفة المسيحية والعقائد والفلسفات القديمة ...

---

(٧٤) كتاب الفاظ الصوفية ومعانيها — نشر دار المعرفة الجامعية .

ان السلوك الصوفى يستمد قوته بحق من الهدى المحمدى ويكفى أن يستمد أحد الصحابة من الرسول ﷺ بعض بركاته ليلهم العلم والحكمة ، أو يستضىء أحد التابعين ببعض قبسات النبى النورانية ليفتح له باب المعارف على مصرعيه ..

لقد دعا رسول الله ﷺ لابن عباس فقال :

« اللهم بارك فيه وانشر منه » .

وأصبح ابن عباس ببركات الرسول المعلم الفطن بدر الاحبار وحكيم الحكماء وفخر الامة كما كان يلقبه الفاروق عمر بن الخطاب ، لقد انتشر علمه حتى انه كان يسأل فى كل شىء فيجيب اجابة شافية وافية تعجز شيوخ العلماء وتجعلهم يقفون مدهوشين أمام غزارة علم هذا الغلام الصغير السن العظيم الشأن ..

لقد ظن أحبار بدر أن الفتى ابن عباس صغير السن لا يجب أن يجالس الشيوخ من أهل العلم ، لكن الفاروق عمر يعرفه ويعرف علمه الغزير ولذلك قصد شيوخ بدر ودخل عليهم ومعه فتاه ابن عباس ، فقال له بعضهم : لماذا تدخل هذا الفتى فى مجلسنا ونحن لنا أبناء مثله ؟

فقال لهم الفاروق : ماذا تقولون فى « اذا جاء نصر الله والفتح »

فرد بعضهم قائلا : أمرنا تعالى أن نحمده ونستعفره اذا جاء نصر الله وفتح لنا ... وسكت بعضهم وقال بعضهم لا ندرى .

فوجه الفاروق عمر حديثه الى ابن عباس قائلا : وماذا تقول يا ابن عباس ، أتقول قولهم ...

فقال ابن عباس : لا

فقال الفاروق : فماذا اذن تقول ؟

فرد ابن عباس قائلا : أقول أن هذه السورة هى أعــلام أن أجــل الرسول ﷺ قد أتى ، ومعنى « اذا جاء نصر الله والفتح » ، هو فتح مــكة فاذا فتحت مكة فان أجلك قد جاء أيها الرسول « فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا »(٧٥) .

فقال الفاروق عمر : والله ما أعلم منها ... الا ما تعلم ... لقد كان عباس من أصحاب المعارف الذوقية والعلوم الباطنية ، يؤيد ذلك ردوده على الحرورية فى المسائل الثلاثة التى اعتزلوا بسببها عليا بن أبى طالب كــرم الله وجهــه .

رده فى المسالة الاولى :

رد على قولهم أن عليا حكم الرجال فى دين الله دون القرآن ... فــرد عليهم قائلا أن الله تعالى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منــكم متعمدا فجزاءه » الى قوله تعالى « يحكم به ذو عدل منكم ... وقال تعالى فى الزوجة وزوجها « فابعثوا حكما من أهلها وحكما من أهله » .

ثم استطرد ابن عباس معلقا : أنحكم رجال فى حقن دماء المسلمين أحق أم فى أرنب ثمنه ربع درهم ؟

---

(٧٥) الحلية جـ ١ ص ٢١٩ — ٢٢١ .
(٧٦) الحلية جـ١ ص ٢١٩ وما بعدها .

قالوا : حقن دماء المسلمين أحق ..

فقال : أخرجت من هذه المسألة ؟

قالوا : نعم .

رد فى المسألة الثانية :

لقد قلتم أن عليا قاتل ولم يسب ولم يغنم ... **يقصدون بذلك قتاله** مع معاوية . فتساءل ابن عبـــاس : أتسبون أمـــكم ثم **تستحلون منهـــا** ما تستحلون من غيرها ، ويقصد بذلك عائشة رضى **الله عنها عندما ناصرت** طلحة والزبير ضد على كرم الله وجهه ، ثم قرأ الاية **الكريمة :**

« النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه **أمهاتهم »** .

ثم استطرد قائلا : أنتم تترددون بين ضلالتين **فاختاروا أيهما شئتم** ... **ثم قال أخرجت من هذه ؟**

رد فى المسألة الثالثة :

قولكم انه اعتزل امارة المؤمنين أو تنازل عن **أن يكون أميرا للمؤمنين.**

فرد قائلا : ان الرسول ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية **أن يكتب بينـــه** وبينهم كتابا ، فقال للكاتب : أكتب هذا ما **قاضى عليه رسول الله ﷺ** .

فقالوا : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صـــدناك **عن البيت ولا** **قاتلناك** ولكن اكتب : « **محمد بن عبد الله »**(٧٧) .

---

(٧٧) الحلية — مجلد ١ ص ٢١٩—٢٢٠ .

فقال ﷺ : والله انى لرسول الله وإن كذبتمونى ، اكتب يا على محمد بن عبد الله .

وعلق ابن عباس على هذه الواقعة قائلا :

فرسول الله ﷺ كان أفضل من على ... أخرجت من هذه أيضا ؟

قالوا نعم .. فرجع من الحرورية بعد هذا المجلس أكثر من عشرين ألفا وبقى أربعة آلاف على ما هم عليه فقتلوا جميعا ...

يكتب هرقل الى معاوية فى مسائل فيرسل لابن عباس يستفتيه فيهـا وهى المجرة والقوس وعن مكان من الارض طلعت فيه الشمس لم تطلع قبل ذلك اليوم ولا بعـده[٧٨] ...

فيجيب ابن عباس عن المسائل الثلاثة فيقول :

أما المجرة فباب السماء التى تنشق منه ، وأما القوس فأمان لاهـل الارض من الغرق ، وأما المكان فهو المكان الذى انفـرج من البحـر لبنى اسرائيل (عندما شقه موسى بعصاه) ..

هذه الاجابات الشافية لمختلف المعارف والعلوم ، لا يمكن أن تكون نتيجة اكتساب وتحصيل وحسب ، انمـا هى — كما يقـول الغـزالى فى الاحياء[٧٩] معارف وعلوم لدنية وأنوار يقذفها الله فى قلب المؤمن فتصبح علما وعالمـا ومعلوما جميعا ...

ألا يعد ابن عباس بجدارة بعد هذا كله اماما للصوفية من أهل السنة ومصدرا من مصادر علومهم ومعارفهم اللدنية ..؟

---

(٧٨) الحلية — مجلد ١ ص ٢١٩—٢٢٠ .
(٧٩) الغزالى — كتاب العلم .

٢ — المخالف لنفســه

(عبد الله بن عمر بن الخطاب)

زهد عبد الله بن عمر بن الخطاب فى الامارة والخلافة ، كان متعبــدا متهجدا ، متتبعا للاثر ، يعد نفسه فى الدنيا غــريبا ، يســكن المساجــد ، ويستغر الله كثيرا ويقوم أكثر الليل مصليا وذاكرا لله .

كان اذا أعجبه شيء من ماله ، انفقه فى سبيل الله قربه له تعالى .

روى عنه نافع أن مواليه قد عرفوا عنه انه اذا أعجبه شيء وهبه لله ، فكان الرقيق منهم يلزم المسجد حتى يراه عمر متعبدا ، فاذا رآه على هذا الحال الحسنة أعتقه . ويعلق ابن نافع على كثرة عتقه للموالى . فيقــول . وكان اصحاب عبد الله يقولون له لذلك . ربما يخدعوك بصلاتهم وتعبدهم (يقصد الارقاء) .

فيرد ابن عمر قائلا :

« من خدعنا بالله عز وجل فاننا نخدع له* » .

وكذلك كان عبد الله بن عمر بن الخطاب اذا أعجبه شيء من ماله أنفقه فى سبيل الله ، وربما أنفق فى المجلس الواحد ثلاثين ألف درهم ولقد أعتق جاريته المحببة اليه فسئل فى ذلك ، فقال :

لقد سمعت قــول عز من قائل :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا ما تحبون » .

(آل عمران ٩٢)

---

(٨٠) الحلية : ص ٢٩٤ جا .

☆ حلية الاولياء ص ٢٩٦ جا .

ثم يستطرد عبد الله بن عمر قائلا : « انى والله كنت أحبها فى الدنيا ، لذلك قلت لها اذهبى ، فأنت حرة لوجه الله عز وجل » .

ركب مرة ناقته فأعجبته ، فقال لخادمه نافع حط عنها الرحل ، فلما أناخها نافع وحط الرحل ، قال له نافع أنشدك الله ان شئت بعتها واشتريت بثمنها ، فذبحها عبد الله ووزعها فى سبيل الله وكان رضى الله عنه لا يأكل لحما شهرا بكامله ولا يأكله الا اذا كان مسافرا أو فى رمضان .

يقول نافع فى ذلك كان عبد الله بن عمر ينفق فى المجلس الواحد ثلاثين ألفا ، ثم يأتى عليه شهر لا يأكل فيه قطعة لحم .

ويقول عنه نافع : ما مات ابن عمر حتى أعتق ألف انسان أو أكثر من ذلك أعطى مرة عشرة آلاف دينار فسئل يا أبا عبد الرحمن ماذا ستفعل بهذه الاموال ؟ قال ما هو خير ان شاء الله وأنفقها كلها لوجه الله .

وقد بعث اليه معاوية بن أبى سفيان بمائة ألف درهم فما مر الحول الا وأنفقها جميعا[٨١] ، وحدث مرة أن أتاه مبلغا من المال من قبل معاوية بن أبى سفيان وقدره أربعة آلاف درهم ، ثم بعث اليه آخر بمثلها ، وأرسل اليه ثالث بألفين وقطعة من القطيفة ، ثم ذهب الى السوق يريد علفا لناقته بدرهم سلفا فرآه أيوب بن وائل الراسبى ، وكان يعلم ما أتاه من الاموال ، فقال له : يا عبد الله أريد أن أسألك شيئا ، وأحب أن تصدقنى القول ...

---

(٨١) الحلية : ص ٢٩٦ جا .

أليس أتاك أربعة آلاف من قبل معاوية وأربعة آلاف من قبل انسان آخرين وألفين من ثالث وقطيفة ؟

قال عبد الله : نعم ، فقال له الراسبى فكيف أراك تطلب علفا بدرهم سـلفا ؟

فقال : ما بت حتى فرغتها ووزعت القطيفة على أهلى .

فوقف الراسبى فى السوق وقال : يا معشر التجـار ماذا تصنعـون بالدنيا ، وابن عمر أتته البارحة عشرة آلاف درهم فأصبح اليوم يطلب لناقته علفا بدرهم سلفا .

ويحكى لنا صاحب الحلية هذه القصة التى تظهر زهـده ومخـالفته لحظوظ نفسه ، فقد اشتكى يوما من الجوع فاشترى له عنقود عنب بدرهم، فجاء مسكين فلما رآه قال : اعطوه اياه ، فرأى ذلك أحد أصـحابه فتتبع المسكين واشتراه منه بدرهم ، ثم جاء به الى عبد الله ليأكله فاذا بالمسكين يرجع مرة أخرى . فقال عبد الله اعطوه اياه فرآه أحد أصحابه فاشتراه منه بدرهم للمرة الثانية ثم جاء به الى عبد الله ابن عمر ، فجاء المسكين فقال اعطوه اياه ، وتكرر ذلك للمرة الثالثة ، فأراد المسكين أن يرجع مرة ثالثة ليأخذ العنقود فمنعه أحد أصحاب عبد الله بن عمر . ولو علم عبد الله بذلك ما ذاق العنب ولقدمه للمسكين .

ويروى نافع هذه القصة فيقول : فلما رجع المسكين للمرة الثالثة قال له نافع : ويحك ألا تستحى ؟ ثم يستطرد قائلا فاشتريت من المسكين العنب بدرهم وجئت به الى عبد الله فأكله .

وعن عمر بن سعد يروى لنا عن مناقب عبد الله بن عمر ، فيقــول .
اشتكى مرة من الجوع فاشتهت نفسه حوتا (سمك) فصنع له ، فلما وضع بين يديه ، جاء سائل فقال عبد الله أعطوه الحوت فقالت امرأة عبــد الله تعطيه درهم فهو أنفع له من هذا واقض أنت شهوتك من الحــوت فقال عبد الله شهوتى .. ما أريد الحوت ، ورفض أن يأكله وأعطاه للسائل . ولم يكن يصنع لعبد الله بن عمر طعاما الا دعى اليه من يأكل معه ، وكان يجلس فى طريقه بعض المساكين فاذا خرج من المسجد أطعمهم حتى أن امرأة عمر قالت لهم مرة لا تجلسوا بطريقه ، فلما دخل بيته قال : أرسلوا الى فلان وأنى فلان وكانت امرأته ... قد أرسلت قبل حضوره طعاما ، وقالت لهم : عندما يدعوكم فلا تأتوه ، فلما علم عبد الله بن عمر بالامر ، قال لزوجته : أردتم ألا أتعشى هذه الليلة ، ولم يأكل فى تلك الليلة ..

وقد كان عبد الله بن عمر لا يأكل الا مع الفقراء والمســاكين ، حتى أضير ذلك بجسمه ، وقال له بعض أصحابه : رقت مضغتك (ضعفت أكلتك) وكبر سنك ، وجلسائك لا يعرفون حقك ، فهل أمرت أهلك أن يجعلوا اليك شيئا يخصصونه لك اذا رجعت ، فقال : ويحك والله ما شبعت منذ احدى عشر سنة ، ولا اثنتى عشر سنة ، ولا ثلاثة عشر سنة ، ولا أربعة عشر سنة ولا مرة واحدة ، فكيف بى أفعل ذلك وانما بقى من عمرى كظمىء الحمار (أى الشىء اليسير) ..

ولقد أهدى أن لعبد الله بن عمر هدية ، وهى عبــارة عن جــوارش (هاضم للطعام) ، فقال عبد الله بن عمــر وما الجــوارش ؟ فقيل له :

تهضم بها الطعام فقال : ما ملأت بطنى طعاما منذ أربعين سنة ، فماذا أصنع بهـــا ؟؟

جاء اليه سائل ، يريد كساء ، فقال عبد الله بن عمر لاحد أبنائه : اخلع ازارك (قميصك) واكسه به ، فكره الفتى فعل ذلك ، فقال له عبد الله بن عمر : ويحك اتق الله لتكونن من القوم الذين يجعلون ما رزقهم الله تعالى فى بطونهم وعلى ظهرهم ...

لقد كان بيت عبد الله بن عمر بسيطا ، اذ أن ما فيه لم يكن يساوى شيئا مذكورا حتى أن عائشة رضى الله عنها ، قالت : أنهـــا ما رأت أشـــبه بأصحاب النبى ﷺ الذين دفنوا معه من عبد الله بن عمر ...

ويقول عنه عبد الله بن حبيش : رأيت عبـــد الله بن عمـــر فى ثوبين معافرين [٨٢] وكان ثوبه الى نصف الساق ، ويقول ابن عمر عن نفســـه : ما وضعت لبنة على لبنة ولا غرست نخلة ، منـــذ أن قبـــض النبى ﷺ ثم يستطرد قائلا [٨٣] :

كنت غلاما شابا عزبا أنام فى المسجد على عهد رسول الله ﷺ وكان الرجل فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأى الرؤيا قصها على ، فتمنيت أن أرى رؤيا لاقصها على رسول الله ﷺ ، فرأيت فى النـــوم كأن ملـــكين أخذانى فذهبا بى الى النار ، فاذا هى مطوية كطى البئر ، واذا للنار شىء

---

(٨٢) نوع من الثياب تصنعها قبيلة معافر باليمن .

(٨٣) رواه أحمد واسحاق ورواه ايوب عن نافع عن ابن عمر .

كفرن البئر ، واذا فيها أناس قد عرفتهم ورأيتنى أردد قائلا : أعوذ بالله من النار ••• أعوذ بالله من النار ، فلقانى ملك آخر ، وقال لى : لن ترع فيها ، فذهبت وقصصتها على حفصة فقصتها على النبى ﷺ فقال : نعم الرجل عبد الله ولو كان يصلى الليل •••

فلما علم عبد الله ذلك ، دأب على صلاة الليل ، ولم يكن ينام من الليل الا قليلا ••

ويروى نافع عن تهجد عبد الله بن عمر وتعبده ، فيقول : أنه كان يحيى الليل كله بالصلاة ، وأنه كان يسأل (نافع) بين الحين والاخر ، أجاء السحور يا نافع ؟ فأقول له : لا فيعاود الصلاة ثم يقول : أجاء السحور يا نافع ؟ فأقول نعم ، ويستغفر ويدعو الله حتى يصبح •••

يحدثنا عبد الله عن نفسه أنه سمع رجلا يقول : أين الزاهدون فى الدنيا ، الراغبون فى الاخرة ؟

فرأيت قبر النبى ﷺ وأبى بكر وعمر ، وقلت له : أعن هؤلاء تسأل ؟

ولم يكن عبد الله بن عمر لعانا ، وكان يقول : أحق ما يظهر به العبد لسانه ، ولم يكن يلعن خادما الا مرة واحدة فأعتقه لوجه الله •

مدحه أحد الناس فقال له : يا خير الناس ، أو يا ابن خير الناس ، فرد عليه قائلا : ماأنا خير الناس ولا ابن خير الناس ، ولكن عبد الله وعبد من عباده أرجو الله وأخافه •• والله لم تزالوا برجل تمدحونه ، حتى تهلكونه•

ولقد سئل مرة هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون ؟ قال : نعم ، والايمان فى قلوبهم • وسئل مرة عن لا اله الا الله هل يضير معها عمل ؟ وهل ينتفع مع تركها عمل ؟ فقال عش ولا تغتر •••

وفى رواية أخرى أنه سئل عن رجل لم يدع من الشر شيئا الا فعله ، الا أنه كان يشهد أنلا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فرد قائلا : عــش ولا تغتر ؟

مشى مرة على أحد أصحابه فى المقابر ، فقال لصاحبه : قل يا خربة •• ما فعل أهلك ••• فرد صاحبه القول : يا خربة ما فعل أهلك ؟ فرد عمر عنهم قائلا : ذهبوا وبقيت أعمالهم ••

ويروى عن ابن عمر قوله عن الرسول ﷺ أنه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أى المؤمنين أكيس فأجاب : أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم للموت استعدادا قبل أن يتنزل به أولئك هم الاكياس •

وهكذا نرى أن شخصية عبد الله بن عمر شخصية نادرة الوجود فهو قدوة طيبة فى مخالفة النفس ، والتزهد فى حظوظ الدنيا ، وزخرفها وأنه كان أسوة حسنة لاصحابه والتابعين •••

لقد كان بحق رائدا من رواد التصوف الاسلامى اذ ابتعد عن شهوات بطنه وفرجه جميعا ، فاذا مالت نفسه الى شىء ، لم يوافقها فيه وأنفقه فى سبيل الله ، كما أنه كان مدرسة للسلوك الاخلاقى وجامعة يتخرج عنها أهل الحقيقة ، فلقد اكتملت شمائله وتنوعت فضائله ، وأصبح كالنجم الزاهد ، فمن يقتدى يهتدى به •••

ان حياته كلها كانت من أجل القربة لله ، فما مالت نفسه الى شىء الا عافه ، وما اشتهت شيئا الا ابتعد عنه ، وهكذا كان بحق مثالا يحتذى به

من بعده ، فاذا اقتدى المريدون الصادقون بأخلاقه وسلوكه ومعاملاته ، فانما قد اقتدوا بالانموذج الحى للصحابى المؤمن الصادق الوعد الامين ..

فاذا سلك الصوفية بعد ذلك هذا الطريق الذى سلكه عبد الله بن عمر من مخالفة للنفس عن حظوظ الدنيا ، فانهم لم يستحدثوا بدعا ، ولم يأتوا بالغريب ، ولم يقلدوا واحدا من أصحاب البدع أو العقائد المنحرفة ، انما أخذوا ذلك عن صحابة رسول الله ﷺ الذى رباهم تربية اسلامية ربانية فكانوا هم المشعل الذى أشرق على العالم فملأه علما ونورا وايمانا .

٣ — حذيفة بن اليمان(٨٤)

ذكر أن حذيفة بن اليمان عاش مع أهل الصفة دهرا فنسب اليهم هو وأبوه ، وكانوا من المهاجرين ثم خيره النبى ﷺ بين أن يكون من المهاجرين أو الانصار فاختار وحالف الانصار فعد فى جملتهم .

لقد كان حذيفة بالفتن والافات عارفا ، وعلى العلم والعبادة عاكفا ، وعن التمتع بالدنيا عازفا(٨٥) . كما يروى عنه أنه كان عارفا بالمحن وأحوال القلوب ، سأل عن الشر فاتقاه ، وتحرى الخير فاقتناه .

يقول حذيفة بن اليمان :

---

(٨٤) حلية الاولياء للاصبهانى ص ٢٧٠—٢٨٣ جا .
(٨٥) المرجع السابق ص ٣٥٤ جا .
☆ نحن — مثل النار اذا فسدت بالقاء الحطب عليها حتى هاج دخانها .
ومثل الرسول هؤلاء بالذين يخرجون عن طريق الشريعة والسنة المباركة والدعاة الذين يدعون بالباطل .

« كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركنى الشر » .

فقلت له يوما :

« يا رسول الله .. انا كنا فى جاهلية وشر ، فأرسل الله الينا بهذا الخير .. فهل بعد هذا الخير شر .. ؟ »

قال ﷺ :

« نعم .. وفيه دخن .. »*

يقول حذيفة بن اليمان :

« وما دخنه يا رسول الله »

قال ﷺ :

« قوم يستنون بغير سنتى ، ويهدون بغير هدى ، تعرف منهم وتنكر»

يقول حذيفة بن اليمان :

«هل بعد ذلك الخير من شر » ... ؟

قال ﷺ :(٨٦)

« نعم ... دعاة على أبواب جهنم من أجابهم اليها قذفوه فيها » .

يقول حذيفة بن اليمان :

« يا رسول الله صفهم لنا .. »

---

(٨٦) الحلية ص ٢٧٠—٢٨٢ جا .

قال ﷺ :

« نعم هو قوم يتكلمون بألسنتنا » .

يقول حذيفة بن اليمان :

« يا رسول الله فما تأمرنى ان أدركنى ذلك » .

قال ﷺ :

« تلزم جماعة المسلمين وأمامهم » .

يقول حذيفة بن اليمان :

« فان لم يكن لهم جماعة ولا امام ؟. »

قال ﷺ :

« اعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعفى على جزع شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » ..

روى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أنه قال :

ان للفتنة وقفات وبغتات ، فمن استطاع أن يمـوت فى وقفـاتها ، فليفعل ... (يعنى بالوقفات غمد السيوف)[٨٧] .

وعن القلوب يقول حذيفة بن اليمان :

القلوب أربعة :

قلب أغلف فذلك قلب الكافر .

---

(٨٧) المرجع السابق .

وقلب مصفح فذلك قلب المنافق •

وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذاك المؤمن •

وقلب فيه نفـــاق وايمـــان •

فمثل الايمان كمثل شجرة يمدها ماء طيب ، ومثل النفاق مثل القرحة يمدها قيح ودم ، فأيهما غلب عليه غلب •

جلس حذيفة بن اليمان الى بعض أصحابه وقال لهم : أياكم ومواقف الفتن •• فقيل له :

وما هى مواقف الفتن يا أبا عبد الله ••• ؟

فرد عليهم حذيفة قائلا :

أبواب الامراء ••• يدخل أحدكم على الامير فيصدقه ويمدحه بالكذب

ويقول ما ليس فيه •• ويقصد حذيفة بالفتن هنا الرياء أو النفاق •

يقول حذيفة بن اليمان :

ليس خيركم الذين يتركون الدنيا بالاخرة ، ولا الذين يتركون الاخرة بالدنيا ، ولكن الذين يتناولون من كل •••

ويقصد حذيفة بذلك الذين يجعلون الدنيا مزرعة الاخـــرة ، والذين يعملون فى دنياهم من أجل آخرتهم •

يقول حذيفة بن اليمان رضى الله عنه :

لعن الله من ليس منا ، والله لتأمرون بالمعروف ولتناهون عن المنكر أو لتقتتلن بينكم ، فليظهرن شراركم على خياركم فليقتلنهم حتى لا يبقى أحد

يأمر بالمعروف ولا ينهى عن منكر ، ثم توعون الله عـــز وجل فـــلا يجيبكم بحقكم[٨٨] .

يقول حذيفة بن اليمان :

ليأتين عليكم زمان خيركم فيه من لم يأمر بمعروف وينه عن منكر .

روى عن حذيفة بن اليمان أنه قال :

بحسب المرء من العلم أن يخشى الله عز وجل ، ويحسبه من الكذب أن يقول :

أستغفر الله ... ثم يعـــود ..

ويقصد بذلك أن يعود الى الكذب والمعاصى .

يقول حذيفة بن اليمان :

أول ما تفقدون من دينكم الخشوع .. وآخر ما تفقدون من دينكم الصـــلاة ..

عن حذيفة بن اليمان أنه قال :

ركبنا مع رسول الله ﷺ ليلة الاحزاب ، فى ليلة ذات ريح شديدة وبرد .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألا رجل يأتينى بخير القوم يكون معى يوم القيامة ... ؟ فسكت القوم .. ثم قالها — ﷺ الثانية ثم الثالثة .. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياحذيفة قم فائتنا بخير القوم ... فقام حذيفة بن اليمان

---

(٨٨) الحلية جا ص ٢٧٠—٢٨٢ .

تلبية لامر رسول الله ﷺ وعرف خبر القوم .. فرجع الى رسول الله وأخبره بما عرف ويستطرد حذيفة بن اليمان قائلا :

.. ثم أصابني حين فرغت ، شدة البرد . فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها ، فلم أزل نائما حتى الصبح وروى عن حذيفة بن اليمان أنه قال

كنا مع رسول الله ﷺ فى الصفة ، فأراد بلال أن يؤذن ؛ فقال الرسول ﷺ : على رسلك يا بلال ...

ثم قال ﷺ :(٨٩)

« أطعموا فطعمنا » .. ثم قال لنا .. أشربوا فشربنا ... ثم قام الى الصلاة . (وقد روى أن ذلك الوقت كان وقت السحور) .

ويروى عن حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه أنه فى مرضه الاخير الذى مات فيه أنه قال :

اللهم انك تعلم أنى كنت أحب الفقر على الغنى ، وأحب الذلة على العز ، وأحب الموت على الحياة .. حبيب جاء على فاقه ؛ لا أقلع من ندم .. ثم مات رضى الله تعالى عنه .

وهنا يريد حذيفة أن يقول انهم قوم يحبون الموت ، ويحبون الفقر على الغنى ، الذى هذا هو حاله لا يندم عند لقاء ربه والا فيكون من المنافقين الذين لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الاخرة .

---

(٨٩) الحلية ص ٢٧٠ وما بعدها ج١ .

ولقد كان حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه كثير النصيحة لأصحابه قائلا :

تعودا الصبر فأوشك أن ينزل بكم البلاء ••• أما أنه لا يصيبكم أشد مما أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ •

ولقد كان حذيفة بن اليمان عارفا بالنفاق وأهـــله وكثيرا ما حـــذر أصحابه من ذلك فكان يقول :

ذهب النفاق فلا نفاق انما هو الكفر بعد الايمان •

كما كان يقول أيضـــا :

•• المنافقون اليوم شر منهم على عهد رسول الله ﷺ ، كانوا يومئذ يكتمونه ، وهم اليوم يظهرونه(٩٠) •

لقد كان الفاروق عمر بن الخطاب لا يصلى على رجل فى جنازة الا اذا كان حذيفة بن اليمان يصلى عليه • فينظر يمينا وشمالا حتى يراه فيطمئن فيصلى على الرجل •

ولذلك سمى حذيفة بصاحب علم المنافقين رضى الله عنه اذ كان يعرف المنافق ، فيبتعد عنه وهذه خصوصية خصه الله بها ، عرف بها حذيفة عـــلى عهد رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين •

---

(٩٠) الحلية ص ٢٧٠—٢٨٢ جا .

٤ ــ أويس بن عامــر القــرنى

أول التــــابعين

يعتبر أويس القرنى علم من الاصــفياء من الزهاد ، ويدعى السيد العباد ، وقد بشر به النبى — ﷺ — وأوصى به أصحابه قبل انتقاله ﷺ •

ولقد سأل عنه الفاروق عمر — رضى الله عنه — كلما أتى أهل اليمن فى تجالمرة ، وكان يقول :

ان الرسول ﷺ قد قال :

ان رجلا يأتيكم من اليمن ليس له فى اليمن الا أم ، به بياض فدعى الله تعالى فأذهب هذا البياض عنه ولم يبق من هذا البياض الا موضــع الدرهم • ثم يستطرد الفاروق عمر قائلا : ولقد أوصانا الرسول ﷺ فقال :

« فمن لقيه منكم فليطلب اليه أن يستغفر لكم » ••

يقول الفاروق عمر رضى الله عنه :

ثم قدم علينا أويس القرنى من اليمن فقلت له : ما اسمك ••؟

قال : أويس •

قال عمر — رضى الله عنه — فمن تركت باليمن ؟

قال : تركت أما لى ••

الفاروق عمر : أكان بك يا أويس بياض من قبل فدعوت الله فأذهب عنك هذا البياض ؟

---

(٩١) حلية الاولياء ــ للاصفهانى ، ص ٧٩ــ٨٧ جا •

الفاروق عمر : اذن استغفر لى يا أويس .

أويس . أيستغفر مثلى ... لمثلك يا أمير المؤمنين .

الفاروق عمر : استغفر لى .

فاستغفر له أويس ...

الفاروق عمر : يا أويس أنت أخى لا تفارقنى .

لكن أويس انفلط من مجلس الفاروق عمر ، وسافر الى الكوفة سرا ..

ويقص الفاروق عمر بن الخطاب هذه القصة على بعض أهل اليمن الذين يعرفون أويس القرنى وكانوا يأذونه بألسنتهم ، ومنهم رجل كان أشرهم ايذاء لاويس لانه يعرى مرة ويكسى مرة .

فلما سمع الرجل مقالة الفاروق عمر عن أويس القرنى تعجب ويقول فى نفسه : أيكون فينا ولا نعرفه ونسخر منه ونحقره ؟ .

ثم يسأل الرجل الفاروق عمر قائلا : « ان بيننا رجلا يقال له أويس له شامة على ابطه ، أيكون هو ولا نعرفه » ؟

قال الفاروق عمر : أدركه ولا أراك تدركه ..

فجد الرجل حتى أدرك أويس القرنى ، فقال له أويس :

« ما هذه بعادتك ... فماذا حدث لك » ؟.

فقال الرجل : لقد سمعت مقالة عمر عنك يا أويس يقول عنك كذا ... وكذا ... فاستغفر لى يا أويس ..

فقال أويس : لا أفعل حتى تجعل لى عليك أن لا تسخر بى ولا تحقرنى وألا تذكر الذى سمعته من عمر الى أحد أبدا ..(٩٢)

فاستغفر له أويس وخرج .

فما لبث أمر أويس أن فشى بين أهل الكوفة ، ولما شعر أويس بذلك انفلت منهم ولم يظهر بعد ذلك الى أن توفاه الله رضى الله عنه .

لم يدرك أويس القرنى الرسول — ﷺ — حيا ويحكى عن هرم بن حيان وكان جار لاويس أنه قال له مرة :

حدثنى يا أويس عن رسول الله ﷺ بحديث أحفظه عنك .

فبكى أويس وصلى على النبى — عليه الصلاة والسلام ثم قال له :

انى لم أدرك النبى — صلى الله عليه وسلم — ولم يكن لى معه صحبة، ولكنى رأيت من رأى النبى — صلى الله عليه وسلم — مثل عمر وعلى — رضوان الله تعالى عليهم .

ويروى أبو نعيم فى حلية الاولياء أنه نادى رجلا من أهل الشام يوم صفين أفيكم أويس القرنى ؟

قالوا نعم .. ماذا تريد منه ؟

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أويس القرنى خير التابعين باحسان .

ولقد كانت دعوة أويس القرنى حين يمسى فى بعض الايام فيقول :

---

(٩٢) الحلية جا ص ٧٩—٨٧ .

« هذه ليلة الركوع » •• فيركع حتى يصبح •

وكانت دعوته حين يمسى فى بعض الايام :

هذه ليلة السجود •• فيسجد حتى يصبح •

وكان كلما أمسى تصدق بما فى بيته من فضل الطعام والثياب ثم يقول:

« اللهم من مات جوعانا •• فلا تؤاخذنى به ••• ومن مات عريانا فلا تؤاخذنى به » ••

الفصـــل الثالث

الخليفة الزاهــد

عمر بن عبد العزيز (٦٠ ــ ١٠١ هـ)

١ ــ ســـــيرته :

هو أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم القــرشى الاموى ، ويكنى بأبى حفص وأمه أم عاصـــم بنت عاصـــم بن عمـــر بن الخطاب .

ولد عام ستين من الهجرة بالمدينة ، وفى هذه الســـنة توفى الخليفـــة معاوية بن أبى سفيان أو بعدها بسنة .

نشأ عفيفا تقيا نقيا ، طاهر الظاهر ، ملائكى الباطن ، كان صـــلاحه نموذجا للصالحين ، وتقواه قدوة للسالكين ، وزهده قبلة المريدين ،وحكمه نورا يهدى الحاكمين والمحكومين وعدله ملاذ الطالبين وحصن المظلومين .

لم يكن زاهدا تكلفا واستظهارا ، وانما ملك فهجر ، وأثرى فترك ، وأعطى فبذل ، وابتلى فصبر ، وتلطف به فحمد وشكر .

ولى الخلافة بعد موت ابن عمه سليمان بن عبد الملك بحيلة وضـــعها سليمان بن عبد الملك حتى بايعه يزيد وهشام ابنا عبد الملك .

انتقل يوم الجمعة الخامس من شهر رجب سنة ١٠١ هـ ولم يتجاوز سنه ٤٠ عاما . وولى بعده الخلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان .

يقول صاحب النجوم الزاهرة[١] :

« سار عمر بن عبد العزيز سيرة الخلفاء الراشدين ، أبى بكر وعمر وعلى وعثمان رضى الله عنهم من التقلل والتقشف والعدل فى الرعية والانصاف » ..

كان عبدا ربانيا ، يأخذ نفسه بالشدة ليرحم الرعيه . خالف حظوظه ، فابتعد عن الهوى ، وتواضع لله ، فأرجع الامر كله اليه ، عملا بقوله تعالى :

« يقولون هل لنا من الامر من شىء ، قل ان الامر كله لله »

(آل عمران : ١٥٤)

كان وحيد زمانه فى عفته وعفافه ، وفريد عصره فى صدقه وفضله ودماثة خلقه ، تولى خلافة المسلمين سنوات يسيرة فافتقر وأغناهم ، وعاش حياة التنسك ليضرب المثل الاعلى والقدوة الصالحة للولاة والحاكمين ، حتى أصبح فى الناس علما من أعلام الاسلام واماما فى الورع والتقوى ، وعارفا بالله جامعا بين الحكم والحكمة ، وما زال شابا يافعا غضا ..

خاف الله فأمنته المخلوقات ! ورجا الله فلم يخف من أحد سواه .

حاسب نفسه حسابا عسيرا . وراقب ما يدخل اليها وما يخرج منها فكان نعم الخليفة الورع الصالح ..

٢ ــ عمر الورع :

لم ير عمر أبدا الا ذاكرا لله عاملا بأمره مستشهدا بآياته ، راضيا

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ..

بقضائه ، فلم يخترع نظاما من عنده ، أو يحكم بقانون يوافق هواه ، انما كان متبعا قانون الله مؤمنا به فى ظاهره وباطنه ...

لقد كان عبدا ربانيا صادق الوعد ، لم تلهه الخلافة ولم يغتر بالملك والجاه ، ولم يعجب بقوة السلطان ، وانما على العكس من ذلك تماما زادته الخلافة خضوعا وتذللا لله .. والسلطان تنسكا وخــوفا وورعا ، والملك حكمة وعـــدلا ..

هكذا كان الحاكم المؤمن الذى تربى فى مدرسة الاسلام الاخلاقية ، فعلمه دين الله كيف يخالف نفسه الامارة ، ويحسن الى الرعية الذين هم أمانة فى عنقه ، ان نور التوحيــد اذن ، اذا دخــل قلب العبد حول ظلمته نورا ، وملأ جنباته أمنا وسكينة ، فلا يهتم صاحبه الا بالقربة من الله والحب فى الله ، ولا يغضب الا لله ، ولا يفرح الا مــع الله ، ولا يأنس الابالله ، ويصبح كلامه وسكوته وحديثه وصمته ، من الله ولله وفى الله وعن الله ...

ان هذا المقام رفيع لا يحظى به الا أصحاب المقــامات العليــة من الصديقين والاولين والصالحين والصابرين ، وحسن بذلك رفيقا ..

هكذا يكون الحكم العادل ، والنظام الكامل ، والخلق القويم ، فما بال بعض الحاكمين يزعمون أن الاسلام لا يصلح للتطبيق فى هذا الزمان .. ونحن معهم فيما يدعون لانهم كحكام لا يستطيعون أن ينصفوا أنفسهم من ظلمها ، فكيف يتأتى لهم أن ينصفوا الناس ، انهم لا يستطيعــون أن يتواضعوا لله فكيف يمكن أن يتواضعوا للنــاس الا زيفا ونفــاقا ، انهم لا يقدرون أن يحسنوا الى الناس كبشر خلقوا مثلهم ، فكيف يتسنى لهم أن

يحسنوا كعباد لله أمروا بالاخلاص والطاعة ، ان الحـــاكم ليس أفضـــل من المحكوم الا بورعه وتقواه وعدله ..

يقول الرسول ﷺ :

« اذا صـــلح الراع صلحت الرعيـــة » ..

صلاح الراع صلاح للرعية :

ان الناس على دين ملوكهم ، فاذا أنصف الملوك أنفسهم من العجب والاغترار والتجبر والتكبر وحكموا بما أنزل الله امتلأت الارض حـــكمة وأمنـــا وعـــدلا ..

أما اذا غاب حكم الله ، وبدأ الحـــكام يؤلون ويفسرون ويخترعـــون ويشرعون من عند أنفسهم ، وغلبت عليهم الاثرة والانانية وساد الظـــلم وشاعت الفاحشة وباءوا بغضب من الله فذلوا واستكانوا وقلت الارزاق وارتكنوا الى غيرهم يسمونهم سوء العذاب حتى يصدق فى وصفهم قوله تعـــــالى :

« ان الله لا يغير ما بقـــوم حتى يغيروا ما بأنفســـهم »
(الرعد : ١١)

ان الشهادة الطيبة لانسان على فضله وحسن خلقه وعلمه تكون بالغة الصدق اذا صدرت من عدو له ، ولقد شهد الاعداء قبل الاصدقاء على ورع عمر وتقواه وعدله وعلمه .

يروى عن محمد بن معبد أن عمر بن عبد العزيز كان يرسل أسارى الروم ليفتدى بهم من أسارى المسلمين ، ودخل يوما على ملك الروم فوجده مكتئبا حزينا ، فقال له « ما شأن الملك » ؟..

فقال الملك : ألا تدرى ما حدث ؟ ..

قال معبد : وماذا حدث ؟

قال الملك : لقد مات الرجل الصالح ..

قال معبد : من هــو ؟ ..

قال : عمر بن عبد العزيز .. لانى لاحسب أنه لو كان أحـد يحيى الموتى بعد عيسى بن مريم لاحياهم عمر بن عبد العزيز .. ثم قال : لست أعجب من الراهب الذى أغلق بابه على نفسه ، ورفض الدنيا وتنسك وتعبد ولكن عجبى ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها ثم تنسك ..

لقد كان عمر لا يأكل من طعام فيه شبهة أو يستعمل شيئا من أموال المسلمين ، رغم أنه الخليفة الامر ، وهذا هو الورع فى أعلى درجاته .. لقد أرسل يوما غلامه ليشوى له قطعة لحم ، فأتى بها مسرعا ، فقال للغلام : (انك) أسرعت ... فقال الغلام : لقد شويتها فى نار المطبخ(يقصد مطبخ المسلمين) الذىيقدم فيه الغذاء للمحتاجين .. فقال لغلامه : يا بنى كلها أنت اللحم فانك رزقتها ولم أرزقها ..

لقد رفض عمر لورعه وتقوى نفسه أن يأكل طعاما فيه شبهة الحرام حيث شوى اللحم فى بيت مال موقد المسلمين ولم يشوى فى بيته .. وهذا هو أعلى درجات الورع .. انه خوف وخشية ورهبة من الله .. لا يصــل اليها الا أصحاب المقامات العليا من الصديقين والصالحين .

يقول ابن مهاجر عن ورع عمر بن عبد العزيز :

« كان تضاء له الشمعة عندما كان ينظر فى حوائج المسلمين ، فاذا فرغ من حاجتهم أطفأها ثم أضاء سراجه(٢) .

ما هذا الخوف الذي لا حد له ... انه ليس الخوف من انسان كائنا من كان .. ان الخائف هنا خليفة وأمير المؤمنين .. فممن يخاف ؟ انه يخاف من ربه وكأنه يراه فى كل امره ، فى ظاهره . فى باطنه ، فى خاطره ، انه يعبد الله على الاخلاص . والاخلاص يقتضى الخوف . ولكن ممن الخوف وهو لم يفعل شيئا يخالف أمر الله ... أهذا الزيت الدى يضىء الشمعة هـو موضوع خوفه .. نعم ان أمير المؤمنين يخاف أن يكون هذا الزيت الذى ليس من ماله الخاص فيه شبهة الحرام ..

انه ورع الورع .. لا يمكن أن يصدر هذا الا عن رجل يشعر أن الله يراه فى كل شىء ، فى أكله ، فى شربه ، فى نومه ، فى اضاءته للشمعة .. يقول الرسول ﷺ :

« أعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فهو يراك » . .

ان عمر كان يرى .. وكان يخاف أن يراه تعالى فى غفلة أو فى نسيان . ولذلك كان عاملا عابدا .

٣ ــ زهــده وفقره واحسانه :

آمن عمر أن كل موجود فقير الى الله ، وأن الله هو الغنى على الدوام، والفقر عند الصوفية ضد الغنى ، ومعناه الحاجة الى الله على الحقيقة ..

---

(٢) الشيخ ابن نعيم الاصبهانى ــ حلية الاولياء ص ٣٢٤ .

فالفقير يشعر برغم وجود المـال والجاه والسلطان بحاجته وبعجزه وبفقره الى الله فاذا احتاج لغير الله لم يكن فقيرا ، رمزا للايثار والتزهد في متاع الدنيا فشرط الفقر هـو الحاجـة الى الله على الدوام وطلبـه على الاستمرار لانه ليس هناك من غنى الا الله ...

هكذا الحاكم الفقير الصالح الخليفة عمر بن عبـد العـزيز ، تولى الخلافة غنيا وانتقل الى جوار ربه فقيرا ، لم يظلم نفسه ، فيطع الهوى ، وانما استقام في طريق الله وزهد في دنياه ليهتدى الى آخرته ...

ويرتبط الزهد بالفقر ، فالفقر ما يحتاج اليه الانسـان ، أما فقـد مالا يحتاج اليه الانسان فلا يسمى فقرا ، وكذلك الزهد ، فالزاهد محتاج كالفقير الى الله ، وهو منشغل بالله عن الدنيا وعن الخلق جميعا ...

سئل عبد العزيز بن عمر :

« كم كانت غلة (دخل) أبيك حين تولى الخلافة ؟ ..

قال : كان أربعون ألف دينار ..

قال : وكم كانت غلته حين توفى ؟ ..

قال : أربعمائة دينار ولو بقى حيا لنقصت ...

يصدق في عمر قول على بن أبى طالب عندما سئل عن الزهد قال :

« هو أن لا تبالى من أكل الدنيا من مؤمن أو كافر »

ليس سلوك عمر رياء واستظهارا ، وانما هى أخلاق الصديقين عباد الرحمن الذين يخافون ربهم ، ويرجون أن يقابلوه بلا آثام وذنوب ، يريدون أن تكون دنياهم مزرعة لاخرتهم ، ويعلمون على اليقين أن رحلة دنيا قصيرة مهما طالت ولم يكن زهد عمر الا نظرة الى الدنيا بعين الزوال لتصغر فى العين ، فيسهل الاعراض عنها ..

يحكى لنا ابراهيم بن هشام أن جده قال له(٣) :

« دخلت على الخليفة عمر بن عبد العزيز أعوده فى مرضه فاذا عليه قميص وسخ » فقلت لزوجه فاطمة :

« يا فاطمة اغسلى قميص أمير المؤمنين » ..

قالت : نفعل ان شاء الله ..

ثم عدت لزيارته فاذا القميص على حاله فقلت لفاطمة : ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين ، فان الناس يعودونه ؟..

قالت : والله ما له قميص غيره ..

رب قائل ولماذا يقتر أمير المؤمنين على نفسه ؟.. ألم ينهنا عن التقتير على أنفسنا ، ألم يقل تعالى :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق »

(الاعراف : ٣٢)

---

(٣) الشيخ ابن نعيم الاصبهانى ــ حلية الاولياء جه ص ٢٥٩ .

ان كلام الله وأمره هو الحق الواجب الاتباع ، لكن المؤمن يخـاف أن يتبع هوى نفسه فيظلمها ، فيكثر من طلب الحظوظ واللذات وينشـغل بالدنيا ومن ينشغل بالدنيا يحجب عن الاخرة ، ومن يهتم بالخلـق يحجب عن الحق ..

هكذا كانت نفس الخيفة عمر بن عبد العزيز . كانت نفسا تواقـة . وكان يعالجها بالتربية والطاعة والاخلاص لله جميعا ، لم يكن يزهد فى الزينة تكلفا .. وانما أصبح ذلك طبعا ملازما له . وفطرة فطر عليها اذ كان ينشد الصلاح لنفسه والاصلاح للرعية ..

ان زهده مع هجره للملك والامتلاك فى الدنيا واضح على اسـقاطه للتدبير مع الله وتوكله عليه فهو عبد ربانى يريد وجه الله فى ظاهره وباطنه ، يرى أن الزهد ليس لمن لم يعط فزهد ، وانما الزاهد على الحقيقة من أعطى فهجر خوفا من أن ينشغل بما أعطى عن العاطى لقوله تعالى :

« فهو الذى يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفينى »

(الشعراء : ٨٠)

وهذه حال أصحاب المقامات العليا من الصديقين والصالحين .

يروى عن عمر أنه دخل على زوجته فاطمة فقال لها :

« أعندك درهم أشترى به عنبا » ؟ ..

قالت : لا ...

قال : أعندك نميه[٤] أشترى بها عنبا ؟ ..

---

(٤) شيء يسير من الفلوس أقـل من الدرهم مصـنوع من الرصاص أو النحاس .

قالت : لا ...

ثم أقبلت عليه متعجبة تقول :

« أنت أمير المؤمنين ولا تقدر على درهم ولا نمية تشترى بها عنبا ».

قال : هذا أهون علينا يا فاطمة من معالجة الاغلال غدا فى نار جهنم ..

لو أمر عمر بثمر العنب فى أقطار الاسلام ليحملوه اليه ما عصاه أحد، ولو سار يوما فى جنازة ، فأتوا له بمقعد كان يجلس عليه الخلفاء ، لالقى به بعيدا وجلس على الارض ..

جاء رجل وجلس بين يديه وقال[٥] :

يا أمير المؤمنين لقد اشتدت بى الحاجة ، وانتهت بى الى الفاقة ، والله سائلك عن مقامى غدا .. فقال عمر أعد ما قلت ... فأعاده عليه فبكى عمر بكاء غزيرا ثم قال : ما عدد عيالك ؟ قال الرجل : خمسة أنا وامرأتى وثلاثة أولادى .. قال عمر : ان الفرض لك ولعيالك عشرة دنانير ونأمر لك بخمسمائة دينار ، مائتين من مالى وثلاثمائة من مال الله .

أخر عمر مرة صلاة الجمعة عن الوقت الذى كان يصليها فيه فلما سئل عن ذلك قال : ذهب الغلام بالثياب يغسلها فحبسنى بها ، فعرف السائلون أنه ليس لديه غيرها .

ولقد حسبت مرة قيمة ثياب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة باثنى عشر درهم فذكر قميصه ورداءه وقباءه وسراويله وعمامته وقلنسوته وخفيه[٦].

---

(٥) الشيخ ابن نعيم الاصبهانى — حلية الاولياء جـ٥ ص ٣٠٢ .

احسـانه :

كتب اليه بعض ولاته يعاتبونه على قلة حصيلة بيت المـال ، نظـرا لشدة انفاقه على الرعية حتى أنه أوشك على الافلاس فرد قائلا :

« اعط ما فيه فاذا لم يبق فيه شيئا فاملاه زبلا (أى زبالة) » .

نهى عمر الخليفة سليمان بن عبد الملك عن قتل الحرورية ، ونصحه بأن يودعهم السجن حتى يتوبوا ، فأحضر سليمان بين يديه أحدهم وقال له : ماذا تقول ، فقال الحرورى : يا فاسق ابن الفاسق ، فقال سليمان : على بعمر . فلما حضر سأل الحرورى ما تقول ؟.. وما أقول يا فاسق ابن الفاسق ... فسأل سليمان عمر ماذا ترى ؟.. فسكت عمـر .. فقال له : عزمت عليك أن تخبرنى بما ترى ، فقال : أرى أن تشتمه كما شتمك أباه كما شتم أباك .. فقال سليمان أليس الا ذا ..

ونادى رئيس الحرس خالد بن الريان وأمـر به .. فضربت عنـق الحرورى وخرج عمر وقابله رئيس الحرس وقال :

تقول لامير المؤمنين اشتمه كما شتمك وتشتم أباه كما شتم أباك .. والله لقد كنت متوقعا أن يأمرنى بضرب عنقك .. وقال عمر أو كنت تفعل لو أمـرك ؟ ..

قال : والله لو أمرنى لفعلت ..

ومرت الايام واستخلف عمر بن عبد العـزيز وكان خالد بن الريان ما زال رئيسا للحرس فاستدعاه عمر وقال له :

« يا خالد ضع هذا السيف عنك ، ثم قال : اللهم انى وضعت لك خالد بن الريان فلا ترفعه أبدا ، ثم نادى عمرو بن مها ، وقال له :

يا عمرو ، والله لتعلمن أن ما بينى وبينك قرابة الا الاســلام ، ولكنى سمعتك تكثر تلاوة القرآن ، ورأيتك تصلى فى موضع تظن أن لا يراك أحد فرأيتك تحسن الصلاة خذ هذا السيف فقد وليتك حرسى(٧) .

سار عمر يوما فى سوق حمص ، فقام اليه رجل وقال : يا أمير المؤمنين أمرت أن يأتيك كل مظلوم . قال عمر : نعم .

قال الرجل أتاك مظلوم بعيد الدار ، فنزل عمر عن دابته وقال له : ما ظلامتك ؟

قال : لى ضيعة وثب عليها واثب فانتزعها منى . فكتب عمر الى عروة بن محمد يأمر أن يسمع بينته ، فان ثبت له حق دفعه اليه ، فلما أراد الرجل القيام قال له عمر :

مهلا على رسلك ، انك قد حضرت الينا من بلد بعيد .. فما مقــدار ما نفذ من طعامك وأخلق من ثوبك أو نفق لك من راحلة ؟ فحسب الرجــل مبلغ أحدى عشر دينارا فدفعها له عمر ..

٤ ــ خـــوفه من الله :

الخوف هو خوف المؤمن من نفسه أكثر من خوفه عدوه ، والخـــوف تألم القلوب واحتراقه وزيادة الخوف من زيادة المعرفة بجلال الله وصفاته ،

---

(٧) الشيخ أبى نعيم الاصبهانى : حلية الاولياء جـ٥ ص ٣٨٠ .

فبحسب معرفتنا بالله يكون خوفنا ، ويحسب معرفتنا بعيوب أنفسنا وما أمامها وخلفها من الاخطار يكون خوفنا أيضا[٨] ..

وأن أقل درجات الخوف ما يظهر فى أعمالنا ، فعندما يمتنع العبد عن المخالفات ويتجنب المحظورات ينتج عن ذلك ثمرة تسمى الهيبة ..

واذا زاد الخوف واشتد فى الانسان فمعناه أنه قد كف تماما حتى عن التفكير فى المعاصى والمحرمات ، أى كف عم تتطرق الى النفس من الخواطر الشيطانية[٩] .

لقد كان الخليفة عمر بن عبد العزيز آية للخائفين ، تقول زوجته فاطمة مخاطبة المغيرة بن الحكم : يا مغيرة قد يكون من الرجال من هو أكثر صلاة وصياما من عمر ، ولكنى لم أر من الناس أحدا قط أشد خوفا من ربه من عمر . لقد كان اذا دخل البيت ألقى نفسه فى مسجده ، فلا يزال يبكى ويدعو — الله — حتى تغلبه عيناه ، ثم يستيقظ من نومه فيفعل مثل ذلك كل ليلته[١٠] ..

يؤكد لنا عبد العزيز بن الوليد بن أبى السائب أن خوف الله كان سمة مميزة لعمر بن عبد العزيز ويروى عن ابيه قوله :

« مارأيت قط الخوف أبين على وجه من وجه عمر بن عبد العزيز »[١١]

---

(٨) الفاظ الصوفية ومعانيها — للمؤلف .
(٩) الكلاباذى — التعرف لمذهب أهل التصوف .
(١٠) الامام أبو حامد الغزالى — احياء علوم الدين ص ٢٣٣٣ وما بعدها جزء ١٣ .
(١١) الامام ابو نعيم الاصبهانى — حلية الاولياء جـ٥ ص ٢٥٣ وما بعدها .

ويصدق فى أمير المؤمنين عمر قوله تعالى :

« يخافون ربهم من فوقهم » (النحل : ٥٠)

يزكى الرسول — ﷺ — الخائفين الذين يمتثلون بالاية الكريمة :

« يدعون ربهم خوفا وطمعا » (السجدة : ١٦)

فيقول — ﷺ — :

لا يدخل النار من بكى من خشية الله تعالى حتى يلج (يدخل) اللبن فى الضرع ..

الخوف اذن شرط من شروط الايمان ، ويبين أبو على الدقاق رحمه الله أن الخوف من ثلاثة مراحل ، خوف وخشية وهيبة . فيكون الخوف أساسا الخشية والهيبة ثمارا للخوف(١٢) .

فخوف عمر اذن خوف من عقاب الله تعالى فى الدنيا أو فى الاخرة امتثالا لقوله تعالى :

« وخافون ان كنتم مؤمنين » (آل عمران : ١٧٥)

وقف جمع من بنى مروان على باب عمر فى مظاهرة ، فجاء ابنه عبد الملك فقالوا له : اما أن تستأذن لنا فى مقابلة أمير المؤمنين عمر واما أن تبلغه رسالة اليه ..

قال عبد الملك : قولوا ماذا تريدون ؟

---

(١٢) الامام القشيرى — الرسالة القشيرية جـ٢ ص ٣٠٦ .

قالوا : ان الخلفاء قبل عمر كانوا يعطونا ويعرفوا لنا مواضعنا ، أما أباك فقد حرمنا ما فى أيديه ..

فدخل عبد الملك على أبيه وأخبره ما أبلغوه ..

فقال عمر : قل لهم ان أبى يقول لكم أنى أخاف أن عصيت ربى عذاب يوم عظيم(١٣) ..

قال له بعض أصحابه يوما : لو اتخذت لك حرسا واحترزت فى طعامك وشرابك كما كان يفعل الخلفاء قبلك ؟

قال : اللهم ان كنت تعلم انى أخاف شيئا دون يوم القيامة ، فلا تؤمن خوف .

٥ ــ ذكره للموت :

كان عمر بن عبد العزيز دائم التذكير بالحياة الاخرة ، والتفكير فى الموت واعداد نفسه له ، ومما قاله :

الويل والحسرة لمن لم يحذر الموت ويذكره فى (حال) الرخاء فيقدم لنفسه خيرا ليجده بعد ما يفارق الدنيا وأهلها .. ثم بكى حتى غلبه البكاء فقام(١٤) ..

يحكى عن عمر أنه مشى يوما فى جنازة فلما دفن الميت جاء الى قبر فوقف عليه ثم قال :

« السلام عليك يا صاحب القبر » ..

---

(١٣) الشيخ أبو نعيم الاصبهانى ــ حلية الاولياء جـ٥ ص ٢٥١ وما بعدها
(١٤) المرجع السابق .

فسمع هاتفا يناديه من خلفه يقــول :

« وعليك السلام يا عمر عم تسأل » ؟..

فرد عمــر قائلا :

« أسأل عن ساكنك وجارك » ..

فقال الهــاتف :

« دمغت (انمحت) المقلتين . وأكلت الحدقتين ، ومزقت الاكفــان وأكلت الابدان » ..

ولا يفهم مما أسلفنا أن عمر كان يخاف الموت ، بل على العكس من ذلك ، اذ لا يخاف الموت بل يطلبه وينشده ابتغاء فى حجر الرحمن ، وهذه هى السعادة الكبرى عند الصالحين ، اذ أن الصادق من الناس لا يرضى بغير الله بديلا ، والموت انتقال من العالم الدنيوى الزائــل ، الى العــالم الاخروى الباقى والولى الصالح لا يموت وانما ينتقل من دار الى دار ، من حياة زائلة الى حياة خالدة ، فكيف يخاف وهناك يعيش فى كنف الله عيشة رغدة وعد الله بها عباده الصــادقين المخلصــين المجــاهدين الصــابرين العــاملين* ..

يروى عن شيبان الصوفى أن أحد الصالحين ترك عنده ضيفا فمات ، فلما أدخله قبره ، وضع خده على التراب تذلــلا لله عسى أن ينزل عليــه رحمته ، فتبسم المنتقل وسمعه شيبان يقول :

تدللنى بين يدى من يدللنى ..

* الحلية جـ ٥ ص ٢٥٠ وما بعدها .

فقـــال له شيبان :

« لا يا حبيبى ، ولكنه لا حياة بعد الموت » ..

فقال المنتقل :

« أما علمت أن أحباء الله لا يموتون » .

هكذا كان عمر بن عبدالعزيز لا يخاف الموت ولا يخشى الانتقال فى رحاب الله ، فقد كتب يوما الى أحد أقاربه كتابا قال فيه :

« أما بعد ، فانك ان استشعرت ذكر الموت فى ليلك أو نهارك ، بغض اليك كل فان ، وحبب اليك كل باق .. والسلام » .

لقد كان ينصح أحباءه وخلصاءه بذكر الموت ذكـــرا كثيرا ، بقـــول لاحـــدهم :

« أكثر من ذكر الموت فان كنت فى ضيق من العيش وسعه عليك ، وان كنت فى سعة من العيش ضيقه عليك » ..

ونصح عمر أحد أقاربه فى رسالة خطها اليه ، فقال له :

« أما بعد فانك ان استشعرت ذكر الموت فى ليلك أو نهارك بغـــض اليك كل فان ، وحبب اليك كل باق ، والسلام » .

قال أبو أمية الحنصى غلام عمر :

« أرسلنى أمير المؤمنين بدينارين الى أهل الدير وحملنى رسالة اليهم تقول : ان لم تبيعوا لى موضع قبرى تحولت عنكم » ..

قالوا : اننا نكره ذلك •• ولولا اننا نخاف أن يتحول عنا ما قبلنا ••

شيع عمر جنازة فتأخر وبعض أصحابه بعيـــدا عن الجنازة فجـــاء أصحابه وقالوا له ، أجنازة أنت وليها تتأخر عنها وتتركها ؟ ••

قال عمر : نعم •• لقد ناد هاتف القبر من خلفى يا عمر ألا تسألنى ما صنعت بالاحبة ••

قلت : أســـألك •••

فقال لى : خرقت الاكفان ، ومزقت الابدان ، ومصصت الدماء ، وأكلت اللحم ••

ثم قال لى : ألا تسألنى ما صنعت بالاوصال ؟

قلت : نعم •••

قال : نزعت الكفين والنوركين من الفخذين والركبتين والساقين من القدمين •• ثم بكى عمر وقال :

« الا أن الدنيا لقاؤها قليل ، وعزيزها ذليل ، وغنيها فقير ، وشبابها يهرم ••• وحيها يموت ، فلا يغرنكم اقبالها مع معرفتكم سرعة ادبارها ، والمغرور من اغتر بها ، أين سكانها الذين بنوا مدائنهـــا ؟ •• وشـــققوا أنهارها ••؟ وغرسوا أشجارها ؟•• وأقاموا فيها أياما يســـيرة غـــرتهم بصحتهم ، وغروا بنشاطهم فركبوا المعاصى ••

انهم كانوا والله فى الدنيا مغبوطين بالاموال على كثرة المنن عليهم ، محسودين على جمعه ما صنع التراب بأبدانهم ، والرمـل بأجســـادهم ، والديدان بعظامهم وأوصالهم •••

كانوا فى الدنيا على أسرة ممهدة ، وفرش منضدة ، بين خدم يخدمون، وأهل مكرمون ، وجيران يعضدون ...

فاذا مررت فنادهم ان كنت مناديا :

وادعهم ان كنت لابد داعيا ..

ومر بعسكرهم وأنظر الى تقارب منازلهم التى كان بها عيشهم ..

وسل غنيهم ما بقى من غناه ..

وسل فقيرهم ما بقى من فقره ..

وسلهم عن الالسن التى كانوا بها يتكلمون . وعن الاعين التى كانت الى اللذات بها ينظرون ..

وسلهم عن الجلود الرقيقة والوجوه الحسنة والاجساد الناعمة ما صنع بها الديدان ؟..

محت الالوان ، وأكلت اللحمان ، وعفرت الوجوه ، ومحت المحاسن ، وكسرت الفقار ، وأبانت الاعضاء ، ومزقت الاشلاء ...

وأين حجالهم وقبابهم ، وأين خدمهم وعبيدهم ، وجمعهم ومكنوزهم، والله ما زودوهم فراشا ولا وضعوا هناك متكأ ولا غرسوا لهم شجرا ، ولا أنزلوهم من اللحد قرارا ...

أليسوا فى منازل الخلوات والفلوات ؟..

أليس الليل والنهار عليهم سواء ؟

★ حلية الاولياء ج ٥ ص ٢٥ وما بعدها .

أليس هم فى مدلهمة ظلماء ؟

لقد أحيل بينهم وبين العمل ، وفارقوا الاحبة ، فكم من ناعم وناعمة أصبحوا ووجوههم بالية وأجسادهم من أعناقهم نائية ، وأوصالهم ممزقة .

سالت الحدق عن الوجنات وامتلأت الافواه دما وصـديدا ، ودبت دواب الارض على أجسادهم ففرقت أعضائهم ، ثم لم يلبثوا والله الا يسيرا حتى عادت العظام رميما .

قد فارقوا الحدائق فصاروا بعد السعة الى المضايق ، قـد تزوجت نساؤهم وترددت فى الطرق أبناؤهم ، وتوزعت القرابات ديارهم وترائهم .

فمنهم والله الموسع له فى قبره الغض الناضر فيه المتنعم بلذاته ..

يا ساكن القبر غدا ما الذى غرك من الدنيا ..

هل تعلم أنك تبقى أو تبقى لك ؟

أين دارك الفيحاء ، ونهرك المطرد ، وأين ثمرك الناضر بنبعه ، وأين رقاق ثيابك ؟ .. وأين طيبك وأين بخورك ؟.. وأين كسـوتك لصـيفك وشتائك ، أما رأيته قد نزل به الامر ، فما يدفع عن نفسه وجلا وهو يرشح عرقا ويتلمظ عطشا ، ينقلب من سكرات الموت وغمراته ..

جاء الامر من السماء وجاء غالب القدر والقضـاء ، جاء من الامـر والاجل مالا تمنع منه ..

هيهات .. هيهات يا مغمض الوالد والاخ والوالد وغاسله ..

يا مكفن الميت وحامله ..

يا مخليه فى القبر وراجعا عنه ..

ليت شعرى كيف كنت على خشونة الثرى ؟

يا ليت شعرى بأى خديك بدأ البلاء يا مجاور الهلكات صرت فى محلة الموتى .. ليت شعرى ما الذى يلقانى به ملك الموت عند خروجى من الدنيا، وما يأتينى به من رسالة ربى(١٧) ..

٦ ـ دعاء عمـــر :

كان مؤمنا .. قوى الايمان بالله ، يعبد الله على طريق الاخـــلاص . ويستغيث به عند الشدائد والمحن ، ويستعين به لكشف الضر واستجلاب النفع ، ونصرة الحق عملا بقوله تعالى :

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان »

(البقرة : ١٨٦)

ولم يكن عمر يلتزم بدعاء معين .. فالمؤمن له أن يتخـــير من الدعاء ما يوافقه ، وليس بملتزم بدعاء الرسول ﷺ فقد أذن الرسول صـــلى الله عليه وسلم بالدعاء لله بما يشاء الداعى ، حيث أن حاجة الناس متفاوتة ، وهمومهم مختلفة ، لذلك كان لابد من اختلافهم أيضا فما يدعون الله به ، وما يسألونه من حاجة ، وهذا يعد من نوافل الخير ..

لقد كان عمر دائم الدعاء ، والتوسل بالله فى كل أمر من أموره ، وفى كل قضية تعرض عليه ، وكل مشكلة لا يجد عنده لها حلا ...

---

(١٧) أبو نعيم الاصبهانى ـــ حلية الاولياء جـ ٥ ص ٢٥٠ وما بعدها .

ذكر فى مجلسه مرة ظلم الحجاج الثقفى وغيره من ولاة الامصار الاسلامية فى خلافة الوليد بن عبد الملك فقال عمر :

الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام ، وقره بن شريك بمصر ، وعثمان بالمدينة وخالد بمكة ، ثم دعا الله قائلا :

« اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجورا فأرح الناس »(١٨) .

ولم يمض على هذا الدعاء غير قليل حتى توفى الحجاج وقره بن شريك فى شهر واحد ثم تبعهم الوليد وعزل عثمان وخالد ..

لقد استجاب الله لدعاء الولى الصالح عمر بن عبد العزيز ، وكيف لا وقد قال تعالى :

« انى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » (البقرة : ١٨٦)

« ادعونى أستجب لكم » (غافر : ٦٠)

وليس عمر وحده المستجاب الدعوة ، فان الله يستجيب لدعوات المؤمنين ، وما داموا يداومون على الدعاء غير معترضين ولا قانطين ، وما داموا موقنين أن ما كان مقسوما لهم ساقه الله اليهم ، فلا يقول أحدهم انى أسأله فلا يعطينى ..

وما دام العبد لا يسأل الخلق فيما يدعو الله به ..

وما دام يستعين بالله فى كل أحواله ، وان لم تكن استجابة الدعاء مقسومة .. فان الله يلهم صاحبها الرضا والقناعة فان كان مدينا ترفق به

---

(١٨) الشيخ ابى نعيم الاصبهانى ــ حلية الاولياء جـ٥ ص ٢٥١ وما بعدها

الدائن وتيسر وتأخر فى الطلب الى حين ميسرة أو أسقطه عنه أو أنقصه . وان لم يسقطه الدائن ولم يتركه ، كان للمدين الداعى ثوابا جزيلا لحسن سؤاله ودعائه(١٩) ..

مر عمر برجل وفى يده حصاه يلعب بها وهو يقول :

« اللهم زوجنى من الحور العين » ..

قال له عمر بئس الخاطب أنت ، ألا ألقيت الحصاة وأخلصت الى الله الدعاء (٢٠) ..

يروى عن عبيد بن عبد الملك أن عمر بن عبد العزيز كان يقول فى دعائه:

« اللهم أصلح من كان فى صلاحه صلاح لامة محمد .. ﷺ

اللهم أهلك من كان فى هلاكه صلاح لامة محمد .. ﷺ »

وكان يقول فى عرفه مشيرا بأصبعه « اللهم زد أمة محمد احسانا .. وراجع مسيئهم الى التوبة .. اللهم وحط من ورائهم برحمتك .. »

٧ ـ تواضعه وعدله ومواعظه :

يقول صاحب قوت القلوب فى الخبر(٢١) :

« فضل العبادة التواضع ، والتواضع يظهر بمعان خمس : فى القول والفعل والزى والاثاث والمنزل ـ ويحصل للمؤمن بعض هذه المعانى فاذا كملت عنده جميعا فهو المؤمن المتواضع حقا » ..

---

(١٩) الشيخ عبد القادر الجيلانى ـ الغنية ج٢ ص ٣٩ـ٤٦ .

(٢١) الشيخ أبو طالب المكى ـ قوت القلوب ج٢ ص ٨٢ .

ولقد كان لعمر بن عبد العزيز هذه الصفات ، فقد كان متـذللا لله ، وكانت نفسه خاضعة منصاعة لاوامر الله ونواهيه ...

يحكى لنا رجاء بن جيوة ، فقال سمرت ليلة عند عمر بن عبد العزيز فاعتل المصباح فقمت لاصلحه .. فأمرنى عمر بالجلوس ثم قام فأصلحه . ثم عاد فجلس .. فقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز .. وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز ، ان الرجل اللئيم هو الذى يستخدم ضيفه ..

ومن تواضعه لله أنه ضربت فى عهد ، عملة جديدة فكتب عليها :

« أمـر عمر بالوفاء والعـدل » .

فلما رآها قال : اكسروها واكتبوا :

« أمـر الله بالوفاء والعـدل »

عـدله :

هناك فرق واضح بين العدل والعدالة ، فالقانون الظاهرى يستهدف فى تشريعه تحقيق المساواة فى الحقوق والواجبات بين الناس دون الاعتداد بظروف كل من يشتمله قواعد القانون . أما العدالة فانها أكثر شمولا وأعظم غورا ، اذ ترتفع من العدل الظاهرى الذى يعتمد على أحكام الميزان العقلى الى النفاذ الى باطن الاشياء ، ومعنى ذلك أن العدالة لا تقف عند المقاييس والاحكام الشكلية فحسب ، وانما تتعـداها الى القصـد والنية ، وتهتم بالاخلاص والصدق والطاعة لله جميعا[٢٢] ..

---

(٢٢) د. عبد المحسن الحسينى — المعرفة عند الحكيم الترمذى ص ١٨٠ وما بعدها .

لقد كان عمر بن عبد العزيز يفهم العدل بمعنى العدالة ، فطبق هذا النوع من العدل على نفسه وعلى أهله قبل أن يطبقه على الاخرين ..

شكى[٢٣] بعض الاعراب الى عمر من أن الوليد بن عبد الملك أخذ منهم أرضا كانوا قد أجروها وأعطاها لبعض أقاربه من بنى مروان ..

فاستدعى الخليفة عمر الوليد وقال له أن الرسول — ﷺ يقول : البلاد بلاد الله والعباد عبد الله ، من أحيى أرضا ميتا فهى له .. ثم أمره بأن يرد الارض الى الاعراب ..

حضر ابن الخليفة سليمان بن عبد الملك يشكو الى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وأخرج كتابا وقرأد على عمر فقال عمر :

لمن كانت هـذه الارض ؟ ..

قال ابن سليمان : للفاسق ابن الحجاج .. فقال : فهو أولى بماله ..

فقال ابن سليمان : انها من بيت مال المسلمين ..

فقال عمر : فالمسلمون أولى بمالهم ..

قال ابن سليمان : يا أمير المؤمنين رد الى كتابى .. قال عمر أو لم تأتنى به ، فما دمتم جئتنى ، فلا ندعك تطالب بباطل ..

بكى ابن سليمان حتى رق له قلب مزاحم فقال لعمر :

« يا أمير المؤمنين ابن سليمان حبيبك القريب الى قلبك وتصنع به كل هـذا ؟

---

(٢٣) الشيخ أبى نعيم الاصبهانى — حلية الاولياء جـ٥ ص ٢٧٤ .

فقال له عمر : ويحك يا مزاحم انها نفسى أحاول أن أخالفها وانى أجد له فى قلبى من الحب ما أجده لولدى[٢٤] ..

كتب مرة الى عبد الحميد صاحب الكوفة رسالة يقول له فيها :

ان أهل الكوفة قوم أصابهم بلاء وجور فى أحكام الله ، وسنن خبيثة سنها عليهم عمال سوء ، وأن قوام الدين العدل والاحسان فلا يكونن شىء أهم إليك من نفسك أن توطنها لطاعة الله[٢٥] ..

يروى عمر بن مهاجر عن نفسه أنه قابل عمر فقال له :

اذا رأيتنى قد ملت عن الحق فامسك بتلبانى (جلبابى) وهزنى ثم قال لى : ماذا تصنع[٢٦] .

أتى عمر بن عبد العزيز رجلا فقال له :

« لقد زرعت زرعا فمر به جيش من أهل الشام فأفسده ، فعوضه عمر عن الضرر بعشرة آلاف درهم »[٢٧] .

خطب عمر فى الناس فقال :

« ألا أنكم تسمون الهارب من ظلم أمامه .. العاصى ، الا وأن أولاهما بالمعصية الامام الظالم » .

حدث عمر بعض جلسائه فقال :

---

(٢٤) الشيخ أبى نعيم الاصبهانى — حلية الاولياء جـ٥ ص ٢٧٤ .
(٢٥) المرجع السابق
(٢٦) المرجع السابق ص ٢٩٢
(٢٧) المرجع السابق ص ٣٢٥ .

من يريد صحبتى منكم فليصحبنى بخمس خصال :

١ ــ أن يدلنى الى مالا أهتدى اليه من العدل •••

٢ ــ أن يكون لى عونا على الخير •••

٣ ــ أن يبلغنى حاجة من لا يستطيع ابلاغها •••

٤ ــ ألا يغتاب عندى أحدا •••

٥ ــ أن يؤدى الامانة التى حملها منى ومن الناس •

فاذا كان كذلك فأهلا به •• والا فهو فى حرج من صحبتى أو الدخول علىّ ••

مــواعظــه :

كان عمر ناصحا صادقا النصح ، واعظا لنفســه قبل أن يكون واعظا للناس ، حتى قال عنه العنبرى :

ما شبهت عمر بن عبد العزيز الا بصانع حسن الصنعة ، ليس لديه أداة يعمل بها •• أى لا يجد من يساعده ••

ويروى توبة العنبرى هذه القصة عن عمر :

أرسلنى صالح بن عبد الرحمن الى سليمان بن عبد الملك ، فلما دخلت عليه وجدت عمر بن عبد العزيز فقلت لعمر :

« هل لك حاجة تبعث بها الى صالح » ••

فقال : قل له عليك بالذى يبقى لك عند الله ، فان ما بقى عند الله بقى عند الناس •• وما لم يبق عند الله لم يبق عند الناس[٢٨] ••

---

(٢٨) الشيخ أبى نعيم الاصبهانى ــ حلية الاولياء جـ٥ ص ٢٧٧ •

جلس رباح بن عبيدة فى مجلس عمر ، فذكر الحجاج الثقفى فسبه وشتمه فقال عمر : مهلا يا رباح أنه بلغنى أن الظالم بظلم ، ولا يزل المظلوم يشتم الظالم ويسبه حتى يستوفى حقه •• فيكون للظالم عليه الفضل •••

نصح عمر أبنه عبد العزيز فقال له[٢٩] :

« يا بنى اذا سمعت كلمة من امرىء مسلم فلا تحملها على شىء من الشر ما وجدت لها محملا من الخير » ••

قرأ رجل القرآن فى مجلس عمر •• فقال أحد الحضرين لقد لحن القرآن ، فرد عليه عمر :

أما كان فيما سمعت (من القرآن) ما يشغلك عن اللحن ؟

من أقــــواله :

١ — أحسن بصاحبك الظن ما لم يغلبك (أى يغلب ظنك الحسن وذلك بعمله السىء) •

٢ — لا خير فى خير لا يجىء الا بالسيف[٣٠] ••

٣ — سأله أحدهم كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟ فقال أصبحت بطيئا فطينا متلوثا فى الخطايا أتمنى على الله الامانى[٣١] ••

٤ — انما خلقتم للابد •• ولكنكم تنقلون من دار الى دار[٣٢] ••

---

(٢٩) الشيخ أبى نعيم الاصبهانى — حلية الاولياء ص ٢٧٨ .
(٣٠) الشيخ أبى نعيم الاصبهانى — حلية الاولياء جـ٥ ص ٢٨٠ .
(٣١) المرجع السابق ص ٢٨٧ .
(٣٢) المرجع السابق ص ٢٨٧ .

٥ ـ لا ينفع القلب الا ما خرج من القلب ••

٦ ـ حج سليمان ومعه عمر بن عبد العزيز ـ خرج سليمان الى الطائف فوجد رعدا وبرقا ففزع سليمان وقال لعمر : ألا ترى ما هذا يا أبا حفص ؟ قال عمر : هذا نزول رحمته فكيف لو كان عند نزول نقمته(٣٣) ••

٧ ـ من لم يعلم أن كلامه من عمله كثرت ذنوبه(٣٤) ••

٨ ـ قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع ••

٩ ـ سأل عمر مرة بعض جلسائه عن أحمق الناس ؟

فقالوا . الذى باع آخرته بدنياه ••

فقال عمر : ألا أنبئكم بأحمق منه ••

قلوا : بلى ••

قال :رجل باع آخرته بدنيا غيره •• (٣٥)

١٠ ـ احذر المرء فانه لا تؤمن فتنته ولا حكمته ••

١١ ـ لو أن كل الامم تخابثت يوم القيامة فأخرجت كل أمة خبيثها ثم أخرجنا الحجاج (الحجاج الثقفى) لغلبناهم ••

١٢ ـ لا تعيش بعقل رجل حتى يفسق بظنه ••

---

(٣٣) حلية الاولياء ص ٢٨٨ ج ٥ .
(٣٤) المرجع السابق ص ٢٩٥ .
(٣٥) المرجع السابق ص ٣٢٥ .

٨ — الرؤى فى حياة عمر :

جاء رجل الى عمر بن عبد العزيز وقال له : يا أمير المؤمنين رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم — فى المنام ، وبنو هاشم يشكون اليه الحاجة، فقال لهم : فأين عمر بن عبد العزيز ..

يحكى لنا صاحب الحلية أن رجلا من بنى تميم رأى فى المنام كتابا منشورا من السماء بقلم جليل ، جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من الله العزيز الحكيم » براءة لعمر بن عبد العزيز من العذاب الاليم ، انى أنا الله الغفور الرحيم (٣٦)

ويقول وهيب الورد : بينما كنت نائما خلف المقام ، اذ رأيت فيما يرى النائم كأن داخلا دخل من باب شيبه وهو يقول :

يا أيها الناس ولى عليك كتاب الله ، فقلت من ؟ فأشار الى طفرة ، فاذا هو مكتوب عليه ع.م.ر فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز (٣٧)

وعن حصاف أخى خصيف قال :

رأيت النبى — صلى الله عليه وسلم — فى المنام وعن يمينه أبو بكر وعن يساره عمر ★ وميمون بن مهران جالس أمام ذلك ، فأتيت مأمون فقلت له : من هذا ؟

قال : هذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ..

---

(٣٦) الشيخ أبى نعيم الاصبهانى — حلية الاولياء جـ٥ ص ٣٣٦ .
(٣٧) المرجع السابق ص ٣٣٧ .
★ يقصد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

وقلت ومن هذا :

فقال : أبو بكر عن يمينه هذا عمر عن يساره ..

فجا عمر بن عبد العزيز ليجلس بين النبى وبين أبى بكر فسح أبوبكر بمكانه ، ثم جاء ليجلس بين عمر وبين النبى ، فسح عمر بمكانه .. فدعاه الرسول صلى الله عليه وسلم فأجلسه فى حجره .

رأى عمر بن عبد العزيز النبى — صلى الله علبه وسلم — فى المنام فقال له الرسول — صلى الله عليه وسلم — ادن .. يـ عمر ..

فقال : فدنوت منه حتى كدت أصافحه . . فاذا كهلان قد اكتنفاه ، فقال صلى الله عليه وسلم : اذا وليت أمر أمتى ، فاعمل فى ولايتك نحو ما عملاه هذان فى ولايتهما .. قلت ومن هذان ؟... قال :

هذا أبو بكر .. وهذا عمر ..

يروى هذه القصة الليث بن سعد ، قال :

استشهد رجل من أهل الشام فكان يأتى الى أبيه فى المنام كل جمعة ، فيحدثه ويستأنس به ، فغاب جمعه عنه ثم جاءه فى الجمعة الاخرى ، فقال له :

« يا بنى لقد أحزنتنى وشق على تخلفك » ؟

فقال : انما شغلنى عنك هذه الجمعة أن الشهداء قد أمروا أن يتلقوا عمربن عبد العزيز فتلقيناه عند انتقاله[٣٨] ..

---

(٣٨) الشيخ أبى نعيم الاصبهانى — حلية الاولياء جـ٥ ص ٣٤١ .

جاء رجل من البصرة فدخل على عمر وروى له أنه رأى رسول الله ﷺ بين أبى بكر وعمر بن الخطاب ، وأبلغه أن أقرئك السلام وأن أقول لك أن اسمك عمر المهدى وأبو اليتامى ، واياك أن تحد عن طريقة هذا وطـريقة هذا فيحدبك عنى ..

يقول ابن مهاجر ، وانتبهت يوما لبكائه ونشيجه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ماذا دهاك ، قال : لقد صـدق الله رؤيا البصرى ، فقـد جاءنى الرسول — ﷺ — فى منامى وكان بين أبى بكر وعمر ، وقال لى ان اسمك عندنا عمر المهدى وأبو اليتامى ، واياك أن تحيد عن طريقة هذا وطريقة هذا فيحادبك ، ثم قال : « أنى لى بطريقة هذا وطريقة هذا » ..

علمــه وكراماته :

علمــه :

العلم علمان علم اكتسابى وعلم الهامى ، والاكتسـابى يحصل عليـه طالبه بمداومة الدرس والبحث والتحصيل ، أما الالهامى فانه يحظى به عن طريق صدقه واخلاصه وطاعته لله ، وليس معنى ذلك ترك الاكتساب للعلم، انما معناه أنه بالاضافة الى العلم الكسبى يحظى الصادق بالعلم الوهبى فضلا من الله ومنة ، اذ أنه نور يقذفه الله فى قلب العبد المؤمن فيصبح علما وعالما ومعلوما جميعا ، وهو نور من الكشف والفتح والتجلى والفيض .. هو معرفة بالله ومن الله .. ويدخل فى باب هذا العلم الرؤى والتـوسم . يقول بعض العلماء* :

★ للمزيد راجع كتابنا : الشريعة والحقيقة .

كنا نذهب الى مجلس عمر لنعلمه . فاذا بنا نتعلم منه يقول العلماء .

« العلماء كانوا عيالا فى مجلس عمر » • ويقول عنه ميمون بن مهـــران :

« كان عمر بن عبد العزيز يعلم العلماء •• سمـــع مـــريد أبى يزيد أمير المؤمنين عمر يقول :

قيدوا النعم بالشكر ، وقيدوا العلم بالكتاب ••

ليس ماينصح عمر به من ضرورة تقييد النعم بالشـــكر اجتهـــادا شخصيا فيه شائبة الظن ، انما هو ثمرة العمل والطاعة لامر الله وحكمتـــه البالغة وذلك وارد فى قوله تعالى :

« فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله »

(النحل : ١١٤)

كما ينصح عمر العلماء بأن يقيدوا العلم بالكتاب خوفا من اتباع الظن، والوقوع فى الغفلة والاغترار والجهل ، اذ الصادق يقرن علمـــه بالكتاب والعلم الحق وشرطه الايمان ، وذلك وارد فى قوله تعالى :

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا كل من عند ربنا »

(آل عمران : ٧)

لقد رفع الله عمر منازل رفيعة كثيرة لاخلاصه فى علمه وعمله لقـــوله تعالى* :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »

(المجادلة : ٧)

فتح الله على عمر فتحا ربانيا ، وألهمه بكثير من المعارف التى يعجز العالم المتكسب أن يحصل عليها فى أزمنة متطاولة •• وأفاض عليه من جوده

★ راجع للمزيد كتابنا : نحو منهج علمى اسلامى .

وسخائه ما أعجز فحول العلماء ، ومع ذلك لم يستعرض عمر علومه الوهبية الا بحكمة ، ولم يقتر بما وهبه له من فيوضات وتجليات . انما كان عبدا خاضعا لله متواضعا له ، لم تلهه الدنيا عن حقوق الله .

يقول عمر : « انى لا دع كثيرا من الكلام مخافة المباهاة » .

النفس التـــواقة :

قال عمـــر* :

ان لى نفسا تواقة ، لقد كنت فى المدينة غلاما مـــع الغلمان ، فتاقت نفسى الى العلم .. فتعلمت العربية والشعر حتى أصبت منهما حاجتى ، وما كنت أصبوا اليه ..

ثم تاقت نفسى الى السلطان فعينت واليا على المدينة ..

ثم تاقت نفسى وأنا فى السلطان الى اللبس والعيش الطيب فما علمت أن أحدا من أهل بيتى أو غيرهم كانوا فى مثل ما كنت فيه ..

ثم تاقت نفسى الى الاخرة والعمل بالعدل .. وأنا أرجـــو أن أنال ما تاقت نفسى اليه من أمر آخرتى ، فلست بالذى أهلك آخرتى بدنياى ..

قال عمر لصاحبه :

أن نفسى هذه تواقة لم تعط فى الدنيا شيئا الا تاقت الى ما هو أفضل منه .. فلما أعطيت الخلافة التى لا شىء أفضل منها تاقت الى ما هو أفضل منهـــــا ..

★ الحلية جـ٥ ص ٢٧٨ وما بعدها .

قال صاحبه : « ان الجنة أفضل من الخلافة »[٣٦] ..

كـــراماته :

ان الاولياء لا يفرحون باجابة الدعوات التى هى عين الكرامات كالمشى على المـــاء والطير فى الهواء وطى المكان . واتيين فاكهة الصف فى الشتاء وغير ذلك من خرق العادات ..

فالاولياء يعرفون أن أدعية الكفار تجاب . والارض تطوى للشياطين ، والهواء مسخر للطيور ، والماء للحوت ؛ لذلك فن أنعم عليه من الاولياء بشىء من الكرامات فلا يأمن المكر فيها ..

الكرامة اذن خرق للعادة على غير المـــألوف ، فهى تدخـــل فى باب المعجزات والا أن المعجزة عامة للنبى ، والكرامة خاصة للولى ، فالنبى مأمور بتبليغ رسالته وتعريف الناس أنه رسول من عند الله بكل الحجج والبينات ومنها المعجزات ، أما الولى فانه ينعم عليه بشىء من الكرامات لحكمة الهية أو بأمر ربانى ليثبت قدمه ، أو ليبشره برضائه عنه ، وحبه له ، أو يمتحنه ليتعرف على صدق ايمانه وورعه وتقواه ..

يقـــول القشيرى فى رسالته : للانبياء معجزات وللاولياء كـــرامات وللاعداء مخادعات .. والكرامات لا تزيد الولى الا تأدبا وتضرعا وتذللا وخشية واستكانة ، بل وازدراء لانفسهم.. والكرامة للاولياء نعمة تزيد من شكرهم لربهم وقوة فى المجاهدة تقربهم من مولاهم[٤٠] ..

---

(٣٩) الشيخ ابى نعيم الاصبهانى — حلية الاولياء جـ٥ ص ٢٣١ .
(٤٠) جمال الدين الاتابكى — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

ولقد كانت لعمر بن عبد العزيز كرامات عديدة كسلفه الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب الذى اقتدى بسيرته وعدله وحكمه وليس أدل على ذلك قول عبد الحافظأبو عبد الله الذهبى نقلا عن يوسف بن ماهك :

« بينما كنا نسوى التراب على قبر عمر بن عبد العزيز •• اذ سقط علينا كتاب رق من السماء »

بسم الله الرحمن الرحيم

« أمن من الله لعمر بن عبد العزيز من النار »[٤١]

رفع رأسه فى مرضه الذى مات فيه وأحد النظر •

فقالوا له : انك تنظر نظرا شديدا ••

فقال : انى لارى حضرة ما هم بأنس ولا جن •• ثم قبض •

١٠ — خلافته :

الابتلاء من الله اما أن يكون بالنعمة أو النقمة[٤٢] ، وهو امتحان يجريه الله على عبده! يتعرف على مدى صدقهم واخلاصهم له ، وذلك وارد فى قوله تعالى :

« وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم »

(آل عمران : ١٥٤)

---

(٤١) الشيخ أبى نعيم الاصبهانى — حلية الاولياء جـ٥ ص ٣٣٥ .
(٤٢) الامام عبد القادر الجيلانى — الفتح الربانى والفيض الرحمانى ص ١٧٩ .

وقوله تعالى فى الابتلاء بالنعمة :

« فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن »

(الفجر : ١٥، ١٦)

لم يكن عمر يريد خلافة المسلمين ، وانما استكره بحيلة فقبلها . وقد اعتبر ذلك ابتلاء من الله ، ولقد صبر عمر على هذا الابتلاء بالخلافة ورضى بما قسم الله له به ، فأنعم الله عليه ووصل الى منتهى غاية السالكين[٤٣] ..

وقد كتب عندما ولى الخلافة الى سالم بن عبد الله عمر بن الخطاب يقول فيها :

« سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد ، فان الله قد ابتلانى بما ابتلانى به من أمر هذه الامة من غير مشورة منى فيها ولا طلب منى لها .. (انما) هى قضاء الرحمن وقدره .. فانى أسأل الله الذى ابتلانى من أمر هذه الامة بما ابتلانى أن يعيننى على م ولانى ، وأن يرزقنى منهم السمع والطاعة وحسن المؤازرة .. وأن يرزقهم منى الرأفة والعدل » ..

ولقد اتبع عمر بن عبد العزيز أثر عمر بن الخطاب ، وعمل على السير فى معاملة الرعية متقديا فى عدله وزهده بعمر بن الخطاب ، وعندما نفــذ الرسالة المشارة اليها ، طلب فى خاتمتها من سالم بن عبد الله بن عمــر بن الخطاب يقول :

---

(٤٣) لمزيد من الاطلاع عن موضـوع الابتلاء يرجع الى كتاب الفاظ الصوفية ومعانيها ــ للمؤلف .

فاذا آتاك كتابى هذا فابعث الى بكتب عمـر بن الخطاب وسـيرته وقضاياه فى أهل القبلة وأهل العهد فانى متبع أثره وسيرته ان آعاننى الله على ذلك* ..

ويرد سالم عليه بعد أن وعظه ونصحه باتباع الدين القيم والعمـل بسنة الرسول ﷺ فيقول له :

كتبت الى تسأل أن أبعث اليك بكتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضائه فى المسلمين وأهل العهد ، ان عمر عمل فى غير زمانك ، وانى أرجو ان عملت بمثل ما عمل عمر آن تكون عند الله أفضل من منزلة عمر ..

لمـا مات سليمان بن عبد الملك ورجع عمر من جنازته مغتما فسأله أحدهم مالى آراك مغتما ؟ قال عمر : بمثل ما أنا فيه يغتم الانسان .. فليس من أمة محمد — ﷺ — أحد فى شرق الارض وغربها الا وأنا أريد أن أؤدى اليه حقه دون أن يكتب الى فيه أو يطالب به ..

يقول صاحب النجوم الزاهرة :(٤٤)

لمـا تولى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخلافة عين أيوب على مصر ، فازداد فى عطايا الناس ، وعطل حانات الخمر وكسرت بأمـر من الخليفة عمر ، وعين المسلمين فى الفتيا والقضاء ، وأقصى غيرهم ، وحسنت أحوال الديار المصرية وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ...

---

(٤٤) جمال الدين الاتابكى — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ١ ص ٢٣٨ .

★ حلية الاولياء جـ٥ (عمر بن عبد العزيز) .

ومن عدل عمر ورحمته بالرعية وتخفيفه عن الناس الاعباء أنه كتب الى أيوب والى مصر ليخفف فى تحصيل المكوس فيقول له :

« خذ من المسلمين من كل أربعين دينارا ومن أهــل الكتاب من كلّ عشرين دينارا ، اذا قبلوها وذلك فى كل عام »(٤٥) ..

يروى لنا رباح بن عبده وكان تاجرا أن عمر بن عبد العزيز طلب منه ثوبين من الخز أحدهما للنوم والاخر للخروج ، فلما صنعهما وسلمهما الى عمر ثم قابله فى الصباح ، فقال له عمر :

ما أجود ثوبيك لولا خشونة فيهما ..

ولمــا تولى عمر الخلافة طلب اليه أن يصــنع له ثوبين خشنين ، ثم قابله بعد ذلك ، فقال له عمر :

« يا رباح ما أجود ثوبيك لولا لين فيهما » ..

فذكر له رباح قوله الاول وقوله الثانى ...

---

(٤٥) الشيخ ابى نعيم الاصبهانى — حلية الاولياء جـ٥ ص ٣٢٥ .

الباب الثالث

الفصل الاول

١ ـ أحاديث عن الزهد

يبين الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز أن الدنيا كلها سريعة الزوال، قليلة النفع وعلى الانسان ألا تلهيه دنياه عن آخرته ، فيجعل جل همه اقتناء القصور والرياش الفاخر والمراكب البهية ، والتفاخر بالانساب والاولاد والمراكز الاجتماعية والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة .. والايات القرآنية شاهدة على صدق ما نقول :

« اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الاخرة عذاب شديد »(٤٦) .

لقد جاء أبو عبيدة بن الجراح بمال من البحرين فقصده المسلمون فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال :

« أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم شىء من البحرين ، فقالوا : أجل يا رسول الله . فقال أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما أخشى عليكم من الفقر ولكنى أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم »(٤٧) .

---

(٤٦) الحديد : ٢٠ .
(٤٧) ذكره ابن المبارك فى كتاب الزهد .

يخشى الرسول على المسلمين من التكالب على الدنيا وفتنة الأموال عندما تكون غاية فى حد ذاتها ، لان هذا التكالب يجر المسلمين الى التنافس الذى يؤدى الى فساد الدين ، وبذلك يتحارب المسلم مع المسلم من أجل تحقيق اللذات والشهوات والرغبات الذاتية ، واشباع النهم فى الحصول على الذهب والفضة ، فيضيع دنياه وآخرته ، كما يحدث فى عصرنا الذى نعيشه الان .

لذلك يركز الرسول ﷺ على وعظ المسلمين وتخويفهم من التكالب على الدنيا وزينتها : فقد قام مرة على المنبر وقال لمن حوله :

« أما ما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »(٤٨) .

لقد كان الرسول ﷺ يخاف على المسلمين من فتنة الحياة الدنيا القصيرة المدى التى يمكن أن تنحرف بالمؤمن فتسقط به الى هاوية الضلال والفساد والافساد فى الارض خاصة عندما يروق منظرها ، ويحلو مذاقها ، وتشرق على النفس بهجتها ، لذلك كان يؤكد الرسول على عيش الأخرة فيقول :

« اللهم لا عيش الا عيش الاخرة »(٤٩) .

واذا انشغل الانسان بزخارف الدنيا وحظوظها وزينتها خرج منها بخفى حنين وكأنه لم يعش أبدا ، فالانسان عندما يتوفاه الموت يتبعه الى القبر ثلاث : أهله وماله وعمله .

---

(٤٨) ذكره ابن المبارك فى كتاب الزهد .
(٤٩) السيوطى ــ الجامع الصغير .

أما أهله فيرجعون بعد مواراته فى لحده . وأما ماله فيحجب عنه بعد انتقاله ، وما يتبقى معه فى قبره الا عمله ، فعمل الانسان يرتبط اذن بحياته فى الدنيا والاخــرة .

ويبين لنا الرسول ﷺ فى أحاديثه العديدة كراهية جمع المــال ، الا أن يكون وسيلة للانفاق كما أمر الله فى سبيل الله ، أما أن يجمع المــال ليكون غاية فى حد ذاته ، فان ذلك مما يسبب للانسان التعاسة فى الدنيا والعذاب فى الاخرة ، لانه عابد للمال ، والعابد للمال تعس نسقى كما ورد فى الحديث النبوى :

« تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخمصة ، ان أعطى رضى ، وان لم يعط لم يرضى »(٥٠) .

ان الاحاديث النبوية تحذر من فتنة الدنيا والوقوع فى براثن الغواية والاهواء ، فما الدنيا الا لحظات قصيرة فى عمر الزمن ، ما تفتأ أن تمضى لينتقل الانسان الى الحياة الاخرة السرمدية الخالدة ، فالدنيــا مــزرعة الاخرة ، كما يقول نوح عليه السلام الذى عاش ألف سنة الا خمسين :

« ما وجدت الدنيا الا دارا ذات بابين ، دخلت من باب وخرجت من آخـــــر » .

وقول الرسول ﷺ :

« لوكانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعــوضة ما ســقى كافر منها شربة ماء »(٥١) .

---

(٥٠) رواه البخارى .

(٥٢) رواه الترمذى .

لكن اصحاب الشهوات يرون فى الدنيا النعيم القائم ، ويتهمون أهل الله بأنهم متعصبون ومتزمتون . عندما يمنعون أنفسهم عن الشهوات الدنيا المحرمة ويكابدون ويجاهدون من أجل القربة من الله ، وذلك بطريق المجاهدات والعبادات .

لذلك فان المؤمن ، يرى الدنيا سجنا صغيرا ، لا يخرج منه الا بعد أن ينتقل الى الحياة الاخرة ، لانه يجاهد نفسه التى ترغب فى الانطلاق والتحرر فى اقتراف الشهوات واشباع اللذات والنزوع الى موافقة الاهواء فهو حابس لنفسه عن مطالبها وحظوظها ، يؤكد هذه النظرة قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »(٥٢) .

والمؤمنون يشعرون حقيقة بالغربة فى هذه الدنيا ، وانهم عابرى سبيل ما يلبثوا أن يحطوا الرحال ، فى عالم الاخرة الدائم ، وفى ذلك يقول الرسول :

« كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »(٥٣) .

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم اذا دخل عليهم المساء فلا ينتظرون الصباح ، واذا أصبحوا فلا ينتظرون المساء ، ولم يكن أحد منهم يركن الى الدنيا ولا يتخذها وطنا ولا تحدثه نفسه بطول البقاء فيها ، ولا الاهتمام

---

(٥٢) رواه مسلم .
(٥٣) رواه عمر رضى الله عنه .

بها ، ولا يتعلق قلبه بها ، كما يتعلق الغريب بغير وطنه . ولا يشغل نفسه بالدنيا الا بما يشتغل الغريب الذى يود الرجوع الى أهله ووطنه .

كان الصحابة رضوان الله عليهم أزهد الناس فى الدنيا كما علمهم رسول الله ﷺ أن تكون فى أيديهم وليس فى قلوبهم ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« أزهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الله »(٥٤) .

وعندما وجد الفاروق رضى الله عنه ما أصاب الناس من المال والجاه والرياش بعد أن فتح الله على المسلمين قال رضى الله عنه :

« لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل (التمر الردىء) ما يملأ به بطنه »(٥٥) .

لقد عرض على الرسول ﷺ الملك والمال فأبى وقال قولته المشهورة ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر عن يسارى حتى أترك هذا الامر أو أهلك دونه ما تركته »(٥٦) .

ولقد توفى رسول الله ﷺ بعدما أدى الرسالة وحمل الامانة ونصح الامة ، كما تقول عائشة :

« توفى رسول الله ﷺ وما فى بيته من شىء يأكله ذو كبد (أى حيوان) الا شطر شعير فى رف لى فأكلت منه حتى طال على فأكلته ففنى » .

---

(٥٤) رواه ابن ماجة .
(٥٥) رواه مسلم .
(٥٦) رواه البخارى .

وتذكر أم المؤمنين جورية بنت الحارث زوج الرسول رضى الله عنها عن الرسول :

« ما ترك رسول الله ﷺ عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا الا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة »(٥٧) .

ويدعو الرسول ﷺ المسلمين الى التزهد فى الدنيا فيقول :

« ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال : بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف (اناء) الخبز والماء »(٥٨) .

ويحث الرسول ﷺ على البعد عن فتنة الدنيا ، وفتنة الدنيا التى يقصدها الرسول ﷺ هى المال فيقول :

« ان لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتى المال »(٥٩) .

ولقد جاء الصحابى عبد الله بن الشخير الى مجلس الرسول ﷺ فوجده يقرأ :

« الهاكم التكاثر ... » ، ثم سمع الرسول ﷺ يقول تعقيبا على الاية الكريمة : يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك يابن آدم من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت »(٦٠) .

---

(٥٧) رواه البخارى .
(٥٨) رواه الترمذى .
(٥٩) رواه الترمذى .
(٦٠) رواه مسلم .

وكأن الرسول يرد على عبد الدرهم فيقول له هل ينفعك من طعامك الا ما أكلته فيغذى جسمك ، واستقام به أمرد ، وهل ينفعك ثيابك أو ازارك الا ما كان جديدا فغطيت به بدنك حتى أبليته ، وما كان معك من مال فصرفته، أما بعد رحيلك عن الدنيا فلن ينفعك غذاء ولا كساء ولا مال فى قليل أو كثير .

نام الرسول ﷺ مرة على حصير فقام من نومه وقد أثر الحصير على جنبه الشريف فقال له بعض صحابته لو أذنت لنا لاتخذنا لك فراء يقيك ويستريح عليه بدنك ، فقال ﷺ :

« ما أنا فى الدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها »(٦١)

وهكذا نجد فى زهد الرسول ﷺ فى الدنيا النبراس الذى يجب أن يقتدى به المسلم فى حياته فكرا وسلوكا وتطبيقا .

٢ — فى العزلة

ربما يطرح هذا السؤال كثيرا ، وهو هل يستحب فى الاسلام العزلة ؟

وربما تكون الاجابات فيما يتعلق بهذا الموضوع بين كراهية العزلة والحض على الاختلاط وبين اعتزال الناس فى بعض الازمان والعصور .

وربما تكون الاحاديث التى وردت عن الرسول ﷺ وبعض الصحابة رضوان الله عليهم انما كانت فى مواقف محددة ومعينة ، أو اجابات عن تساؤلا بعض الصحابة أو التابعين .

---

(٦١) رواه الترمذى .

يقول أبو الدرداء :

« نعم صومعة المرء المسلم بيته . يحفظ عليه نفسه وسمعه وبصره ..
واياكم ومجلس السـوء »(٦٢) ...

وواضح من ترغيب أبى الدرداء فى أن يجلس الانسان فى بيته مع أولاده وأسرته . وأن يبتعد عن المجالس التى تسمى فى عصرنا الحاضر المقاهى والملاهى ولا شك أن جلوس الانسان فى بيته أفضل كثير من مجالسة أهل السوء لانه بالقطع يداخله الغيبه والنميمة وربما الوقوع فى مهاوى الضلال .

ويحض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على العزله ليختلى الانسان بربه وينشغل بحق الله عليه فيقول* :

« خـذوا بحظكم من العـزلة » ...

وفى تصورنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يحض الناس على العزلة بمعنى التبطل عن العمل والسلبيه فى السعى على الرزق ، انه يقصد عمر رضى الله عنه أن يعتزل الانسان أهل السوء وأن يأخد بحظه فى التفكر فى الله سبحانه وتعالى فان ذلك أفضل كثير من مجالس السوء .

ولقد كان صحابه رسول الله ﷺ يجاهدون بأنفسهم وأموالهم ، ولم يكن ذلك تفاخرا انما طاعه وقنوت لله سبحانه وتعالى ، والدليـل على ذلك قول حذيفة بن اليمان :

---

(٦٢) رواه أبو الدرداء .

★ ابن المبارك — كتاب الزهد — العزله .

« وددت والله أن لى من يصل لى مالى » (يستثمر لى مالى) ثم أغلقت على بابى فلم يدخل على بشر ، ولم أخرج الى الناس حتى ألحق بالله .

لقد فهم حذيفة بن اليمان حقيقة الدنيا وأنها دار ابتــلاء ومــكابدة وعناء وأن العيش هو عيش الاخرة ، فلو لم يأمره الله بالســعى من أجــل الرزق والخروج من بيته ليسعى فى الارض متاجرا .. ولو وجد الامين يستثمر عنده ماله لجلس فى بيته عبدا متعبدا يعتزل الناس حتى يلقى الله .

ويشرح لنا ربيع بن خيثم وهو من أهل الصــفة لمــاذا لا يجلس فى المجالس ولا يظهر فى الطريق العام فيقول[٦٣] :

« أخاف أن يظلم رجل أمامى فلا أنصره » ..

« وأخاف أن يفترى رجل على آخر وأكلف بالشهادة » ..

« أو يسلم على رجل فلا أرد الســلام » ..

« أو يقع عن حاملة حملها ولا أعاونها » ..

ولذلك كان ربيع بن خيثم يلزم بيته دائما ، ويقول ابن المبارك[٦٤] :

« انه لم ير ربيع بن خيثم فى مجلس قط ، ولم ير أنه تكلم منذ عشرين سنة بكلمة الا تصعد .. وكأنه يقصد قول عز من قائل : « اليــه يصــعد الكلم الطيب » ..

---

(٦٣) ذكره ابن سعد عن وكيع وذكره ابن المبارك فى كتاب الزهد .

(٦٤) ابن المبارك ــ الزهد (فى العزلة) .

وربما يكون المقصود انه لم يتكلم الا بخير أو بحق أو فى ذكر الله ، أى أنه لم يتكلم بكلمة تعاب عليه . ويذكر عنه قوله :

« ذكر الله خير لكم من ذكر الرجال » ..

ويقول عمرو بن قره حدثنى رجل عن ربيع بن خيثم فقال :

ما سمعنا منه كلمة نرى فيها أنه عصى الله منذ عشرين سنة ...

ويبين لنا صاحب كتاب الزهد ، أن بعـض أصـحابه أخبروه لينعى الحسين بن على رضى الله عنهما وقالوا :(٦٥)

« عندما ينعى الحسين سيتكلم ربيع بن خيثم » ..

فقال ربيع بن هيثم :

قتلوه ... اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .

لقد كان كثير من الصحابة يفضلون العزلة على الاختـلاط ، وكذلك بعض التابعين منهم الجهم بن الحارث فلقد كان لا يجالس الناس واذا قيل له : لمـاذا لا تجالس الناس يا أبا الجهم ؟

قال : الناس شر من الوحـدة .

ويروى عن أبى هريرة أنه لمـا أراد معاوية بن أبى سفيان وكان وقتها أمير المؤمنين يريد الحج استقبله لفيف من رجال أهل المدينة وقيل لابى هـريرة :

---

(٦٥) الزهد — ابن المبارك .

ألا تركب فتستقبل أمير المؤمنين معاوية ..؟

فقال أبو هــريرة :

انى أكره أن أركب مركبا لا أكون فيه ضامنا على الله (أى لا أكون فيه ساعيا فى سبيل الله) (٦٦) .

يقــول الحسن البصرى :

ما كنت تلقى المسلمين الا فى مساجــدهم أو فى صــوامعهم — أى بيوتهم — خلا من الدنيا .. (أى تخلو عن حظوظها) .

ولقد سئل أبو الدرداء عن سبب اعتزاله الناس فقال :

انى أخشى أن أسلب دينى ولا أشعر (٦٧) .

وهكذا نجد أن بعض الصحابة لا يحضون على العزلة الا اذا كانت فى سبيل اتقاء مجالس السوء وأشرار الناس والبعــد عن اللهــو والفســق والمجون ، أما الخروج الى الناس من أجل اعلاء كلمة الله والسعى من أجل الرزق فذلك مما يحض عليه الاسلام .

٣ — أصل معنى المجاهــدة

يجمع أئمة الصوفية على أنه لا يفتح على المريد فى الطريق بشىء من ثمرات التصوف ، أو يكشف عن شىء منها بغير لزوم المجاهدة (٦٨) .

---

(٦٦) المرجــع الســابق .
(٦٧) الزهد ابن المبارك .
(٦٨) الغنية — عبد القادر الجيلانى ، جـ٢ ص ١٨٢ .

ولقد التمس الصوفية معنى المجاهدة من آيات الله البينات ومن السنة الشريفة ، ومن الايات التى تحض على المجاهدة فى سبيل الله مثل قول عز من قائـــل :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »(٦٩) .

« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »(٧٠) (الموت) .

والمجاهدة عند الصوفية جهاد للنفس أولا ، لان النفس لا تصـــدق لذلك تحتاج الى مخالفتها وترويضها وتأديبهـــا ورياضـــتها ومـــراقبتها ومحاسبته وتربيتها ، فاذا لم يتم ذلك كان من الصعب قيادتها الى أعمال الخير وأفعال البر والطاعات ... لذلك اعتبر جهاد النفس عندهم هـــو الجهاد الاكبر ثم جهاد الاعداء هو الجهاد الاصغر ، اذ أن النفس ربمـــا ترى فى الجهاد بالسيف عملا أيسر وأحب لها من كثرة العبادات وقيـــام الليل وأداء التكاليف والفرائض* ...

ذلك لانه ربما تجد فى الجهاد بالسيف هـــروبا من هـــذه المكابدات والمعاناة التى غالبا ما تشق على النفس ... فضلا عن أن الجهاد بالسيف يحقق للنفس نوعا من الرضا ويجلب الثناء والمديح .. أما فى جهاد النفس فانه قلما تمتدح فى أفعالها ، ولكن ينظر اليهـــا دوما بعين التقصـــير فى الطاعات والعبادات .. ومن هنا كان جهاد النفس أشق على الانسان من جهـــاد السيف ..

---

(٦٩) العنكبوت : ٢

(٧٠) الحجر : ٩٩ .

★ للمزيد راجع كتابنا ـــ الشريعة والحقيقة .

والمجاهدة(71) أنواع ، لكنها كلها تستهدف جميعها القربة من الله تعالى ، فالصلاة مجاهدة وكثرة السجود مجاهدة والانفــاق للمال فى ســبيل الله مجاهدة ، والتزهد فى الدنيا مجاهدة ، والزكاة مجاهدة والحج مجاهدة •• ومخالفة حظوظ النفس أعظم مجاهــدة ••

ويرسم لنا ابراهيم بن أدهم طريق المجاهدة فيقول :

« لن ينال العبد درجة الصالحين حتى يجتاز عقبات ست »(72) •

١ ــ يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة (أى بالتزهد فى المــال) •

٢ ــ يغلق باب العز ويفتح باب الذل (أى بالتزهد فى السلطان) •

٣ ــ يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد (أى بكثرة العبادة من سجود وركــوع) •

٤ ــ يغلق باب النوم ويفتح باب السهر (أى قيام الليل) •

٥ ــ يغلق باب الغنى ويفتح باب (الفقر لله والحاجة له تعالى) •

يغلق باب الامل ويفتح باب الاستعداد للموت (أى الخمول فى طلب حظوظ الدنيا) •

لقد وردت الاحاديث النبوية لتؤكد على المجاهدة كطريق للوصــول الى القربة من الله •

---

(٧١) راجع الفاظ الصوفية ومعانيها ــ للمؤلف (المجاهدة) •
(٧٢) الغنية ، جـ٢ ص ١٨٢ •
(٧٣) رياض الصــالحين ص ٦٩ •

يقول ابن كعب الاسلى خادم الرسول ﷺ : كنت أبيت عند الرسول صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه ، فقال لى : سلنى (أى اسأل عن حاجتك) •

فقلت : مرافقتك فى الجنـــة •

فقال ﷺ : أعينى على نفسك بكثرة السجود(٧٤) (أى ساعدنى) •

وأما عن الجهاد بالسيف ، فيحكى لنا أنس عن عمه أنس بن النضر وكان قد تخلف فى غزوة بدر ، فذهب الى الرسول ﷺ وقال :

يا رسول الله غبت أول قتال••لئن يريننى الله قتال المشركين ، ليرينى الله ماذا أفعل •••

وفى غزوة أحد تقدم الى القتال وقال لسعد بن معاذ :

والله انى لارى ريح الجنة •• واستشهد فى أحد ووجد فى جسمه بضع وثمانين ضربة سيف أو طعنة رمح ، حتى أنه لم تعرفه غير أخته،فقد عرفته عن طريق بنـــانه ••

ويعلق أنس على هذه الواقعة فيقـــول :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه »(٧٥) • نزلت فى حقه ولا يسأم الصوفية عن الحديث عن المجاهدة ، وجعلها أساسية فى السلوك الصـــوفى ••

---

(٧٤) رواه مســـلم •
(٧٥) الاحزاب : ٢٣ •

فهناك المجاهد بعلمه وماله ونفسه . والقانت لله والعامل لله والذى يخدم غير الله ••• والمتزهد لله والساجد لله ، وكل هذه المجاهدات كما سبق الاشارة مما يحض عليها دين الله وسنة نبيه محمد ﷺ[٧٦] •

جهـــاد النفس :

يعالج الامام الترمذى سمات النفس الانسانية من ناحية صلتها بما يحيط بها ، فلقد خلق الله الاشياء مسخرة لخدمة النفس الانسانية بحيث تجـد فيها ما تحتاج اليه وما يرجع نفعه اليها •

ولقد جعل الله الانســـان خادما لله من خـــلال استخـدامه للاشياء والمسخرة له ولذلك خلق الله تعالى الانسان وفى تركيبه البــدنى أعضــاء وجوارح لهـــا صفات وخواص محددة ثم أن الله تعالى خلق تركيب النفس مختلفا تماما عن تركيبه العضوى الا أنه تعالى ربط بين التركيبين بحيث أنه لا يمكن أن يطلق على الانسان انسانا الا من خلال تركيبه العضــوى والنفسى جميعا ، اذ الانسان فى نظر الحكيم الترمذى وحدة نفسية متكاملة ولا يمكن الفصل فى نظره بين ما هو عضوى وما هو نفسى كما يفعل ذلك كثير من الفلاسفة الاقدمين وعلماء النفس المحدثين[٧٧] •

فالقلب الانسانى عبارة عن جسم صنوبرى لحمى من ناحية ، ومن ناحية أخرى هو اللطيفة الروحانية وهـــو الامين على ســـائر الاعضـــاء والجوارح بما وضع الله فيه من العلم والمعرفة ، فالقلب اسم جامع ولقد

(٧٦) الغنية ، جـ٢ ص ١٨٢ وما بعدها .
(٧٧) المسائل المكنونة : ص ٣٧ .

وضع الله القلب فى الصدر وسماه قلبا وفؤادا . فأما باطنه فهـو القلب ، وأما ظاهره فهو الجوارح وجعل للقلب بابا متصلا بالصدر وللفؤاد عينين وأذنين ، كما أن الله جعل القلب معدن نور الايمان والخشوع والتقـوى والمحبة والرضى واليقين والخوف والرجاء وأصول العلم .

أما الفؤاد فهو موضع الرؤيا والمجاهدة(٧٨) .

فاذا أحيى الله القلب بنور التوحيد ، أشرق الى الصدر ، وفتح عينى الفؤاد فأبصرتا نور الحياة التى فيها نور التوحيد ووجد القلب حلاوة حب الله ورأى بزينة العقل الذى زينه به الله والذى يميز به ما هو حسن وما هو قبيح كما يميز العقل هذه العلوم التى تصبح معرفة تتشعب الى شـعب ومعـارف* .

ويؤيد الامام الترمذى ما يعنيه بالقلب فيما أورده عن الله عز وجل :

« ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان »(٧٩) ..

ويرى الامام الترمذى أن صدر الانسان ليس خالصا بسلطان القلب بل هو ساحة مفتوحة ، فللنفس فى الصـدر باب وسـكنها فى الرئة ومنها تتنفس بحياتها كما أن النفس منفس لجميع البدن وبين القلب والرئة وعاء دقيق يحمل ريحا خفاقا ، تجرى فى العروق مجرى الدم .

---

(٧٨) للمزيد : راجع كتاب الشريعة والحقيقة — للمؤلف .

(٧٩) الحجرات : ٧ .

★ راجع للمزيد : عبد المحسن الحسيفى — المعرفة عند الحكيم الترمذى

ويصف الامام الترمذى هذه الريح ، فيقـــول أنها من باب النار فهى مخلوقة من نار جهنم وان لم يكن تسود كما تسود نار جهنم من ســـلطان غضب الله* .

وتلك الريح التى تجرى فى عروق الانسان حافلة بالافراح والزينات الا اذا عرضها عارض كالهوى والغضب اهتاجت النفس فتنتشر الريـــح الحارة لتملأ عـــروق الانسان وتتمكن الشهوة سواء شهوة اللذة أو شهوة الغضب فتصير كالريح أو الساتر الذى يحول بين النظر الى النور وينطفىء شعاع العقل ، فاذا حدث ذلك للكافر هدى به الى ظلمة الكفر واذا حدث ذلك للمؤمن كانت غفلة والشيطان يغوى الانسان ويزين له الشهوات ويمنى النفس حتى تستحكم لسلطان الهوى .

واذا استبد الهوى بالانسان دفعـــه الى الاستبداد والى الدعاوى الكاذبة مثل ادعاء الربوبية حتى يتمكن من تنفيذ شهواته دون خـــوف أو رهبة كما أدعى فرعون الربوبية حتى يحقق لنفسه سلطانا وعزا ولذات .

والمؤمن لا تدعى نفسه الربوبية أبدا اذ أنها متوجهة بحب الله متعلقة به أبدا ، اذ المؤمن يفرح بربه كما يفرح الرب بعبـــده والكافر يفـــرح بشهوات الدنيا دون أن ينظر الى الله والى فضله ولذلك تسقط منزلته عند الله ، اذ هذا الفرح فى الدنيا تحف به النار من كل جانب وتزينه الشهوات، كما ورد فى كراهية هذا النوع من الفرح قول عز من قائل :

« لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين »   (القصص : ٧٦)

---

* راجع المعرفة عند الحكيم الترمزى .

أما الفرح المحمود الذى يثيب الله المؤمن عليه ذلك الفرح برحمة الله وفضله كما ورد عن الله تعالى :

« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا »   (يونس : ٥٨)

والشهوة فى نظر الامام الترمذى ليست مذمومة ولا محمودة لانها وضعها الله لتكون لذة وابتلاء ، فاذا اشتهى الجسد وهاجت النفس فلا يلام الانسان على ذلك انما يلام الانسان أو يحمد بحسب كيفية استعماله لهذه الشهوة وهل استخدامها فى الحلال أو الحرام فالشهوة مقرونة بالفعل .

ويرى الامام الترمذى أن القلب هو أمير الجوارح كلها تابعة له لا تعمل الا بأمره فاذا حرك الانسان جارحة انما يحركها بحركة قلبه .

وتنازع النفس القلب فى انذاره[٨٠] للسيطرة على الجوارح وتشاركه فى أمرها ، فاذا عرض للانسان عارض من شهوات الدنيا كان لكل من النفس والقلب موقفا خاصا ازاء ذلك العارض أو الخاطر ، فالنفس تثور مع ما فيها من الهوى ، والقلب ينظر الى ما أوردت النفس ليرى ماذا يزين للعقل ويدبر الفؤاد ، فاذا أقدمت النفس على محذور ، استخدم القلب العقل والعلم جميعا ، واذا كانت النفس تدعو الى معصية سار القلب وسار معه سلطان المعرفة وسلطان العقل حتى يزجر النفس ويضربها بسيف المخالفة ، ويرفض ما عزمت الاقدام عليه . أما اذا غلبت سلطان الشهوة وسيطرت حلاوتها ولذتها على القلب صار دخانها فى الصدر حتى تبلغ من الفؤاد ونور العقل

---

(٨٠) الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية : دكتور عبد الفتاح بركة : جـ٢ ص ٩٤ .

فتحيل الصدر الى ظلم واقترفت النفس الذنوب وهى فرحة بتلك الشهوة ويمضى الهوى فيبذر بذور السيئات حتى تظهر المعاصى على الجوارح وفى هذا الوقت تشرق أفراح القلب ويزول الغم والحزن ويتقرب من الله .

ومعنى ذلك أن الامام الترمذى يرى أن أفراح القلب وزينته غير أفراح النفس وزينتها اذ أن أفراح القلب مقرونة بحب الله ، وأما أفراح النفس فانها مقرونة بالهوى ، والهوى باب من أبواب النار والانسان فيه الناحيتين ، فمنذ ولادة الانسان وهو قد تغذى بالشهوات ووجد فيها لذته وفرحة ، وعندما يشب عن الطوق ويبلغ الرشد ، فانه يفرق بين الحلال والحرام ويوفى بحق اسلامه من أمر ونهى ، فيكون له قلب تنازعه النفس حتى توقعه فى المعصية . والقلب كاره للفسوق والعصيان ، لكن الشهوة تغلبه وتقهره والعقل يغيب وابليس اللعين يزين له ويغويه(٨١) .

ولما كان الانسان على هذا الوصف وتلك الصفات فانه يحتاج الى المجاهدة التى أمر الله بها :

« وجاهدوا فى الله حق جهاده » (الحج : ٧٨)

ولقد وسع الله على عباده حتى لا يضيق عليهم بما يعلم فى جبلة الانسان من ضعف وجهل وشهوات . وقد أطلق لهم بعض الشهوات ومنعهم من البعض الاخر وحدد ووضع لهم الوسائل المشروعة وبين لهم الطريق

---

(٨١) الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية : دكتور عبد الفتاح بركة : جـ ٢ ص ٩٤ وما بعدها .

فاذا وقع الانسان بعد ذلك فى المعصية فلا عذر له . واذا أطاع نفسه واستبدت به الشهوات المحرمة وجب عليه العقاب والقصاص .

أمر الله الانسان بمجاهدة نفسه ، اذا عرض لها عارض الشهوة ، اذ عليه أن يسكن غليانها ، ويتخلص من المعصية التى هى فى باله فيحفظ جوارحه السبع ، لانها أمانة عنده . فاذا استعمل الانسان الشهوة بما يرضى الله أثابه الله على ذلك . أما اذا تعدى المحذور من الشهوات صار ظالما لنفسه عاصيا لربه .

ويخلص الامام الترمذى الى أن مجاهدة النفس هى بالجملة منعها مما حرم الله عليها ومراقبتها بحيث لا يؤذن لها الا بما هو حلال ، والا فان الانسان اذا أذنب واتبع خطوات الشيطان وانحرف عن نور التوحيد بما فيه من حلاوة وأفراح وصار ملوما مخزولا ، لكن هذا الموقف الذى أورده الامام الترمذى هو موقف صعب فالانسان لا يأمن من الغفلة والنسيان وعدو الله واقف بالمرصاد يسلك مسالك الهوى الى العبد ويزين به نفسه فاذا اشتهت النفس شيئا مكر الشيطان بها ، لان فى هذه الشهوات ما هو مباح للانسان وما هو محذور عليه ، فاذا استمرأت النفس حلاوة الحلال واستمكنت منها أصبح من السهل استجرارها الى حلاوة الحرام ، وما نهى الله عنه ولم يستطع القلب لضعفه أن يقيد النفس من اتيان الحرام ، والمؤمن يثوب ويعصى ، فاذا تاب رجع بين يدى الله وذلك بالاستغفار والتوبة ، والعبد يبذل الجهد فى السعى ، الا أن شهوات نفسه قائمة بين يديه ، لا يستطيع أن يمنعه الا بجهد ومشقة ولا يأمن أن يغفل ويضل(٨٢) .

---

(٨٢) المرجع السابق .

وهكذا يصف لنا الامام الترمذى حال النفس فى جهـادها كأنه فى موقعة حربية يحارب بسيف قلبه نفسه التى يغلبها أحيانا وتغلبه أحيانا ، ويرى الامام الترمذى أن الخلاص انما هو نزوع العبد الى مجاهدة النفس ورياضتها ومراقبتها ومحاسبتها ومخالفتها،وبذلك يستطيع فى حال الجهاد أن يروض نفسه ويؤديها وأن يمنعها من الحرام وما نهى عنه الله ، وعليه أن يلزم كل جارحة من جوارحه السبع ويتابعهـا ويخالفها حتى تستسلم له ويستريح من سيطرتها وتحكمها ، فاذا اتجه اليها اتجه بحق واذا انصرف عنها انصرف بحـق •

ويضرب لنا الحكيم الترمذى مثلا فى جهاد النفس ، فيرى أن النفس قد اعتادت على لذة الكلام ، فاذا ألزمها الانسان الصـبر فيما لا يعنيها اعتادت على السكوت عن الكلام ، فاستراح الانسان فلا يتكلم الا بحـق وصار سكوته عبادة وكلامه عبادة ونطقه عبادة واذا سكت سكت بحق [٨٣] :

وليس ما يعنيه الحكيم الترمـذى من أمانة الشـهوة فى النفس أن يصبح الانسان ولا شهوة له ، لان ذلك لا يتفق مع طبيعة الانسان من حيث هـو انسان انما يقصد الحكيم الترمذى بموت الشهوة تحولها من حال الى حال وذلك لتغيير مجراها كمجرى يحدده القلب والعقـل فبـدلا من أن تكون الشهوات متحكمة فى مشاعر الانسان وتفكيره تصبح تابعة وذلولة لقلبـه وعقله وبدلا من أن تكون متجهة اتجاها دنيويا متحررة من كل القيـود ، تصبح موجهة توجيها دينيا مقيدا ، فشهوة الكلام مثلا قائمـة فى النفس

---

(٨٣) الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية : دكتور عبد الفتاح بركة : ج ٢ ص ٩٤ وما بعدها .

فذا تعودت النفس على السكوت فليس معنى ذلك أن حب الكلام قدمات فى النفس انما النفس قد خضعت لحكم العقل بالسكوت وعدم الكلام فحسب اذ أنه اذا ماتت شهوة الكلام على الحقيقة فان الانسان لا يستطيع أن يعود الى الكلام مرة أخرى فالمقصود باماتة شهوة الكلام هو أن الرغبة فى الكلام قد ماتت أو انصرفت الى تحقيق ما يتطلبه العقل من الرغبة فى الكلام متعلقة فى القلب دون النفس . والنفس اذا بغت عن رياضتها بعد أن تكون قد خضعت الى ما يتطلبه القلب فانها ترجع مرة أخرى الى عباداتها السابقة فان الغفلة من صفات النفس وأوصافها ،لقد وضع الحكيم الترمذى للمبتدىء فى مجاهدة النفس نظاما خاصا يعتمد أساسا على حرمان النفس من كل ما تفرح به وما تستلذ به[٨٤] .

ويرى أنه ينبغى على المبتدىء أن يبدأ بالصوم ، فيصوم شهرين متتابعين توبة الى الله ، ثم ينتقل من الصوم الى الافطار ، الا أنه عليه أن يأكل اليسير ، وينقطع عن الفواكه واللحم ، وكذلك فيما يتعلق بالملابس فعليه أن يقنع باليسير . وكذلك سائر الاحوال التى تطلبها النفس ونجد فيها الفرح واللذة . ولقد انتقده ابن الجوزى فى كتابه (تلبيس ابليس) فيما ذهب اليه الترمذى ورد عليه قائلا : ان ما وجهه من صيام شهرين متتابعين عند التوبة قول مرفوض ، ثم ما فائدة الامتناع عن تناول الفاكهة المباحة واذا لم يطلع على كتب العلم فبأى شىء يمكن أن يقتدى المريد ، لكننا نرى أن الترمذى لم يقصد أن يعمم نظرته فى مجاهدة النفس على

---

(٨٤) كتاب الرياضة : للحكيم الترمذى .

الناس كافة كما فهم ابن الجوزى ، كما يريد أن يقول أن من يسلك طـريق رياضة النفس ومجاهدتها ، فان عليه أن يصوم شهرين • ولا يستطيع ذلك كل الناس ، فليس ذلك تشريعا جديدا اذ أن الصيام عبادة مطلوبة • وكون الانسان يصوم يوما أو شهرا أو شهرين فهذا راجع الى استعداده وقدراته وتقديره لطريق جهاده لنفسه ، ثم أن الحكيم الترمذى قد استأنس فى ذلك الامر بقول عز من قائل :

« فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله •• »

(النساء : ٩٢)

لم يشرع الامام الترمذى شرعا جديدا كما زعم ابن الجوزى انما هو قد اجتهد ، وربما كان اجتهاده فى هذا الامر فيه شىء من المكابدة والمعاناة لكن ليس ذلك هروبا عن آداب الدين وشريعته ، أما نقد ابن الجوزى واستنكاره للامام الترمذى عندما يقول أن على المجتهد عدم النظر فى الكتب فان مقصود الترمذى أى لا ينظر المبتدىء فى الكتب نظرة الفرح ، ولكن ينظر المبتدىء فى الكتب ليتعلم ما يحتاج الانسان من أمور الدين فهذا هو المطلوب وهـذا ما يرمى اليه الحكيم الترمذى فنقد الجوزى له فيما يتعلق بهذا الموضوع مـرفـوض* •

وهناك نقد آخر وجهه اليه الدكتور أبو العـلا عفيفى ، اذ يرى أن الامام الترمذى ينظر الى النفس نظرة تشاؤمية وهى على حد تعبيره نظرة غير اسلامية ••

★ الحكيم الترمذى ونظرته فى الولاية جـ١ ص ٩٥ وما بعدها .

ونحن لا نتفق مع رأى الدكتور أبو العلا عفيفى فيما ذهب اليه اذ أن الله سبحانه وتعالى ذكر فى كتابه العزيز على لسان امرأة العزيز فى قوله :

« وما ابرىء نفسى ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى »

ولم يزد الامام الترمذى فى تفسيره لجهاد النفس أكثر مما أورده الله سبحانه وتعالى عن النفس فهو حريص كل الحرص على أن يبين آفات النفس وعيوبها وطرق علاج أمراضها ورياضتها ومراقبتها ومعرفتها وبذلك يصل الانسان الى الصحة النفسية . فالنفس تحمل فى طياتها طريق الاستقامة وطريق الضلال ، وعلى الانسان أن يعرف نفسه حتى يمكن أن يتقرب الى الله . وبذلك يصل الامام مقام الامن والطمأنينة والسكينة .

وبغير الطريق الذى انتهجه الامام الترمذى فان الانسان سيقع فى العجب والاغترار والقنوط واليأس وغير ذلك من الافات والنقائص ، والطريق الذى انتهجه الترمذى فى معالجة أمراض النفس قد انتهجه كثير من العلماء المسلمين مثل المحاسبى فى كتابه الرعاية ، والغزالى فى كتابه احياء علوم الدين ، واليافعى قبله فى قوت القلوب ، فضلا عن كتاب الروح للجوزية ، وكتاب ذم الهوى لابى الفرج الجوزى وغير ذلك كثير وكثير .

فالطب النفسى الاسلامى ليس طبا تشاؤميا ، كما يعنى الدكتور أبو العلا عفيفى ، انما هو طب وقائى وعلاجى ، وهو أفضل كثيرا من الطب العلاجى وحده اذ أنه يسد باب المعاصى والمخالفات فتطيب النفس ويصبح سلوكها سويا والقلب معافيا سليما .

٤ ـ أصل معنى الاخــلاص[٨٥]

يركز الصوفية على الاخلاص ويجعلونه أفضل من العلم والعمل ، لان الاخلاص ضد الرياء المفسد للعلم والعمل جميعا ، وهم يستندون فى ذلك الى الايات القرآنية والاحاديث النبوية ... لذلك فهم يفتتحون به جميع الاعمال ، حيث أنه يعتمد أساسا على النية ، والنية باب الاعمال الصالحة أو الطالحة كما ورد فى الحديث المتفق عليه « انما الاعمال بالنيات »[٨٦] .

يقول عز من قائل :

« وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء »[٨٧] .

والاخلاص هنا صنو التوحيد ، فالمخلص موحد موقن بالله حنيفا أى مائل بفطرته الى الاسلام ..

وعن أبى هريرة يقول الرسول ﷺ :

« ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أجســامكم ولكن ينظــر الى قــلوبكم »[٨٨] .

فمن علامة المؤمن سلامة القلب ، فاذا كان القلب سليما والنية حسنة، سمى العبد مخلصا ...

---

(٨٥) للمزيد راجع ألفاظ الصوفية للمؤلف . الاخلاص .

(٨٦) السيوطى .

(٨٧) البينة : ٥

(٨٨) رواه مســلم .

أما المرائى فهو ذو الوجهين ، قلبه مريض ونفسه كذوب ، نيته سيئة وان تظاهر بالطيبة ومكارم الاخلاق ، انما يفعل ليحقق مآربه ويمتدح بغير حق ... وربما لا يكشف أمر المرائى لان فعله غير ظاهر ونيته مستترة لذلك فان الله تعالى هو الذى يكشف أمره ويفضحه فى الدنيا والاخرة ..

أكد أئمة الصوفية على معرفة النفس ومراقبتها ومحاسبتها ، واعتبروا ذلك نوعا من التربية حتى تستقيم النفس وتصبح مسترسلة مع الله مستسلمة له وهى فى خشية دائمة من غضبه تعالى ..

فكلما يراقب الله تعالى أفعال العباد ، فان على المؤمن أيضا أن يراقب أفعاله ، فان كان خيرا حمد الله عليه ، وان كان فعله شرا استتاب منه وندم على فعله وأصدق النية ألا يعود اليه أبدا ...

فالمراقب لنفسه يعرف أن الله يراه :

« وهو معكم أينما كنتم »(٨٩) .

ويعلم تمام العلم انه تعالى لا يخفى عنه شىء :

« ان الله لا يخفى عليه شىء فى الارض ولا فى السماء »(٩٠) .

« يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور »(٩١) .

وفى الحديث القدسى يقول الرسول ﷺ :

---

(٨٩) الحديد : ٤
(٩٠) آل عمران : ٥
(٩١) غافر : ١٩ .

« أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فهو يراك »[٩٢] •

الرياء ذلك الشرك الخفى :

أخوف الخوف على أبناء الامة الرياء ، حيث يتظاهر أصحابه بالاخلاص وقلوبهم مريضة بهذا الداء الخطير الذى يجعل الحق باطلا والباطل حقا ••

والرياء نوع من الشرك الخفى ، والمرائى يظهر غير ما يبطن ، ويبين الناس خلاف ما هو عليه حقيقة ليخدعهم ، وهذا الرياء يدخل الى النفس البشرية مثل دبيب النمل ، ولا يسلم منه الا العارفون بالله ، والمخلصون الطائعون لله على الحقيقة ، لانه قد غاب نظرهم عن رؤيه الخلق بما أودعه الله فى قلوبهم من نور اليقين ، فلا يطلبون من الناس منفعة ولا يرجون منهم خدمة ، ولا يخشون منهم ضررا ، اذ أن أعمالهم جميعا خالصة لله ، وان كانت ظاهرة للناس أجمعين •

ويتكلم الامام الغزالى فى[٩٣] — (الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين) — عن فرق المغترين ، فيقول : « وفرقة أخرى أغتروا بالصوم ، وربما صاموا الدهر كله ، وصاموا الايام ، وهم فى ذلك لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة ، ولا خواطرهم عن الرياء ، ولا بطونهم عن الحرام عند الافطار، ولا من الهذيان بأنواع الفضول » •

ويرى الامام الغزالى أن هؤلاء المغترين قد تركوا الواجب واتبعوا المندوب (أى الجائز وظنوا أنهم يسلمون) ••

---

(٩٢) رواه مسلم مطولا .

(٩٣) راجع : الكشف والتبيين للامام الغزالى .

ويقول : « هيهات .. هيهات . انما يسلم من آتى الله بقلب سليم ».

وليست الطاعة لله باظهار التقوى والورع والخشوع ، انمـا هى فى الاخلاص فى تجنب الرياء من القلب .

ولذلك نجد أهل الحقيقة يراقبون أنفسهم ويتهمونها اذا مالت الى نوع من العبادات دون نوع آخر ، أو أحبت شيئا من الفضائل والفرائض دون شيء آخر — كما أنهم يخافون اذا رأوا فى أنفسهم فرحا وسـعادة وحظا وسرورا ، مما يقومون به من الطاعات ، فاذا ما وجدوا شـيئا من ذلك فى باطنهم تركوا هذا النوع من الطاعات والعبادات والمجاهدات .

ويروى عن بعض الصوفية ، أنه قد وجد نفسه تبغى الخـروج الى الجهاد[٩٤] مع المجاهدين ، وكانت تلح عليه فى ذلك ، فتأملها فوجدها ترجو لذتها فى الغزو والجهاد ، فلم يطاوعها ، وانما استخار هذا العبد الصالح ربه عسى أن يلهمه الحق والصواب ، وقال مناجيا ربه « يا ربى أرشـدنى الى مقصد نفسى ... فانى أرانى متهما لها .. متشككا فيها .. » .

بقى على هذا الحال فترة يراجع فيها نفسه ، ويفتش عمـا بها من آفات ، فاذا به يكتشف أنها ترغب فى الغزو من أجـل راحتهـا الابدية ، واستقرارها ، الازلى من تعب المجاهدات وكثرة الرياضات ، اذ أن صاحبها كان يقتلها بهذه المكابدات كل يوم مرات ومـرات ، ويمنعهـا عن حظوظها وشهواتها ، التى تحبها وتصبو اليها ، ولم تجد هذه النفس طريقا تنجو به★

---

(٩٤) راجع : ألفاظ الصوفية ومعانيها للمؤلف (المجاهدة) .

★ راجع للمزيد كتابنا : الشريعة والحقيقة (الرياء) .

من هذه الاثقال ، الا أن تقتل مرة واحدة ، وذلك لتستريح من هذا العناء ، ومن التشديد والمنع والحظر والترويض والتأديب والتربية ...

فلما علم هذاالعبد الـ صالح عن نفسه ذلك ، رفض السفر للغزو واشتغل بتربية نفسه ، وتأديبها وعلاج ما ألم بها من آفات ، ومما لحقها من اعوجاج ، أى أنه انصرف عن الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ...

فالنية هى أساس الحكم على قلب الانسان ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

« الا من أتى الله بقلب سليم »(٩٥) ..

ذلك أن هذا المستظهر للتقوى الحريص على ابهام الناس بالورع ، انما قد خلا قلبه من نعمة التواضع ، وبلى فى حب الدنيا وادعاء الاخلاص والتوبة ، وهو على الحقيقة عبد فاجر ، لا يصلح معه نصح ولا ارشاد ، ولا ينفع معه علم ولا معرفة ، وان تظاهر بالصدق فاذا ذموه وانصرفوا عن نعته بالتواضع ، تثور نفسه الامارة وتحزن ، بل وتنقلب الى نفس شرسة ناقمة ، تعتدى وتؤذى ، كأسد جائع خرج يهاجم فرائسه ، فلا ينزك أحدا الا ويزدرده ، ولا يشبع من الاذى والعدوان لانه كشف عن حقيقته وبدت شرور نفسه الطاغية التى كانت متقنعة بالرياء الخفى ، والتواضع الظاهرى الذى يكمن وراءه الكبرياء والاستعلاء وادعاء الربوبية .

فهو الشيطان يسير على الارض ، ولكن فى ثوب الصالحين ، ازار المتواضعين والدين منه براء .

(٩٥) الشعراء : ٨٩ .

الكبر الخفى :

يبدو الكبر من الافات النفسية التى لا يسلم منها البشر ، لكن أسوأ أنواعه هو الكبر الخفى الذى ظاهره الرحمة وباطنه العذاب …

والكبر آفة كثير من العلماء ، وهو باب المفاسد والضلالات ، والمدخل الذى يتصور الانسان أن فيه الراحة والامن ، ولا يعرف أنه دليل البعد عن الله ، وسبيل الكذب والنفاق والرياء ، وأكبر مغـريات الكبر ، التظاهـر بالتواضع ، والقلب منه خال ، والشيطان يحسن للمرء سوء عمله ليوقعه فى حبائل مكائده ، حتى اذا ما تم له ذلك ، وأصبح من حـزب الشيطان … تظاهر بأنه تقى ، ورع ، خاشع ، زاهد … قد تركه الشيطان فريسـة للاضطراب والقلق والحسرة والندم …

وليس الكبر هو ظاهر العبد من التعالى على الخلق ، ولا السـخرية والازدراء من فقراء العباد فحسب ، فهذا الكبر الظاهر يمكن أن يعالج منه الانسان ، اما بالنهى عن المنكر ، أو بالنصح لصاحبه لانه ضلالة ، لان الذى يتكبر ظاهراء انما لجهل فيه أو عدم معرفة ، أو لسبب نقـص فى خلقـه وفطرته أو لنسيان ناتج من مـداهنة أقرانه وأصـحابه له ، وذلك لطلب مصلحة ، أو للتقرب اليه فى خدمة ، أو منفعة ، فيجوز أن يكون غافلا عـن تكبره ، جاهلا لانصرافه عن الطريق القويم ، والسبيل السليم ، متأثرا بمن حوله أصحاب السوء ، وأصدقاء الهوى ، فاذا ما وجد الصديق الصدوق الناصح الامين ، فانه ربما يرجع عن غيه ، وينصرف عن تعاليمه وتجبره ، ويعلم أنه العبد الذى لا يملك لنفسه نفعا أو ضرا ، وأن ما كسبه من مال أو

جاه أو علم، ، انما هو اختبار واســتدراج من الله وأن ما يشتهيه من داء الكبر قد يكون فيه هلاكه ، وأن ما يستلذ به من التحــكم والتجــبر زائل لا محالة ، لذلك لا يأمن أن يسلب ماله وجاهه ويفقد عقله ، وتخطف روحه، فهو عبد مملوك ذليل ، فأى مخلوق أذل منه لو عرف نفسه ، وأى مقام يجب أن يرتقيه لو علم حاله •

وهذا المتكبر الظاهرى قد تملكته الدنيا بمظاهر خادعة ، وملذات مؤقتة وشهوات عابرة ، يمكن أن ينفر عنها وأن ينصلح أمره ، ويعرف نفســه ، ويرجع عن غيه وذلك عن طريق العلم ، أو بالنصيحــة الصــادقة فيترك المداهنة والنفاق ، ويهجر المدح الكاذب والرياء ، ويعرف أن كل ذلك لا يقود الا الى الخسران أو الضلال* •

أما صاحب الكبر الخفى ، فانه أعظم فحشــا ، فهــو عكس المتكبر الظاهرى تماما ، مظهره التواضع ، وظاهره الحيــاء ، وكــلامه الرجاء ، وحديثه الخوف من الله ، يجتمع اخوانه فى المحافل فيظهر غير ما يخفى ، ويملك النفس بالورع والتقوى ، ويبث نفاقا فى الحاضرين الخشية والرهبة من الله ، فيجلس فى أدنى مقعد من الناس ، ويقدم من هم أقل منه جاها وأعز مقاما ، ويرفع صغار القوم منه حتى يلقب بالتواضع ، ويطلب الدعاء من فقراء الناس حتى ينعت بالصلاح ، والتقوى ، ويوهم غــيره بأنه طالب الاخرة ، بعيدا عن مطالب الدنيا وما فيها ، ويقــرن ذلك بالصــلاة كــذبا وخداعا ، وبالاحسان نفاقا ورياء ، وبالتذلل لله طمعا فى المغانم والمكسب الدنيوية •

★ راجع للمزيد الشريعة والحقيقة للمؤلف . وكذلك الفنية للامام عبد القادر الجيلانى •

فهو المتكبر باظهار التواضع ، المتجبر باخفاء العدوان والاستعلاء . الحريص على أن يظهر غير ما يبطن ، المتقرب الى عامة الناس ، وقلبه بعيد عنهم ، بعد السماء عن الارض ، يحسبه العامة مؤمنا ورعا ، وهو مراء يتخفى فى زى الطاعة ، متدثرا بمسوح الاخلاص ، ويعلم الله أن الضلال أمامه ، والخداع قوامه ، وأن الدين منه براء .

واذا نظرنا الى سلوك هذا الصوفى بعين الظاهر ، وحكمنا عليه بميزان الحس ، لوجدنا أنه مقصر فى فرائض الله ، متكاسل عن الجهاد فى سبيل الله .

أما اذا حكمنا عليه حكما شاملا جامعا ، ظاهرا وباطنا ، وجدناه سائرا فى طريق الله ، منصرفا عن حظوظ نفسه ، متجها بكليته الى الثواب الاعظم فى الدنيا والاخرة .

ان الشريعة والحقيقة متحدان ، فلا غنى للشريعة عن الحقيقة ، ولا* للحقيقة عن الشريعة ، فاذا أظهر الانسان الطاعة الظاهرة بلا طاعة باطنة ، فان ذلك معناه أنه خرج عن طريق الله وانتكس ووقع فى شرك الرياء الخفى ، اذ أن ذلك تطلع وميل لاظهار طاعته وخصوصيته التى اختصه الله بها من دون الناس . وهذا هو الدليل على الرياء وعدم الاخلاص فى العبودية .

والعبد الصادق — فى حقيقة الامر — لا يهتم بنظر الاخرين ، ويكتفى بأن يعلم به رب العالمين ، أما الذى يحب أن يعرف الناس فضله وعمله ، فهو مراء ، ومن رغب فى أن يتعرف الناس على حاله واستقامته فهو كاذب ،

★ الشريعة والحقيقة للمؤلف .

لان المؤمن الحق هو الذى يخفى حاله عن الناس ويجتهد فى أن يذكره الناس بطاعاته ، بل عليه أن يكتم عنهم اخلاصه فى طاعة الله ما استطاع الى ذلك سبيلا .

ويرى بعض الصوفية أن الذى يعصى الله أخف ضررا من هذا المرائى لان العاصى ، انما هو ظاهر للناس ، يمكن أن يقام عليه الحد ، على ما اقترف من ذنوب ، كما أنه يمكن أن يرجع عن غيه ويتوب عن آثامه ، أما المرائى ، فهو مريض القلب الذى يظهر غير ما يبطن ، فهو أكثر الناس نفاقا وكذبا ورياء .

لذلك يعتبر المرائى عند أئمة الصوفية أشد فجورا وفسقا من العاصى لانه يستظهر الطاعات وأعمال البر وأفعال الخير ، ويبطن فى داخله الكفر والفسوق والعصيان .

الخـوف والرجاء :

لو لم تستتبع آيات الخوف من وعيد الله ، آيات الرجاء بوعد الله لاظلمت الحياة على الارض ولو لم يذكرنا الرسول بالجنة ونعيمها مع النار ولهيبها لقنط الانسان رحمة الله .

بلغ رسول الله عن أصحابه شىء ، فجمعهم وخطب فيهم فقال :

« عرضت على الجنة والنار فلم أر كاليوم فى الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا »(٩٦) .

---

(٩٦) متفق عليه .

تأثر صحابة رسول الله بهذه الموعظة وعظم خوفهم ، وطال انزعاجهم من هول الاخرة ، فما أتى عليهم يو أشد من هذا اليوم ، فغطوا رؤوسهم وهم يخفون نشيجهم بالبكاء ..

لقد ذكرهم رسول الله ﷺ بالاخرة ، وهم يرون أنفسهم بين يدى الله ، فيتملكهم الخوف الشديد ، ويبكون بكاء مرا ، وتذكروا حديث رسول الله :

« لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم فعل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه »(٩٧) ..

لقد بكى أصحاب رسول الله ﷺ عندما ذكرهم بأخبار الاخرة ، وكأنه قرأ عليهم كتبهم وكأنه تلى قول عز من قائل :

« يومئذ تحدث أخبارها »(٩٨) .

وما أخبارها ؟ يقول لهم الرسول ﷺ :

تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها .. تقول :

« علمت كذا وكذا فى يوم كذا وكذا ... فهذه أخبارها »(٩٩) .

ألا يخاف الناس كل الناس من سماع أخبار الاخرة ، ألا ترتعد فرائصهم من هول ما يسمعون ، وكيف يطيب لهم العيش وقد اقتربت منيتهم ...

---

(٩٧) رواه الترمذى .
(٩٨) الزلزلة : ٤ .
(٩٩) رواه الترمذى .

وكيف ينعم الناس وهم يتذكرون يوم الحشر وقد حشروا حفاة عراة غير مختونين نساء ورجالا ••• فالامر أهم من أن ينظـر بعضـهم الى بعـض •••

لكن لو بقى هذا الخوف قائما على قلوب صحابة رسول الله ، لبكوا الدهر كله ، ولعظمت خشيتهم من هول الاخرة ، فما هنأوا ، من طعام وما تلذذوا بالنساء على فراش ، وما استمتعوا بمال أو رياش ••

لو أن الانسان تذكر آيات الوعيد والخوف الشديد ، كأن يتلو على نفسه :

« وایای فارهبـون »[١٠٠] •

« ان بطش ربك لشـديد »[١٠١] •

« ان أخـذه أليم شـديد »[١٠٢] •

« وذلك يوم مشهـود »[١٠٣] •

« وما نؤخـره الا لاجل معـدود »[١٠٤] ••

« فمنهم شـقى وسـعيد »[١٠٥] ••

« وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد »[١٠٦]

---

(١٠٠) البقرة : ٤٠ •
(١٠١) البروج : ١٢ •
(١٠٢) هـود : ١٠٢ •
(١٠٣) هـود ١٠٣ •
(١٠٤) هـود : ١٠٤ •
(١٠٥) هـود : ١٠٥ •
(١٠٦) الحج : ٢ •

لو أن الانسان بقى على هذا الخوف من وعيد الله دهرا ، لقنط من رحمته ، وذاب من رهبته ، وأضاع عمره فزعا مرتعبا من بطش الله الشديد .

لكن سبق عدل الله تعالى رحمته ، فكان مع جناح الخوف جناح الرجاء ، وهما جناحا الايمان ، وكأن الايمان طائر له جناحين أحدهما الخوف والاخر الرجاء ، وبهما معا يستقيم طيرانه ، فاذا ما فقد أحدهما أو كلاهما لم يستطع الطيران .

ليس هناك رجاء فى الله أفضل من ذلك الحديث الذى ذكره معاذ بن جبل عند موته ورواه أنس رضى الله عنهما :

قال الرسول ﷺ : يا معاذ

معاذ : لبيك يا رسول الله وسعديك

الرسول : يا معاذ

معاذ : لبيك يا رسول الله وسعديك

الرسول : يا معاذ

معاذ : لبيك يا رسول الله وسعديك

الرسول ﷺ :

ما من عبد يشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله صدقا من قلبه الا حرمه الله على النار ...

واذا استمع المسلم الى هذا الحديث عمر قلبه الرجاء و... الله ، وأمن ساعة من وعيد الله ... وربما ساعات وأيام ...

لذلك فقد سأل معاذ الرسول ﷺ أن يبلغ الناس كل الناس بهذا الحديث الذى يسكن القلوب ويملأ النفوس طمأنينة وأمنا قال معاذ للرسول صلى الله عليه وسلم :

أفلا أخبر الناس بهذا الحديث فيستبشروا ؟

فأجاب ﷺ :

اذن ... يتكلوا ...

لقد خاف الرسول ﷺ أن يتواكل الناس عند سماعهم هذا الحديث ويتبطلوا عن السعى وأن يتقاعسوا عن مجاهدة النفس وتعويدها على صالح الاعمال ...

ولو لم يخف معاذ بن جبل رضى الله عنه أن يقع فى اثم كتمان العلم ، وخاصة اذ كان حديث رسول الله ، لو لم يخف معاذ وهو على فراش الموت من اثم كتمان الحديث المذكور ما حدث به أحدا ولحبسه معه فى قبره الى يوم يبعثون ..

ان الرجاء فى الله يعطى للانسان القوة على مواصلة الحياة برغم ذنوبه العديدة ومعاودة اقتراف ذنوب جديدة ، يقول أبو هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الارض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى أن الدابة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه »(١٠٧) .

---

١) رواه البخارى .

لقد أراد الرسول ﷺ أن يبشر صحابته ، وأن يطمئن قلوبهم ، فمع الى رؤوس الجبال ويعتزل النساء ويظمأ نهاره ويسهر ليلـه ، ويكثر من وجود آيات الترهيب والنذير والتخويف الشديد التى جعلت بعضهم يفر العبادة آناء الليل وأطراف النهار ويبكى خوفا من وعيد الاخرة ولا يأمن نفسه من مكر الله •• لقد بشر الرسول صحابته برب كريم غفور رحيم ، فيقول لهم أذنب عبد ذنبا ، فلجأ الى الله تعالى فقال العبد :

— اللهم أغفر لى ذنبى •••

قال الله تبارك وتعـالى :

« أذنب عبدى ذنبا ••• فعلم أن له ربا يغفر الذنب •• ويأخذ بالذنب •• ثم عاد فأذنب العبد فلجأ الى الله تعالى وقال » :

— اللهم اغفر لى ذنبى •••

فقال الله تبارك وتعالى :

أذنب عبدى ذنبا •• فعلم أن له ربا يغفر الذنب •• ويأخذ بالذنب •• ثم عاد العبد الى الذنب فأذنب ، فلجأ الى الله فقال :

— أى رب ••• اغفر لى ذنبى •••

فأجاب تبارك وتعالى :

« أذنب عبدى ذنبا •• فعلم أن له ربا يغفر الذنب •• ويأخذ بالذنب •• لقد غفرت لعبدى ، فليفعل ما يشاء [١٠٨] ••

---

(١٠٨) متفق عليه .

وتظهر آيات الرحمة فى هذا الحديث ، فبرغم عودة العبد الى اقتراف الذنب ، فقد وجد ربا غفورا رحيما يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر منه ما دام محافظا على طلب المغفرة متوسلا الى الله أن يعفو عنه ويصفح عن ذنبه .. وهنا تتجلى معانى الرحمة الالهية ، التى تجعل قلب العبد مستبشرا بالله راجيا له تعالى ... وهو يعلم علم اليقين أنه تعالى لن يخذله أبدا حين يتذكر قوله تعـــالى :

« ورحمتى وسعت كل شىء »[١٠٩] .

وعندما يتذكر المذنب قوله تعالى :

« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ... انه هو الغفور الرحيم »[١١٠] .

فالانسان المؤمن يحيا بين الخوف والرجاء ، الخـــوف من وعيد الله والرجاء فى وعد الله ، فمع وجود الترهيب يوجد الترغيب ، ومع الخوف من عذاب جهنم يوجد الاستبشار بنعيم الجنة ، وبين هذا وذاك يتطهر الانسان من الادران ، ويغتسل من الاثام ويولد فى كل توبة ميلادا جديدا ، ويجد فى رحمة الله الملجأ الاخير فيطرح حمله الثقيل ويدخل فى رحمة الله فيولد من جـــديد ...

---

(١٠٩) الاعراف : ١٥٦ .
(١١٠) الزمــــر : ٥٣ .

الباب الثالث

الفصل الثانى

١ ـ الرؤيا فى عهد الرسول

قال تعالى : « يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى »(١)

قال تعالى : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين »(٢)

يقول الرسول ﷺ : « اذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانما هى من الله فليحمد الله عليها وليتحدث بها ، واذا رأى غير ذلك مما يكرهه فانما هى من الشيطان فليستعذ بالله ، ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره .. »(٣)

من هذا الكلام الطيب يتضح لنا أن هناك رؤى صادقة ، كما أن هناك أضغاث أحلام ، فليس كل ما يراه الانسان فى المنام صحيحا يجوز تعبيره ، انما الصحيح منه ما كان من الله تعالى .

والرؤيا الحق تنقسم الى خمسة أقسام هى :

١ ـ الرؤيا الصادقة :

وهى الرؤيا الظاهرة الصدق ، وهى جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وهى واردة فى قوله تعالى* :

---

(١) يوسف : ٤٣ .
(٢) يوسف : ٤٤ .
(٣) للمزيد كتابنا : نحو علم نفس اسلامى

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين »(٤) .

والرؤيا الصادقة تجدها أيضا فى قصة سيدنا ابراهيم عليه السلام فى قوله تعالى على لسان خليله :

« يا بنى انى أرى فى المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين »(٥) .

وفى قوله تعالى :

« وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا »(٦) .

فالرؤيا الصادقة بهذا المعنى هى بمثابة الامر الالهى الواجب التنفيذ، اذ أنها تأتى من الله مباشرة بدون واسطة ، كما أنها لا تحتاج الى تعبير أو تفسير .

٢ ــ الرؤيا الصالحة :

وهى بشرى من الله الى العبد ليحيى فى نعمة وسرور ويثبت بها الله سبحانه وتعالى قلبه ، ولقد سأل أبو ذر الغفارى الرسول ﷺ عن المبشرات فقال :

« هى رؤى يراها المؤمن ، فتتحقق له »(٧) .

---

(٤) الفتح : ٢٧ .
(٥) الصافات : ١٠٢ .
(٦) الصافات : ١٠٥ .
(٧) الشيخ ابن شاهين الظاهرى : الاشارات فى علم العبارات ص ٢ـ٣ .

وقد بينها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز فى قوله :

« فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى »(٨) .

وقــوله تعــالى :

« لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الاخرة »(٩) .

ومن البشرات ما هى تحــذير من الوقــوع فى الذنوب والتنبيه على الغفلات والزجر عن المخالفات فهى بمثابة انذار من الله تعالى للعبد ، وعون له فى تجنب الخطيئة ، والبعد عن الهوى ، وهى تعد بهذا المعــنى طــريقا للصحة النفسية فى الدنيا والاخرة وقد وردت فى قوله تعالى :

« وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين »(١٠) .

وروى عن ابن عمر أنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداة بعد طلوع الشمس فقال :

« رأيت قبل الفجر كأنى أعطيت المقاليد والموازين ، فأما المقاليد فهى المفاتيح وأما الموازين فهذه التى يوزن بها ، فوضعت فى كفة ووضعت أمتى فى كفة فوزنت بهم فرجحت ، ثم جىء بأبى بكر فوزن بهم فرجح ، ثم جىء بعمر فوزن فرجح ، ثم جىء بعثمان فوزن فرجح ، ثم رفعت(١١) .

---

(٨) هــود : ٧٤ .
(٩) يونس : ٦٤ .
(١٠) الكهف : ٥٦ .
(١١) ذكره احمد فى مسنده والطبرى فى الرياض النضرة جا ص ٥٣ .

ويعلق الطبرى على هذه الرؤيا التى لا تحتاج الى تعبير — أن الرسول ﷺ قد رجحت كفته على الامة ، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم رفع الميزان وهذه اشارة الى الاختلاف الذى حدث بين المسلمين .

٣ — الرؤيا بطريق ملك الرؤيا :

وهى الرؤيا التى يراها الانسان عن طريق ملك الرؤيا ويسميه الامام ابن سيرين[١٢] (روحائيل) ، ويسميه الشيخ الامام النابلسى[١٣] (صديقون) .

وهذا الملك اما أن يبشر برؤية حسنة ، وتأتى للرائى فتتحقق فى الواقع بعد أيام ليكون الرائى فى نعمة وسرور ، أو يبشر برؤيا منذرة ، وهى التى تتحقق مباشرة بعد الرؤيا لكى لا يعيش الرائى مغموما ...

روى أن الرسول ﷺ كان كارها موافقة النصارى أن يضرب بالناقوس فى وقت الاذان ، فرأى عبد الله بن زيد هذه الرؤيا ، فقال : رأيت انه قد طاف بى فى الليل رجل وعليه ثوبان أخضران وفى يده ناقوس ، فقلت له : أتبيع الناقوس ؟ فقال : وماذا تصنع به ؟ قلت : أدعو به الى الصلاة ، قال : ألا أدلك على خير من ذلك ، فقلت : بلى ، قال : تقول : الله أكبر .. الله أكبر .. الى آخر الاذان .

فلما أصبح عبد الله بن زيد أخبر الرسول ﷺ بما رأى ، فقال صلى الله عليه وسلم أن هذه الرؤيا حق ان شاء الله ، فقم مع بلال ودعه يؤذن بما رأيت ، فانه أقوى منك صوتا ...

(١٢) ابن سيرين : منتخب الكلام فى تفسير الاحلام ص ٣—٧ .
(١٣) النابلسى : تعطير الانام فى تعبير المنام ص ١—٨ .

ثم أذن بلال فى المسلمين فسمعه عمر بن الخطاب .. رضى الله عنه فخرج من بيته قائلا : والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى (يقصد بن زيد) .

فقال ﷺ فلله الحمد(١٤) ...

٤ ــ الرؤيا الرمزية :

وهى من الروح وتحتاج الى مفسر أو معبر يبين معانيها ويشرح مدلولها ، وهناك شروط يجب أن تتوافر فى المعبر الذى يفسر الرؤيا الرمزية .

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : رأيت كأنى أعطيت قدحا كبيرا مملوءا لبنا ، فشربت منه حتى امتلأت ، فرأيتها تجرى فى عروقى بين الجلد والعظم ، ففضلت منها فضلة فأعطيتها أبابكر ، قالوا : يا رسول الله هذا أعلم أعطاه الله لك حتى اذا امتلأت منه ففضلت فضلة فأعطيتها أبا بكر . فقال ﷺ : قد أصبتم(١٥) .

٥ ــ الرؤيا بالشهود :

وهذه الرؤيا تصح للصبى والمؤمن والكافر ، كرؤيا يوسف ــ عليه السلام ــ وهو صبى لم يتجاوز السابعة ، ورؤيا فرعون مصر وهو كافر فى قصة سيدنا يوسف ــ عليه السلام .

---

(١٤) اخرجه احمد وابو داود والترمذى وابن اسحاق .
(١٥) عن ابن عمر وأخرجه ابن حاتم ...

روى الامام على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ لابنه الحسن فى اليوم الذى قتل فيه : « يا بنى رأيت الرسول ﷺ فقلت له يا رســـول الله ما لقيت من أمتك من الشدة والخصومة ، فقـــال : ادع الله عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بى من هو شر منى • ثم انتبه وخرج للصلاة فقتله ابن ملجم[١٦] ••

هذا وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة فيما يختص بالرؤيا عن الرسول ﷺ منهـــا :

١ ــ « من لم يؤمن بالرؤيا الصالحة لم يؤمن بالله » •

٢ ــ « لم يبق من النبوة الا المبشرات يراها المؤمن أو ترى له » •

٣ ــ « أصدقكم حديثا ، أصدقكم رؤيا » •

أما الحلم أو الرؤيا الباطلة فتنقسم الى سبعة أقسام :

١ ــ حديث النفس :

حديث النفس تعبير عن أمانى النفس أو تمنياتها ورغباتها الدنيوية وحظوظها الشهوية وأضغاثها وخيالاتها •• مثل أن ينام النائم وفى نفسه لذة محرمة ، أو رغبة كاذبة ينزع الى تحقيقها ، **وكل أمانى النفس لا يعول عليها لانها من الشيطان** ، وأن الله تعالى ينسخها فلا تحقق كما أنها كأحلام ليس لها من تفسير لقوله تعـــالى :

« الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان»

(الحج : ٥٢)

---

(١٦) ذكره المحب الطبرى فى الرياض النضرة •

٢ ــ الحلم الموجب للاغتسال :

وهو الحلم الذى يتوجب فيه الطهارة من الجنابة ، وليس لهذا الحلم عند الائمة تأويلا ، الا أن الامام ابن سيرين[17] .. يرى أن الجنب أو المرأة الحائض يمكن أن ترى رؤيا صادقة فلا تخل الجناية أو الحيض بصحة الرؤيا فى ذاتها ، وانما المدار على موضوع الرؤيا ، فاذا كانت تتعلق بموافقة أو علاقة محرمة فانها تعد من الاباطيل ، ومن تحسين الشيطان للفواحش ، وذلك تصديقا لقوله تعالى :

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » (البقره : ٢٦٨)

٣ ــ تهاويل الشيطان :

أحيانا يتسلط الشيطان أو يسلط أتباعه على النائم ليفزعه ويرعبه ويخيفه ويهول اليه الامر ويلقى الحزن والغم والهم فى قلبه ليخيفه ، وقد ورد فى ذلك قوله تعالى :

« انما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا الا باذن الله » (المجادلة : ١٠)

٤ ــ أفعال السحرة :

يقوم بعض السحرة من الانس أو الذين يعوذون بالجن فى بعض أعمال السحر وذلك لاستجلاب منافع ، ويستعين السحرة ببعض الرموز والطلاسم والادعية والتعاويذ ، ويدخلونها أحيانا فى روع النائم .. وقد ورد ذلك فى قوله تعالى :

---

(١٧) الامام ابن سيرين : منتخب الكلام فى تفسير الاحلام ، ص ١٨ فى كتاب تعطير الانام .

« وانه كان رجال من الانس يعــوذون برجال من الجن فــزادوهم رهقـــا » (الجن : ٦)

٥ ـ غلبـة الطبائــع :

للانسان طبائع أربعة .. السوداء .. والصــفراء .. والبلغم .. وللدم[١٨] ، وعندما تتكدر هذه الطبائع ويختلف بعضها مع بعض ويغلب احداهما على الاخرى ، فان النائم فى هذه الحـــالة يرى بحسب الطبيعــة الغالبة عليه ، فاذا كان غاضبا كان حلمه عدوانا أو انتقاما أو كيدا .. وهكذا الامر فى باقى الطبائع* .

٦ ـ الذكريات القديمة :

يقول بعض الائمة أن الذكريات القديمة جدا ويسمونها بالرجـــع ، والتى يرى صاحبها نفسه فيها فى زمن منذ عشرين عاما (مثـــلا) أنها من الاضغاث والاباطيل .. كأن يرى النائم نفسه فى المنام صبيا صــغيرا ، رغم أنه شيخ فى السبعين من عمره .

٧ ـ الحـلم الشيطانى :

أحيانا يتعرض الشيطان للانسان بوسوسته لصرفه عما أمره الله ، كأن يحسن له أفعال الشر فى النوم فيوسوس له ، ولا يعد ذلك من الرؤيا لانه أمر منكر ونهى عن المعروف وذلك تصديقا لقوله تعالى :

« واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله » (فصلت : ٣٦)

---

(١٨) ابن القيم الجوزية :الروح .

★ راجع كتابنا : نحو علم نفس اسلامى (الرؤيا لا اضغاث أحلام) .

وهكذا نستطيع القول أن الرؤيا كعلم لها أصل فى الشريعة الاسلامية فى كتاب الله وسنة رسول ﷺ ، أما الرؤيا الباطلة فهى أضغاث أحلام وقد أوضحنا أقسامها المختلفة ووجدنا أن معظمها راجع الى وسوسة الشيطان وغوايته للانسان .

٢ — الرؤيا عند العلامة ابن خلدون

يعتبر ابن خلدون الرؤيا علم من العلوم الشرعية ، ولقد ألف فى هذا العلم العديد من العلماء المسلمين ، ويعد ابن سيرين من أشهر العلماء المسلمين فى علم الرؤيا ، فقد دون فيه الكتب بعد أن كان ما يزال متناقلا بين السلف ...

ولقد ألف فى هذا العلم بعد ابن سيرين(١٩) العالم الاسلامى « الكرمانى » ثم أن علماء الكلام المتأخرين قد أدلوا بدلوهم فيه ، وأكثروا فى استنباط مسائله وعرض موضوعاته وشرح أغراضه ومراميه ...

ويقول ابن خلدون فى مقدمته أن أهل الغرب اهتموا بهذا العلم وتداولوه بينهم وعدد بعض علمائه كابن أبى طالب القيروانى الذى كتب فيه كتابه « الممتع »(٢٠) وكذلك عالم آخر يلقب « بالسالمى » أصدر فى علم الرؤيا كتابا أسماه الاشارة .

وللشيخ عبد الغنى النابلسى كتابا أسماه « تعطير الانام فى تعبير المنام »(٢١) وكذلك فان للشيخ ابن شاهين الظاهرى مؤلفا فى هذا العلم

---

(١٩) له كتاب مشهور أسماه منتخب الكلام فى تفسير الاحلام .
(٢٠) مقدمة ابن خلدون — ص ٤٧٨ المكتبة التجارية .
(٢١) لم يصل الينا هذا الكتاب .

أسماه « الاشارات فى علم العبارات » ، وهناك جلة من العلماء كتبوا فيه وأفاضوا ولم ينكر أحد من العلماء علم الرؤيا أو يشكك فيه ...

ويقول العلامة ابن خلدون :

« وأول ما بدأ به النبى ﷺ من الوحى الرؤيا فكان لا يرى رؤيا الا وجاءت مثل فلق الصبح » ..

ويستطرد ابن خلدون قائلا :

اذا انتهى الرسول ﷺ من صلاة الفجر يقول لاصحابه :

« هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا » ؟

ويعلق ابن خلدون على ذلك فيقول :

لقد كان الرسول يسأل أصحابه ليستبشر بما وقع لهم من الخير بما فيه ظهور الدين واعزازه ...

ويقرر ابن خلدون أن الرؤيا وتفسيرها كان موجودا عند السلف الصالح كما هو موجود عند الخلف ، ويعتقد أن هذا العلم كان موجودا أيضا فى الامم السابقة الا أنه لم يصل الينا ... وذلك اكتفاء بتعبير المعبرين دون العمل على تدوينه والتأليف فيه ... فلم يهتم أحد فى رأى ابن خلدون قبل العلماء المسلمين بالتأليف فيه وشرح مسائله ..

ويدلل ابن خلدون على أن علم الرؤيا كان موجودا فى الامم السابقة وأن الرؤيا حقيقة فى صنف البشر على الاطلاق ، ويؤكد على ذلك برؤيا يوسف الصديق عليه السلام وبتعبيره للرؤيا كما ورد فى القرآن الكريم ..

« يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ، قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحـــلام بعالمين »[٢٢] ..

ولقد كان رسول الله ﷺ يقول :

لم يبق من النبوة الا المبشرات ... ولـمـا سئل عن المبشرات قال :

« الرؤيا الصـــــالحة »[٢٣] .

ولقد سأل أبو ذر الغفارى الرسول ﷺ عن المبشرات فقال :

« هى رؤى يراها المؤمن فتتحقق له » .

ويستشهد ابن خلدون بالحديث المتواتر عن أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة[٢٤] ...

حقيقة الرؤيا :

يرى ابن خلدون أن الرؤيا ادراك للغيب ، أى ادراك لـمـا هو مغيب عن المدركات الحسية فى الانسان ، لكن ذلك ليس معناه استحالة ادراكها اذ تدرك بوسائل أخرى غير الحس أى عن طريق الروح ...

ويبين لنا ابن خلدون[٢٥] أن الروح ويسميه بالروح القلبى وهو عبارة عن بخار لطيف ينتشر فى الشرايين والاوعية الدموية فى جميع أجزاء البدن ... وبه يكتمل الاحساس الخارجي ، كما أنه بهذا البخار اللطيف المنبعث من الروح القلبى تباشر القوى الحيوانية فى الانسان عملها ...

(٢٢) يوسف : ٤٣ ، ٤٤ .
(٢٣) رواه مسلم عن جابر .
(٢٤) المقدمة ص ٤٧٥ .
(٢٥) نفس المرجع ص ٤٧٦ .

ولكن عند النوم يحتبس هذا البخر اللطيف المنبعث من الروح القلبى عن سائر البدن ، نتيجة ما يغشى النائم من برودة الجسم ؛ فيقتصر نشاطه فى مركزه الاصلى وهو الروح القلبى ... فيتعطل عمل الحواس الخمس كلها فلا يرى النائم ولا يسمع ولا يتذوق ولا يحس هو معنى النوم ...

ويستطرد ابن خلدون قائلا :

« والروح القلبى تابع للروح العاقل من الانسان والروح العاقل هو المدرك لجميع الاشياء والافعال والاعمال الموجود فى عالم الامـــر .... اذ هو عين الادراك أو الادراك بالذات أو هو حقيقة الادراك » ..

لكن ما دام الروح العاقل من الانسان يدرك كل ما فى عالم الامـــر ، فلماذا لا يدرك الانسان المغيبات ... يجيب ابن خلدون على ذلك :

« يمنع ادراكه للمغيبات ما هو فيه من حجاب ،اذ يحجب عنه الاشتغال بالبدن وما ينعلق به من حواس وقوى حيوانية ... ولو فض هذا الحجاب لاستطاع أن يرجع الى حقيقته وهى عين الادراك أو الادراك بالذات فيدرك كل الاشياء ، ويعقل كل المدركات » ..

كلما خفت شواغل الحس ومطالب البدنواشباعات القوى الحيوانية، كلما تجرد الروح العاقل من الانسان ، فاستعد لقبول المدركات اللائقة من عالمه وهو عالم الروح ...

فالشواغل الحسية والحواس الظاهرة هى اذن أعظم الشواغل التى تعوق الروح العاقل من استقبال المغيبات وادراك الحقائق المسـطورة فى عالم الروح ..

فاذ حدث متاعل الروح العاقل — كما سبق القول — أدرك لمحة من عالم الروح بقدر تجرده ، فاذا رجع الى البدن الذى هو فيه ، فانه لايستطيع أن يتصرف الا به أى عن طريق المدركات الحسية بعامة والخيال بخاصة .

ويحدد ابن خلدون وظيفة الخيال فى حال الرؤيا ، ويرى أن عامه هو فى انتزاع الصور المحسوسة ليحولها صورا خياليـــة ... ثم يدفعها الى الحافظة لتحفظها له وقت الحاجة اليها ... وكذلك فان النفس تقوم أيضا بنفس هذه العملية اذ تحول الصور المحسوسة وتجردها الى صور نفسانية عقليـــة .

فعن طريق التجريد يحدث تحول للصور من المحسوس الى المعقول ويصبح الخيال الواسطة فى هذه العملية .

وينتهى ابن خلدون الى كشف حقيقـــة الرؤيا ، فيبين أن النفـــس الانسانية اذا أدركت شيئا من عالمها ، ألقته الى الخيال الذى بدوره مصوره بالصورة المناسبة ثم يدفعه الى الحس المشترك فيراه النـــائم كأنه شىء محسوس له طول وعرض وعمق .

فحقيقة الرؤيا انما تتم —فى رأى ابن خلدون — عن طريق الروح العقلى المدرك لكل ما فى عالم الامر ، والذى تتنزل هذه المدركات الى الحس، والواسطة بينهما هو الخيال[٢٦] ...

---

(٢٦) مقدمة ابن خلدون ٤٧٧ .

الرؤيا واضغاث الاحــلام :

ويفرق ابن خلدون بين الرؤيا الصالحة وبين أضغث الاحلام الكاذبة، ويرى انها كلها صور من الخيــال فى حال النــوم ، الا أنه فى حالة الرؤيا الصالحة تكون تلك الصور متنزلة من الروح العقلى المدرك مباشرة .

أما اذا كانت هذه الصور مأخوذة من الحافظة وهى صور تكون قــد أودعها الخيال فى الحافظة حين اليقظة ، فان هذه الرؤيا كاذبة وهى ما يطلق عليها أضغاث أحلام أو الاباطيل كما ورد عن عز من قائل على لسان العزيز والسحرة :

« يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى » (يوسف : ٤٣)

« قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين »

(يوسف : ٤٤)

تعبير الرؤيا :

يدرك الروح العقلى فى حال النوم — كما سبق القول — مــدركات مناسبة له من عالمه ، فاذا أدركها ألقاها الى عالم الخيال الذى يصــورها بدوره فى صورة مناسبة للمعنى الذى ألقى اليه على قدر الامكان .. ويضرب ابن خلدون لذلك بعض الامثلة ، فيقول :

« يدرك الخيال معنى السلطان الاعظم فيصوره بحرا ، ويدرك معنى العداوة فيصورها حية أو ثعبانا »(٢٧) ، فاذا استيقظ النائم فانه لا يعلم من أمر رؤياه ويرجعها الى حقيقتها ، فيعبر له البحر بالســلطان الاعظم والحية بالعداوة والبغضاء .

---

(٢٧) نفس المرجــع .

ويعتمد المعبر فى ذلك على قوة التشبيه بعد أن يتيقن من أن البحر صورة محسوسة ، لذلك فهو يحتاج الى الاهتداء الى قرائن وأدلة مما يقتضى معه أن يكون صاحب علم وبصيرة[٢٨] .

فالمعبر عندما عبر عن البحر بالسلطان العظيم ، فكأنه ربط بينهما عن طريق المشابهة والمناسبة ، فالبحر عبارة عن خلق عظيم والسلطان كذلك والحية عظيمة الضرر والايذاء والعدو كذلك ، والاوانى يعبر عنها بالنساء فكلاهما أوعية ...

ويبين لنا العلامة ابن خلدون أن من الرؤيا ما يكون صريحا واضحا لا يحتاج الى معبر لتأويلها وللماكلة بين المدرك وبين شبيهه ويستشهد بما ورد فى الصحيح عن الرسول ﷺ :

الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ... ورؤيا من الملك ... ورؤيا من الشيطان ..

لذلك فان الرؤيا الصريحة لا تحتاج الى تأويل لانها من الله ، والرؤيا من الملك هى رؤيا صادقة الا انها تحتاج الى معبر لتأويلها ، وأما الاضغاث فهى الرؤيا من الشيطان ولا تعبير لها ولا تأويل[٢٩] .

(٢٨) للمزيد راجع كتاب : نحو علم نفس اسلامى للمؤلف (الرؤيا لا أضغاث أحلام) .

(٢٩) قد بين ابن سيرين أنواع الرؤيا الصادقة وصنفها فى خمسة أقسام لا يفرق علماء النفس الحديث بعامة والتحليل النفسى بخاصة بين الرؤيا والاحلام فيجعلون الحلم مثل الرؤيا ويقولون عنه أن الطريق الملكى لفهم الشخصية الانسانية كما يزعم سيجموند فرويد والذى يقول أن الحلم الناقص أن المشوه يمكن أن يعبر عن معنى ، وأن تستكمل بمعرفة المعبر جوانبه حتى يصبح ذا مغزى ومعنى .

ولمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع الى كتاب التحليل النفسى ترجمة د. سامى محمود .

ويوضح لنا ابن خلدون أن الروح العاقل لا يصور موضوع رؤيا الا فى القوالب المعتادة للحس . فاذا لم يكن الحس قد أدركه من قبل فلا يصوره فيه ، ويضرب لذلك مثلا بالاعمى فهو لم يسبق له ادراك البحر . لذلك فلا يمكن أن يصور له السلطان بالبحر ، كما أنه لا يصور له العداوة بالحية، لأنه لم ير الحية ولم يدركها من قبل ، وكذلك لا يمكن أن يصور له النساء بالاوانى .. انما يصور له الخيال أمثال هذه وشبهها من جنس مداركه التى هى المسموعات والمشمومات ..

ويرى ابن خلدون الى أن على المعبر أن يكون فطنا ذكيا ، فاذا عبر للاعمى البحر بالسلطان والحية بالعداوة والاوانى بالنساء ، فقد اختلط عليه الامر وفسد قانونه ووقع فى الخطأ ...

لذلك يبين لنا ابن خلدون أن علم تعبير الرؤيا له قوانين كلية على المعبر أن يتعرف عليها تمما ، ويبنى عليها ما يقص عليه من رؤى لتأويلها فمثلا يعبر عن البحر بالسلطان ولكن فى موضع آخر يعبر عنه بالغيظ وفى موضع ثالث يعبر عن البحر بالهم أو الامر الفادح ، وكذلك الامر بالنسبة للحية فهى تعبر عن العداوة ولكنها تعبر عن كتمان السر فى موضع آخر بحسب المناسبة والمشابهة ...

فعلى المعبر أن يحفظ القوانين الكلية ثم يعبر عن الرؤيا بحسب ما يناسبها ، بما تقتضيه القرائن والادلة ...

والقرائن والادلة التى يعتمد عليها المعبر ، منها ما يكون فى حال اليقظة عند المعبر له . ومنها ما يكون فى حال النوم . ومنها ما ينقدح فى نفس المعبر ويلقى فروعه وكل ميسر لنا خلق له .

٣ ــ رسـائل .. من العالم الاخــر

ينتقل كثيره ن الصالحين الى الدار الاخرة ، ولا تنقطع صلتهم تماما بعالمنا الدنيوى ، فهم يتصلون بين الحين والاخر عن طريق الرؤيا بأحبائهم وأصحابهم ويحاورونهم ويصفون لهم بعض معالم عالمهم الجــديد ، وما يصادفونه من سعادة وهناء هناك ...

ويبينون لهم الافعال الطيبة ، والاعمال الحســنة التى اســتفادوا بثوابها فى عالمهم الجديد ...

ولا شك أن الرؤيا لها أصل فى الشريعة الاسلامية ، فان الرؤيا الصادقة جزء من أربع وأربعين جزءا من النبوة .

وتقرأ كثيرا فى كتب السلف الصالح لقاءات بين مــوتى وأحياء عن طريق الرؤيا ، ومن أمثلة ذلك ، أنه عندما حوصر ذو النورين عثمان بن عفان أمير المؤمنين وهو صائم فى رمضان أربعين يوما ، زاره الصحابى الجليل عبد الله بن ســـــلام* .

فقال له عثمان بن عفان : يا عبد الله بن سلام لقد رأيت الليلة الرسول ﷺ فى الرؤيا ... وخيرنى بين النصر على من يحاصروننى وبين الشهادة .

فقال عبد الله بن سلام : أريد أن أسمع هذه الرؤيا يا أمير المؤمنين ..

فقال عثمان بن عفان لصاحبه : لقد رأيت رسول الله ﷺ فى أعلى هذا البيت وأشـــار بأصـــبعه الى مكان فى أعلى الصـــدر وقال لى : حاصروك يا عثمان ؟

---

* راجع الرياض النضرة فى مناقب العشرة .

فقلت : نعم يا رسول الله .

فقال ﷺ : عطشوك يا عثمان ..؟

فقلت : نعم يا رسول الله .

فأدلى الرسول ﷺ بدلو من أعلى . فشربت منه حتى ارتويت ... وما زلت حتى الان يا عبد الله أجد برودة الماء فى صدرى .

ثم يستطرد عثمان بن عفان رضى الله عنه قوله :

ثم قال لى الرسول ﷺ : ان شئت يا عثمان ... أفطرت عندنا ... وان شئت يا عثمان نصرناك عليهم .

ثم نظر عثمان بن عفان الى صاحبه عبد الله بن سلام وقال له كأنه يرد على مقالته التى جاء فيها : يسرنى أن أكون فداءك يا أمير المؤمنين ..

فنظر الى عبد الله بن سلام ، وقال له :

لقد اخترت يا عبد الله ... أن أفطر اليوم مع رسول الله ﷺ . ويؤكد هذه الرواية أبو سعيد مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه . فقد أخبره عثمان بن عفان رضى الله عنه برؤيته للرسول ﷺ ليلة مقتله ، كما أخبره بأنه رأى أصحاب رسول الله رضى الله عنهم أبو بكر وعمر فى الرؤيا أيضا ..

وقالوا له : أصبر يا عثمان فأنت تفطر عندنا الليلة ..

وواضح من هذه الرسالة التى استلمها عثمان بن عفان من العالم الاخر أنها بشرى له ، برغم ما هو فيه فى الدنيا من بلاء شديد ، فهى بمثابة رسالة تبث فى نفسه الفرح والسرور وتثبت قلبه يقينا الى يقينه .

وهذا من فضل الله ونعمته لاوليائه من الصابرين الصالحين الصادقين، فان رسائل الاموات الصالحين الى الاحياء هى سيل لا ينقطع أبدا ، وهى اما أن تكون بشرى للمتقين لتثبيت قـلوبهم ، وبث الفـرح والسرور فى نفوسهم . واما أن تكون هذه الرسائل عبارة عن نذير أو تحذير للابتعاد عن طريق أو عدم الاشتغال بعمل معين أو الاتصال بقوم من الفاسقين .

ومن ناحية أخرى فان الرؤيا الصادقة التى يتم فيها الاتصـال بين الاموات والاحياء تحكى لنا عن أفضل الاعمال الدنيوية التى تنفع الانسان فى آخـرته .

ونؤيد ذلك برؤية محمد بن الفضيل بن العياض لصاحبه وصـديقه الذى توفى قبله وهو الشيخ عبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ .

ويدور الحوار فى الرؤيا بين الفضيل بن العياض وشيخ الاسـلام عبد الله بن المبارك ، فيسأله الفضيل بن العياض فيقول له : أى الاعمـال وجدت فى الاخرة أفضل ؟

ويرد ابن المبارك قائلا : الامر الذى كنت أنا فيه ...

فيقول له الفضيل بن العياض : أتقصد الرباط والجهاد ؟

فيقول ابن المبارك : نعم .

ثم يسأله الفضيل بن العياض : عن حاله فى الاخرة وكيف فعل الله به.

فيقول له : وأى شيء صنع الله بك ...؟

فيرد ابن المبارك قائلا : غفر الله لى مغفرة ما بعدها مغفرة وكلمتنى امرأة من أهل الجنة من الحور العين ...

ويؤكد ابن راشد أيضا أنه رأى ابن المبارك فى الرؤيا . وكان صديقه فى الدنيا . فسأله : ألست يا ابن المبارك من الموتى ؟

فأجاب ابن المبارك : بلى .

فقال له : ماذا صنع الله بك ؟

فأجاب ابن المبارك : غفر الله لى مغفرة أحاطت بكل ذنب ...

فسأله ابن راشد عن صاحب لهما توفاه الله يدعى سفيان الثورى ، قائلا له : ماذا فعل الله بسفيان الثورى ؟

فقال له ابن المبارك : انه مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (النساء : ٩)

وكما نقرأ فى كتب التراث مرائى الصالحين ، تتكرر الروايات عن رسائل الموتى منهم الى الاحياء ، ويزداد المرء يقينا بحقيقتها ويتثبت بوقوعها ، خاصة عندما يكون الراوى صحابى جليل مبشر بالجنة ، عالم صادق لا يفترى على الله كذبا ، فالذين يروون هذه الروايات مثل عثمان بن عفان ، وابن المبارك والفضيل بن العياض ، وعبد الله بن سلام رضى الله عنهم وهم قدوة لكم مسلم ، فهم كالنجوم تضىء فى الظلمة الحالكة وتنير الطريق لكل منا ، وهم الانموذج الصادق الذى يمكن أن يحتذى به كل من يشهد بأنه لا اله الا الله* .

★ راجع للمزيد كتابنا : الحكومة الباطنية (الرؤيا) .

يروى لنا أبو نعيم عن الصحابى الجليل سلمان الفارسى ، انه اتفق مع الصحابى الجليل عبد الله بن سلام على أن يتبادلا الرسائل من العالم الاخر فقال له سلمان* :

اذا أنت مت قبلى يا عبد الله ... فأخبرنى بما تلقاه عند ربك ... واذا أنا مت قبلك ، فسأخبرك بما ألقاه ان شاء الله عند ربى ... ومضت الايام وانتقل الى رحمة الله سلمان الفارسى ، قبل صاحبه عبد الله بن سلام فرآه الاخير فى المنام فسأله : كيف حالك أنت يا سلمان ؟

قال سلمان : بخير والحمد لله ...

فقال عبد الله بن سلام : أى الاعمال وجدتها أفضل يا سلمان ...؟

قال سلمان : وجدت أفضل الاعمال ... التوكل ... لقد وجدت فيه شيئا عجيبا ...

وهكذا تبين لنا رسائل الاموات الى الاحياء أن أفضل الاعمال فى هذه الدنيا الزائلة والتى تنفع الانسان فى الاخرة ، يمكن أن تتلخص فى الصلاة، والزكاة ، والسجود لله ، والتوكل على الله ، والاخلاص وعدم الرياء فى الاعمال وجهاد النفس ضد الهوى والغواية ، والجهاد فى سبيل الله .

ان كل هذه الاعمال تعين المرء فى حياته الاخرة وترفعه درجات عليا ومقامات عظيمة ، اللهم اجعلنا من أصحاب هذه الاعمال .

★ حلية الاولياء.

٤ ـ علماء الاشارة وعلماء العبارة

يستخدم علماء الصوفية بعض الالفاظ والمصطلحات والتعبيرات التى لا يفهمها غير المريد الصادق من أهل الله ، وهذه المصطلحات تسمى علوم الاشارة للتفرقة بينها وبين علوم العبارة ، وبمعنى أكثر دقة ، فان علماء الظاهر من الفقهاء يركزون على المعنى الحرفى والقشور دون أن يتغلغلوا الى ما تضمنه من معان عميقة ودلالات بليغة ... فهم يهتمون بالشكل الظاهرى أو بالعبارة فحسب ويهملون الجانب الباطنى الذى يحوى اللب وليس القشر ...

ولقد اتجه الصوفية الى هذا المنحى خوفا من كيد[٣٠] علماء الرسوم الذين اذا رأوا تفسيرا يخالف ظاهر فهمهم لاية من آيات القرآن الكريم اتهموا صاحب هذا التفسير بالكفر والالحاد ...

فكان لزاما على الصوفية والامر كذلك أن ينزعوا الى الاشارة بحيث يفهمون المعنى تأويلا دون أن يدرك ذلك أصحاب الفقه الظاهرى بل ويشعر أن التفسير الذى سمعه وان كان مختلف الى أنه لا يخالف ما تعلمه أو تلقنه او فهمه ... وبذلك يجنب الصوفية أنفسهم الوقوع فى معاداة الفقهاء .

يقول الشيخ الاكبر محيى الدين ابن عربى[٣١] :

« ما خلق الله أشــق ولا أشــد من علماء الرسوم على أهل الله (من الصوفية)... فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل » .

---

(٣٠) الفتوحات ــ الجزء الرابع ص ٢٦٥ .
(٣١) المرجع السابق ص ٢٦٤ .

« فالصوفية هم العارفون بالله عن طريق الوهب الالهى منحهم الله أسراره فى خلقه وأفهمهم ، معانى كتابه واشارات خطابه — كما يقول بن عربى* — لا يستطيع أن يتكشف معانيهم الا من شرب من شربهم،وسار على طريقهم ، وأخلص العلم والعمل ، وأعد نفسه بالجوع والسهر والصمت والعزلة ، وجاهدها بالتوكل والصبر والعزيمة والصدق واليقين •••

ومن استطاع أن يصل نفسه بهذه العدة وبذلك العتاد فانها من الاعمال الباطنة ، فقد يمن الله عليه بالمكاشفات والتجليات والعطايا والهبات والفتوحات التى لا يستطيع أحد من أصحاب الرسوم أن يتوصل اليها مهما كان حظه من العلم والعقل ••• فأهل النظر من أصحاب الافكار لا يملكون العدة والعتاد للغوص فى بحر الحقائق والاسرار •••

فهم كالجالس على الشاطىء يرى الذى يغوص فى الاعماق فى بحر متلاطم الامواج ، فيحسبه غريقا أو مجنونا يقذف بنفسه الى التهلكة •••

وكما أن الذى يعرف العوم وفن الغوص ليس كالذى لا يعرف ، فكذلك الذى غاص فى بحر المعارف والاسرار ليس كالذى يجلس على الشاطىء ليحكم على شرعية الغوص فى البحر اللجمى •••

فعلوم الاشارة غوص فى بحار المعانى ، وبحث عن الجواهر واللآلىء الثمينة التى يعز وجودها ويعجز غيرهم عن الحصول عليها أو اقتنائها •

فاذا سمع صاحب الاشارة قول عز من قائل :

« سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم »

★ الفتوحات المكية (للمزيد السفر الاول) .

فهو يفهم منه المعنى على وجهين :

الاول : سيرى الايات البينات فى الكون والافاق •

الثانى : سيرى آيات الله فى نفسه •

أى أن هناك وجها خارج عنهم وهذا مجال يشترك الصوفية فيه مع غيرهم فى التفسير والتأويل ، وأما المعنى الاخر الذى يرونه فى نفوسهم فهو خاص بهم ويسمونه اشارة ولا يقولون عنه تفسير ، حتى يأنس من لا يفهمه من أصحاب الرسوم فلا يكيد لهم ولا يتهمهم بالكفر والزندقة ، اذ أن أصحاب الرسوم يجهلون مواقع خطاب الحق تعالى •

لقد عدلت مريم عليها السلام من استخدام العبارة الى الاشارة فى ولادتها عيسى عليه السلام بلا أب ؛ وعندما تجمع القوم حولها ليستنكروا فعلتها جهلا منهم بحكمة الله البالغة « فأشارت اليه » •

فالعبارة التى يمكن أن تدافع بها عن نفسها وعن وليدها لن تكون مقنعة لديهم ، اذ المعنى المقصود اليه ، لن يتحمله لفظ أو عبارة ، اذ أنه يجل عن فهم أصحاب الرسوم •••

والصوفية وهم أهل الله وورثة الرسل يتخذون من الخضر عليه السلام قدوة لهم فى كلامهم وسلوكهم واشاراتهم ، يقول الله تعالى عن الخضر عليه السلام :

« وعلمناه من لدنا علما » (الكهـ

فاذا سمع أهل الرسوم الآيه . قالوا حق وصدق . على علم لا يتأتى الا بطريق التعلم ثم سكتوا عن المعنى الآخر العميق من الآيه الكريمه ، ولم يتعرفوا عليه ، فبدا ما فهموه من الآيه ناقصا مبتسرا . اذ أنهم أخطأوا فى تصورهم أن الله تعالى لا يعلم من ليس بنبى أو رسول •••

لكن الصوفية يفهمون من الآيات التى نزلت فى حـق الخضر عليـه السلام فى حق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

« وعلمك مالم تكن تعلم » (النساء : ١١٣)

يفهمون من هذه الايات ومثلها أن الله تعالى يعلم من يشاء من عباده وليس العلم والحكمة مقصورا على الانبياء والرسل صـلوات الله عليهم ، وانما يجوز أن ينعم ببعضه على أهل الله وعباده الصالحين* .

« يؤتى الحكمة من يشـاء » (البقرة : ٢٠٩)

فالحكمة علم لكنه وهبى وليس بكسبى . ويسميه الصـوفية بعـلم الباطن مثل علم الخضر وعلوم الانبياء •••

لقد تعلم أصحاب الرسوم العـلم من أفواه المتفقهين ، وامتازوا به على العامة ، وطلبوا حظوظ الدنيا لتفوقهم على الخلق والقدرة على التعبير والاخذ من الكتب والقراطيس . لقد حجب هؤلاء عن علم آخـر هو أهم وأبقى حجبوا عن أن يعلموا أن لله عبـادا تولى تعليمهم فى سرائرهم ، وكشف لهم بعض ما أنزله فى كتبه وعلى ألسنه رسله صلوات الله عليهم .

★ الفتوحات المكيه — الجزء الرابع ص ٢٠٨ وما بعدها

حجب أصحاب الرسوم عن تصور وجود علم صحيح قذفه الله فى قلب عبده المؤمن فكان له السراج المنير وأرشده الى الصحيح من المعارف التى لا يشك فيها مؤمن أو غير مؤمن ...

يقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى هذا المعنى :

« ما هو الا فهم يؤتيه الله من يشاء من عباده فى هذا القرآن »[٣٢] .

ويبين لنا على كرم الله وجهه فى هذا المعنى أن فهم القرآن ، انما هو عطاء من الله قدير دون حدود أو قيود ... وفى ذلك يقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن نفسه :

« أنه لو تكلم فى الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين وقرا » .

وكأن أهل الرسوم لا يصدقون هذه الاشارة ، اذ يفسرون الاية على معنى واحد وكأنها عبارة تدل على شىء محدود لكن أهل الله يفهمـون غير ذلك ، فكلما أخلص العبد مع الله كلما تفتحت أمامه المعانى وغرق فى بحـر الاسرار ما تيسر له منها ، وارتشف من رحيقها الزكى ما قدرت عليه نفسه.

انه لبون شاسع بين علماء الاشارة وعلماء العبارة ، ذلك يذوق العسل فيجده أحيانا مرا وما هو بمر لكن به علة أفقدت حاسة التذوق عملها فوجد العسل مـرا ...

وأما علماء الاشارة فذاقوا العسل وعرفوا حلاوته وكلما رجعوا اليه اكتشفوا حلاوة أكثر على حلاوته ولم يستطعموا الا الحلاوة فى كل آن ولم يشبعوا منه قط ولم يزهدوا فيه أبدا ...

---

(٣٢) الفتوحات — الجزء الرابع ص ٢٦٩ .

شتان بين من يدعو الى الله على بصيرة من أمره فيتذوق علم الله ، ويعاين حلاوته ، وبين من يدعو الله على غلبة ظن ، ونظر يمكن أن يخطىء ويصيب كما يفعل أصحاب الافكار من أهل الرسوم والمتفقهين الذين يفتون فى دين الله بغلبة ظن لا عن تجربة ذوقية والهام من الله •

فاذا قال الصوفى من أهل الله « أفهمنى ربى » ، فان المتفقه يعارض بقصور فهمه لما يقول : « ويتهمه بالخروج عن المألوف ويرى نفسه أفضل منه ، وأنه أعلم بالفقه فى الدين منه ، فقد تلقاه عن الفقهاء الكبار ولم يتلق هذا الصوفى علمه عنهم* •

واذا قال الصوفى : « رأيت رسول الله ﷺ فأعلمنى بصحة هذا الحديث المروى عنه وبحكمه عنده سخر منه أصحاب الافكار والنظار وأهل الرسل ، وقالوا من هو حتى يأتيه الرسول يقظة أو مناما » •

واذا قال الصوفى ان الله ألقى فى سره هذا الحكم فى آية من آيات كتاب الله الحكيم ، اتهموه بالبدعة فى الدين ، وأخرجوه عن حظيرة الايمان وربما أقاموا عليه الحد ظلما وعدوانا وافتراء •

يقول أبو يزيد البسطامى مخاطبا أهل النظر من المتفقهين وأصحاب العبارة :

« أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت»

فالفقيه يؤكد على روايته ، فيقول حدثنى فلان عن فلان عن فلان ، والصوفى يقول حدثنى قلبى عن ربى ، وشتان بين القولين فالاول أخذ

★ الفتوحات جـ٤ ص ٢٦٩ وما بعدها .

علمه عن من مات ، فأين فلان هذا الذى مات وأين هو ، فيقول الفقيه انه قد مات ، وأما الصوفى فاذا سئل فيقول : أخذت علمى هذا عن الحى الذى لا يمــوت* .

ولقد كان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه عندما يحدثه أحد ، فيقول له علمت من فلان عن فلان عن فلان قول كذا ، يرد عليه الشيخ أبو مدين قائلا:

« مانريد أن نأكل قديدا ، وانما نريد أن نأكل لحما طريا ، فأتونى به »

وكان ينصح مريديه واخوانه بالحديث عن فلان أو فلان بل يقول لهم أى شىء قلت أنت ، لا ما قاله فلان ، أى ماذا خصــك الله به من العطايا والعلم اللدنى ، أى أنه يريد أن يرفع من هم أصحابه وأن يتحــدثوا عن ربهم بلا وسائط من الخلق والعباد وفى ذلك يقول أبو مدين : أولئك الذين تتحدثون عنهم قد أكلوا لحما طريا ، والواهب الذى أعطاهم بعض علمه لم يمت فكما أعطاهم يعطيكم وهو أقرب اليكم من حبل الوريد فاتركوا فلانا وفلانا وخذوا علمكم من الواهب الذى لا يموت أبدا .

فعلوم الاشارة هى وهب الهى وتعليم ربانى يجهله علماء الرسوم ، ونضرب لذلك مثلا بالاشارة التى يركز عليها أهل الله من الصــوفية ، فاذا اعترى أحدهم هم أو غم فينادى قائلا : يا فرج . فيسمعه شخص آخر اسمه فرج فيأتى اليه فتحدث البشرى والفأل الحسن ، ويتحول الضيق فرجا والعسر يسرا ، والهم نعمة وسرورا ، ويقول فرج الله ان شاء الله ، وينشرح صدره ويزول غمه وهمه .

★ راجع للمؤلف : الحكومة الباطنية .

ويقتدى أهل الله من الصوفية برسول الله ﷺ فى البشرى والفأل الحسن ، فلقد صد المشركين الرسول ﷺ عن البيت . وإذا بأحد المشركين يحضر وكان اسمه سهيل . فقال رسول الله ﷺ سهل الامر ، فكان ما أراد الرسول ﷺ ، وهذا فأل حسن تفاءل به الرسول ، وان لم يكن اسم سهيل مقصودا به تسهيل الامر ولم يكن أبوه قد سماه به الا باعتباره اسماجميلا فحسب . لكن الرسول ﷺ استخدمه فى تسهيل الامر فكان له ما أراد . وكان استخدامه لهذا اللفظ اشارة حتى يكون ذلك سببا للفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر وانشراح الصدر بعد الهم والغم* .

استخدم أهل الله من الصوفية تلك الاشارات واستعملوها فيما بينهم، وشرحوا معناها ، وبينوا مغزاها ، ومتى يستعملونها ، ولقد أوضحوا أن هذه الاشارات لا تستخدم الا عند مجالسة الاغراب من غير أهل الطريق ..

وهذه الالفاظ يتلقاها بعضهم عن بعض ، فاذا جلسوا مع أصحابهم تكلموا بالكلام الواضح والنص الصريح وأما اذا دخل بينهم غريب وحضر مجلسهم من هو ليس منهم تكلموا بعلوم الاشارة ، وبألفاظ اصطلحوا عليها فلا يعرف الاجنبى الجليس ما يخوضون فيه من حديث .

ولا شك أن لكل علم من العلوم مصطلحات يعرف بها ، وألفاظ نتداول بين أصحاب ذلك العلم . وللنحاة ألفاظ ولاهل الهندسة اصطلاحات ، وأصحاب علم الحساب تعبيرات ، وللفلاسفة اصطلاحات وللمتكلمين ألفاظ وتعبيرات لا يعلمها غيرهم ، لكل أصحاب علم اصطلاحات وتعبيرات

---

* للمزيد راجع للمؤلف : الطب النفسى النبوى .

لا يعلمه الدخيل عليهم مثل الصيدلى لا يقرأ تذكرة الدواء الا صيدلى مثله أو طبيب ، فلا يعلم أسرار هذه المهنة الا أصحابها وذلك عن تلقين وتعليم وممارسة ، وبأجازة علمية يحصلون عليها فى هذا التخصص فى العلوم .

لكنه ولو أن علماء الاشارة من الصوفية لهم مصطلحات يعرفون بها وتعبيرات يستخدمونها فيما بينهم حتى كأنها لغة أجنبية لا يعرفها الا أنهم يختلفون عن غيرهم من أصحاب المصطلحات العلمية . اذ أن هذه الاشارات لا تحتاج عند أهل الله الى معرفة مسبقة بالنسبة للمريد الصدق ، فان المريد اذا دخل الى مجلسهم وسمعهم يتكلمون بهذه الاشارات ، فهم كل ما يصدر عنهم دون سابقة تعليم لهذه المصطلحات وهنا يختبر صدق المريد الذى يعلم الاشارة التى يصطلح عليها أهل الطريق دون أن يكون له علم مسبق أو خبر عما اصطلحوا عليه ، ان المريد الصادق اذا فتح الله عليه وتذوق ما يتذوقه الصوفية ، فانه يفهم جميع ما يتكلمون به وكأنه هو الذى وضع تلك الاصطلاحات بل ويشاركهم فيها ولا يجد فى نفسه دهشة واستغرابا ، ولا يدرى كيف حصل فى ذلك المجلس على ذلك العلم ، واما الاجنبى أو الغريب فانه يجلس بينهم ولا يحيط علما بما يقولون ، الا اذا فتح الله عليه فدخل فى زمرة أهل الله .

★ للمزيد راجع :

— الشعرانى : اليواقيت والجواهر .وكذلك الفتوحات المكية جـ٤ ص٢٧٠

الفصـــل الثـــالث

شيخ الصـــوفية الاول

١ ـ الحسن البصـــرى

هو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن الشـــهير بالحسن البصرى[١] الفقيه ، الزاهد ، العابد ، النابذ لفضول الدنيا القائل :

« أن المؤمن يصبح حزينا ، ويمسي حزينا ، ولا يسعه غير ذلك ... لمـــاذا ؟ » .

لانه بين مخافتين ، بين ذنب قد مضى لايدرى ما الله فاعل به ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يبتلى به من المهالك .

اشتهر الحسن البصرى بطول حزنه حتى أن ابن سرين جاء فى الرؤيا لصديق له اسمه ابن حجل فقال[٢] :

أراك فى حال طيبة ، فما صنع الله بالحسن ؟

فقال له ابن سرين :

لقد رفع فوقى الحسن بتسعين درجة .

فقال ابن حجل :

ولمـــاذا ؟ .

---

(١) الطبقات الكبرى : للشعرانى ص ٢٥ جـ١ .

(٢) حلية الاولياء : أبو نعيم الاصبهانى ، جـ٢ ، ص ١٥٠ وما بعدها .

قال : رفع لطــول حزنه .

يقول ابن أبى حزم : سمعت الحسن البصرى يحلف بالله الذى لا اله الا هو لنه عابسح المؤمن فى دينه الا الحزن .

كما ذكر عن الحسن البصرى قوله :

يحق لمن يعلم أنه ذائق الموت ، وأن الساعة لا ريب فيها ، وأنه سيقوم بين يدى الله تعالى بحق لمن يعلم ذلك أن يطول حزنه .

يقول عنه الشعرانى غلب عليه الخوف حتى حسب أن النار لم تخلق الا له وحده[٣] ، وكان يقول : اذا رضى الله عن عبد ،وأراد به خيرا فى الدنيا، له يشغله بأهل ولا ولد .

ويهتف الحسن يوما ويقول :

والله يا ابن آدم ... لئن قرأت القرآن وآمنت بالقرآن ليطــول فى الدنيا حزنك[٤] ، وليشتد فى الدنيا خوفك ، وليكثر فى الدنيا بكاؤك .

ويقول صاحب الحلية عن الحسن البصرى[٥] :

انتهى الزهد الى ثمانية من التابعين ، منهن الحسن البصرى والذى لم نر أحدا من الناس أطول منه حزنا ، وما كنا نراه الا حديث عهد بمصيبة.

---

(٣) الطبقات الكبرى ، للشعرانى ص ٢٥ جـ١ .
(٤) الحزن من أوصاف الصوفية فى سلوكهم وحياتهم ، والمريد الحزين عند ائمة الصوفية ييسر له الانتقال من مقام الى مقام اثناء رحلة مجاهداته ورياضاته أسرع من المريد الذى فقد حزنه ... راجع للمؤلف : الفاظ الصوفية ومعانيها .
(٥) أبو نعيم الاصبهانى ــ حلية الاولياء ص ١٣٤ جـ٢ .

ويؤكد الحسن البصرى على أن أهل بدر كانوا يلبسون الصوف ويزهدون فى الحياة الدنيا ويقول[٦] .

لقد أدركت سبعين بدريا أكثر لباسهم الصوف ، ولو رأيتموهم لقلتم عنهم مجانين ، ولو رأوا الآن خياركم لقالوا ما لهؤلاء من أخلاق ، ولو رأوا شراركم لقالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب .

ولقد رأيت أناسا كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب الذى تحت قدميه ، ورأيت أناسا يمسى أحدهم وليس عنده الا قوت يومه فيقول: لا أجعل هذا كله فى بطنى فيتصدق ببعضه وهو أحوج مما يتصدق به عليه.

لقد أرسل الحسن البصرى كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد يحذره فيه من الدنيا وجاء فى بعضه :

احذر الدنيا الحذر كله ، فانها مثل الحية لين مسها ، وسمها قاتل ، فأعرض عما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها ، وضع عنك همومها لما عاينت من فجائعها ، وأيقنت به من فراقها ...

احذر الدنيا فان أمانيها كاذبة وآمالها باطلة ، وعيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأنت منها على خطر ، اما نعمة زائلة واما بلية نازلة ، واما مصيبة موجعة ، واما منية قاضية ... فلو كان الخالق تعالى لم يخبر عنها بخبر ولم يضرب لها بمثل ولم يأمر بزهد ، لكانت الدار الدنيا قد أيقظت النائم

---

(٦) حلية الاولياء للاصبهانى : ص ١٣٤ جـ٢ .

وتنبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عنها زاجر ، وفيها واعظ ، فمالها عند الله عز وجل من قدر . ولا تزن عند الله مقدار حصاة من الحصى ...

ان الله تعالى حقرها وجعل خيرها ثوابا للمطيعين ، وجعل عقوبتها عذابا للعاصيين ...

ولقد ذواها عن أنبيائه وأحبائه اختيارا وبسطها لغيرهم اعتبارا واغترارا ، ويظن المغرور بها والمفتون بنعيمها أنه انما أكرمه بها ونسى ما صنع بمحمد ﷺ والمختار موسى كليم الله .

فأما محمد ﷺ فشد الحجر على بطنه من الجوع ، وأما موسى فرأى خضرة البقل من صفاق بطنه ، ولم يطلب حين أوى الى الظل الا طعاما يأكله من جوعه .

وفى الاثر أوحى الى موسى ، انه اذا رأيت الفقر مقبلا فقل : مرحبا بشعار الصالحين . واذا رأيت الغنى مقبلا فقل : ذنب عجلت عقوبته .

وأما عيسى — عليه السلام — فكان يقول :

ادمى الجوع ، وشعارى الخوف ، ولباسي الصوف وسراجى بالليل القمر ، ودابتى رجلى ، وصلاتي فى الشتاء فى الشمس ، وفاكهتي ما انبت الله فى الارض للسباع والانعام أبيت وليس لى شىء وليس أحد أغنى منى .

ويستطرد الحسن البصرى يصف حياة بعض الانبياء فيقول :

يأكل خبز الشعير فى خاصته ، ويطعم أهله ردى الدقيق ، فاذا جن الليل لبس المسوح وبات باكيا حتى يصبح يأكل الخشن من الطعام . ويلبس الشعر من الثياب يبغض ما أبغض الله ، ويصغر ما صغر الله ...

ولقد اقتدى الصالحون بمناهجهم وأخذوا بآثارهم ... ونظروا الى آخر الدنيا ولم ينظروا الى أولها ... وألزموا أنفسهم بالصبر ...

ولم يشبعوا منها ، وأكلوا منها بقدر ما يرد النفس ويبقى الروح ، جعلوا الدنيا بمنزلة الجيفة التى قد اشتد نتن ريحها ، فكل من مر بها أمسك على أنفه منها .

ولقد سئل الحسن البصرى مرة عن سمات أصحاب رسول الله ﷺ فبكى ثم قال(٧) :

« ظهرت منهم علامات الخير فى السماء والسمت والهدى والصدق وخشونة ملابسهم ، ممشاهم بالتواضع ، ومنطقهم بالعمل ، ومشربهم ومطعمهم بالطيب من الرزق وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى..واستنددتهم على الحق فيما أحبوا وكرهوا ، واعطاؤهم الحق بدل أنفسهم ، هو أجرهم ونحلت أجسامهم . واستخفوا بسخط المخلوقين لرضى الخالق . لم يفرحوا فى غضب ، ولم يحيفوا فى جور ، ولم يجاوزوا حكم

---

(٧) حلية الاولياء للاصبهانى ص ١٥٠ ج٢ .

الله تعالى فى القرآن ... شغلوا الالسن بالذكر . بذلوا دماءهم حين استنصرهم ، وبذلوا أموالهم حين استعرضهم ، ولم يمنعهم خوفهم من المخلوقين ...

حسنت أخلاقهم ، وهانت مؤنتهم ، وكفاهم اليسير من دنياهم الى آخرتهم .

ومن شرط المتواضع أن يخرج من بيته فلا يرى أحد من الناس الا ويراه أفضل منه[٨] .

ولقد شكى له رجل عن قسوة قلبه فقال له : ادن من مجالس ذكر الله.

ولقد كان الحسن البصرى يرى أن كثرة الضحك . تميت القلب لذلك كان دائما يقول :

ضحك المؤمن غفلة فى القلب ، ورحم الله رجلا لبس خلقا ، وأكل كسرة، والتصق بالارض ، وبكى على خطيئته ، ودأب فى العبادة .

وينصح الحسن البصرى المسلم فيقول له :

يا ابن آدم انك تموت وحدك . وتدخل القبر وحدك ، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك ، أنت المعنى واياك يراد .

---

(٨) الطبقات الكبرى — للشعرانى . وكذلك راجع : الكوكب الشاهق — تحقيق المؤلف — دار المعارف

٢ ـ سعيد بن المسيب

هو أبو محمد سعيد بن المسيب[٩] بن حزن المخزومي ، صاحب عبادة وعفة وقناعة ، كثير الطاعات ، محبا لها ، بعيدا عن المعاصي والجهالات .

روى عن بكر بن خنيس قال :

قلت لسعيد بن المسيب : وقد رأيت أقواما يصلون ويتعبدون :

يا أبا محمد ألا تتعبد مع هؤلاء القوم .

فقال لي : ان ما يفعلون ليس بعبادة .

قلت : فما التعبد يا أبا محمد ؟ .

قال : التفكر في أمر الله والورع[١٠] والورع من محارم الله وأداء فرائض الله تعالى .

ولقد كان سعيد بن المسيب يرى أن أساس العبادة ، التفقه في الدين، والتفكر في أمر الله تعالى .

قال سعيد بن المسيب[١١] : من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة .

ولقد كان سعيد بن المسيب دائم الاشتياق لاداء فرائض الحق

---

(٩) حلية الاولياء .. ابو نعيم الاصبهاني ــ ص ١٦١ــ١٧٥ جـ٢ .

(١٠) الورع سمة غالبة من سمات التصوف وللورع درجات ثلاث : ورع عوام ، ورع الخواص ، ورع خواص الخواص (راجع للمؤلف : الفاظ الصوفية ومعانيها) .

(١١) حلية الاولياء ، ابو نعيم الاصبهاني ص ١٦١ــ١٧٥ جـ٢ .

سبحانه وتعالى وفى هذا المعنى يقول :

ما دخل على وقت صلاة الا وقد أخذت أهبتها ، ولا دخل على قضاء فرض الا وأنا اليه مشتاق •

وعن الاوزاعى أنه قال : كانت لسعيد بن المسيب فضيلة لا نعلمها كانت لاحد من التابعين ، لم تفته الصلاة فى الجماعة أربعين سنة ، عشرين منهـا لم ينظر فى أقفية الناس* •

وروى عن سعيد بن المسيب أنه قال :

ما أكرمت العباد بمثل طاعة الله عز وجل ، ولا أهانت أنفسها بمثـل معصية الله ، وكفى المؤمن نصرة من الله أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله •

خرج سعيد بن المسيب فى ليلة مطر وطين وظلمة •• فأدركه عبـد الرحمن بن عمروابن سهل ومعه غلام يحمل سراجا (مصباح) فسلم عليه عبد الرحمن ، ومشيا يتحدثان حتى اذا حاذى عبد الرحمن بداره انصرف اليهـا ••

وقال للغلام : أمش مع أبى محمد بالسراج •

فقال سعيد : لا حاجة لى بنوركم •• نور الله خير من نوركم •

ولقد قيل لسعيد بن المسيب : ما شأن الحجاج (الحجاج بن يوسف الثقفى) لا يبعث اليك ولا يهيجك ولا يؤذيك •

قال سعيد : والله ما أدرى غير أنه صلى ذات يوم مع أبيه صلاة فجعل لا يتم ركوعها ولا سجودها ، فأخذت كفا من حصباء فحصبته بها •

★ راجع للمزيد الكلاباذى ـــ التعرف لمذهب اهل التصوف . والطوسى

فقال الحجاج بعدها : فما زلت أحسن الصلاة ٠

وفى يوم مرض سعيد بن المسيب فذهب بعض من أصحابه ليعودوه فى داره ، وكان معهم صاحب له يسمى نافع بن جبير فقالت لهم زوجه :

انه لم يأكل منذ ثلاث أيام فكلموه ٠٠٠

فقال نافع بن جبير : أنك من أهل الدنيا ما دمت فيها ، ولابد لأهل الدنيا مما يصلحهم ٠

قال سعيد : كيف يأكل من كان على مثل حالنا هذه ، بعضه يذهب بها انى النار أو الى الجنة ٠

فقال نافع : أدع الله أن يشفيك ، فان الشيطان قد كان يغبطه مكانك من المسجد ٠

قال سعيد : بل أخرجنى الله تعالى من بينكم سالما ٠

ولقد كان سعيد بن المسيب زاهدا فى الدنيا غير مقبل عليها ، حتى أنه دعى الى أكثر من ثلاثين ألف درهم ليأخذها ، فقال :

لا حاجة لى فيها ، ولا فى بنى مروان حتى ألقى الله فيحكم بينى وبينهم ٠ ولقد كان سعيد بن المسيب يحث الناس على التواضع لله عز وجل فيقول :

يد الله فوق عباده ٠٠٠ فمن رفع نفسه وضعه الله ، ومن وضعها رفعه الله* ٠٠٠

★ للمزيد راجع : ابن عطاء ٠ التنوير فى اسقاط التدبير ٠

وروى أن عبد الملك بن مروان قدم المدينة فاستيغظ من قائلته فقال لحاجبه :

أنظر هل ترى فى المسجد أحدا من حداثى ...

فلم ير الحاجب فى المسجد الا سعيد بن المسيب فأشار اليه بأصبعه ، فلم يتحرك ثم أتاه فقال : ألم تر انى أشير اليك ...

قال سعيد : وما حاجتك ؟

قال الحاجب : استيقظ أمير المؤمنين وأمرنى أن أنظر فى المسجد أحدا من حداثه ..

فقال سعيد : لست من حداثه ..

فخرج الحاجب الى عبد الملك بن مروان وقال :

ما وجدت فى المسجد الا شيخا أشرت اليه فلم يقم .. قلت له :

ان أمير المؤمنين أمرنى أن أنظر فى المسجد أحدا من حداثه .

فقال لى : أنا لست من حداث أمير المؤمنين ..

قال عبد الملك بن مروان : ذلك سعيد بن المسيب دعه .

عن ابن أبى وداعة قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب ، ففقدنى أياما فلما جئته قال : أين كنت ؟. فأخبرته بوفاة زوجتى ..

قال سعيد بن المسيب : هل استحدثت امرأة ؟

قال ابن أبى وداعة : يرحمك الله ، ومــن يزوجــنى ؟٠٠ وما أملك الا درهمين* أو ثلاثة ؟

سعيد : أنا أزوجك ابنتى ٠٠٠

ابن أبى وداعة يتساءل فى دهشة : أو تفعل ؟٠

سعيد بن المسيب : نعم ٠٠

ثم حمد الله تعالى وصلى على النبى ﷺ وزوج سعيد بن المسيب ابنته من ابن أبى وداعة على درهمين أو ثلاثة ٠

وكانت بنت سعيد بن المسيب خطبها عبــد الملك بن مروان — أمــير المؤمنين فى تلك الاونة — لابنة الوليد بن عبد الملك حين ولاه العهد ، فرفض سعيد أن يزوج ابنته من الوليد ، فلم يزل عبد الملك بن مروان يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط فى يوم بارد وصب عليه جــرة ماء وألبســه جبــة صــوف ٠

يقول سعيد بن المسيب : فى ليلة دخلت المسجد فقمت أصلى فجلست أدعو فاذا هاتف يهتف من خلفى ٠٠٠ يا عبد الله قل ٠٠

سعيد بن المسيب : ماذا أقــول ؟٠

الهاتف : قل اللهم انى أســألك بأنك مالك الملك ، وانك على كل شيء قدير وما تشاء من أمر يكن ٠٠

سعيد بن المسيب : فما دعوت بها قط بشيء الا رأيت نجاحه ٠

وعن الزهد فى الدنيا وذمها وتحقيرها ، يقول سعيد بن المسيب :

★ حلية الاولياء : جـ٢ ص ١٦١ — ١٧٥ ٠

ان الدنيا نذلة وهى الى كل نذل أميل ، وأنذل منها من أخذها بغير حقها ، وطلبها بغير وجهها ، ووضعها فى غير سبيلها .

وكان سعيد بن المسيب قد دعى للبيعة للوليد وسليمان بعد عبد الملك بن مروان وخير بين خصال ثلاث . وعندما سأل سعيد بن المسيب أتباع عبد الملك بن مروان عن هذه الخصال الثلاث قال له الوالى* :

الاولى : أن تعتزل مقامك ...

سعيد بن المسيب : ما كنت لاغير مقاما منذ أربعين سنة ...

الوالى : أن تخرج معتمرا ...

سعيد بن المسيب : ما كنت لانفق مالى وأجهد بدنى فى شىء ليس لى فيه نية ..

الوالى : الثالثة ، أن تبايع للوليد وسليمان ..

سعيد بن المسيب : لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار ...

فكتب فيه الوالى الى عبد الملك بن مروان فرد عبد الملك قائلا :

مالك ولسعيد : ما كان علينا منه شىء نكرهه ، فأما اذا فعلت فاضربه ثلاثين سوطا وألبسه جبة شعر ، وأوقفه للناس لئلا يقتدون به ...

وكان سعيد بن المسيب يقول لكل من يريد أن يجالسه :

... انهم قد جلدونى ومنعوا الناس أن يجالسونى ...

وكان سعيد بن المسيب يستحث الناس ويدعوهم الى العمل ... الاموال ، حتى يتسنى لهم الانفاق فى سبيل الله عز وجل ، وفى ذ

لا خير فيمن لا يريد جمع المــال من حــلال يعطى منه حقه ويكف به وجهه عن الناس* ..

عن سعيد بن المسيب انه قال :

لا خير فيمن لا يحب هذا المــال يصل به رحمه ويؤدى به أمانتــه ويستغنى به عن خلق ربه ..

وكان سعيد بن المسيب قد رأى صاحبا له يرتدى جبة جيدة فمدحها سعيد لصاحبه ، فرد عليه صاحبه بأن هذه الجبة ما تغنى عنــه وانما هى أفسدت ، فقال سعيد : أصلح قلبك وألبس ما شئت ...

عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« أول ما يرفع من الامة الامانة .. وآخر ما يبقى الصلاة .. ورب مصل لا خير فيه » .

عن سعيد بن المسيب قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من اعتز بالعبيد أذله الله »

عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضى الله عنها ـ أن رســول الله ﷺ قال :

« ان لكل شىء شرفا يتباهون به ، وأن بهاء أمتى وشرفها القرآن » .

★ للمزيد فى هذه النقطة : ابن عطاء ـ الحكم العطائية .

٣ — مالك بن دينـــــار

ترك شهوات الدنيا وخالف هوى نفســـه فغلبها وملكهـــا ، كان حاله الخوف وهو العارف بالله الذى لا يطاول ، يقـــول مالك بن دينـــار : ان الصديقين اذا قرأ عليهم القرآن طربت قلوبهم الى الاخرة .

ويروى عنه أنه وجد فى بعض الكتب : سبحوا الله أيها الصـــديقون بأصوات حزينة* .

وهتف مرة فى بعض المسلمين وقال يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ؟ ان القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الارض ، فان الله ينزل الغيث من السماء الى الارض فتكون الحبة لا يمنعها النتن من أن تنمو وتخضر وتحسن ، فيما حملة القرآن ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ؟.

سمع مالك يقول قرأت فى التوراة :

« يا ابن آدم لا تعجز ان تقوم بين يدى فى صلاتك باكيا ، فانى أنا الله الذى اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نورى » .

ويروى عنه قوله لقد قرأت فى بعض الكتب أن الله تعالى يقول ان أهون ما أنا صانع بالعالم الذى أحب الدنيا ... أن أخرج حلاوة ذكرى من قلبه.

ويرى مالك بن دينار أنه اذا لم يكن فى القلب حزن خرب ، كما أنه اذا لم يكن فى البيت ساكن يخرب .

ويقول ابن دينار أن الكلب اذا أعطى الذهب والفضة لم يعرفهما واذا أعطى العظم انكب عليه . كذلك هم السفهاء لا يعرفون الحق .

★ حلية الاولياء — جـ٢ (مالك بن دينار) .

كان مالك يبكى بكاء شديدا فيبكى معه الجالسون وهو يناجى ربه قائلا :

اللهم أقبل بقلوبنا اليك حتى نعرفك حسنا ، وحتى نوعى عهدك ، وحتى نحفظ وصيتك حسنا ، اللهم اجعلنا من الابرار وألبسنا لباس التقوى ، اللهم انا نتوب اليك قبل الممات . ونلقى بالسلام ، اللهم أنظر الينا نظرة تجمع لنا بها الخير كله . خير الاخرة وخير الدنيا .

ويقف هاتفا : « يحسبون أنى أعنى بخير الدنيا الدينار والدرهم ... لا انما أعنى بخير الدنيا العمل الصالح . حتى ألقاك يا ربى لو ألقاك وأنت عنا راض رغبة ورهبة اليك يا اله السماء واله الارض » .

ثم يعاود مالك البكاء فيبكى المجتمعون لبكائه .

لقد كان مالك مخالفا لنفسه ، مراقبا لها ، محاسبا على زلاتها .

يقول عن نفسه : قال رجل من أصحاب رسول الله رأيت النفس أن أنا أكرهتها ونعمتها ذمتنى غدا أمام الله ، وان أنا أتعبتها وأرهقتها مدحتنى غدا أمام الله ، هذه النفس هى نفسى .

ويقول : أنا مع نفسى فى جهاد* .

يقول فى التربية النفسية : ان البدن اذا سقم لم يقبل طعاما ولا شرابا ولا نوما ، ولا راحة . كذلك الامر بالنسبة للقلب اذا تعلق بحب الدنيا لم تنجح فيه الموعظة .

* للمزيد راجع : الشطنوفى — الاسرار ، للشيخ عبد القادر الجيلانى

ويبين لنا مالك بن دينار خطر حب الدنيا على المؤمن فيقول : اتقــوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء .

وينصح المؤمن فيقول تعهدوا أنفسكم قــلوبا وأبدانا بالضــنك فى المعيشة والوهن فى العبادة ، لقدكانت عند مالك بن دينار ركوة (قربة ماء) فأعطاها لغيره .

فقيل له : لمــاذا فعلت ذلك ؟

فقال : اذا دخلت المسجد جاءنى الشيطان وقال لى ان الركوة قــد سرقت . فقد شغلت نفسى أو أنشغل بها قلبى .

سئل مالك بن دينار مرة لمــاذا لا تتزوج ؟

فقال : لو استطعت لطلقت نفسى .

لقد كان يمضى عليه العام ولا يأكل رطبا ولا عنبا ولا بطيخا ، ويقول لاحد أصحابه فى ذلك : انى لاشتهى رغيفا لينا بلبن رائب ، فينطلق صاحبه ويأتى به فيأخذه مالك ويقلبه وينظر اليه ويقول : اشتهيت منذ أربعين سنة، فغلبتك ، حتى كان اليوم وتريد أيها الرغيف أن تغلبنى ، أغرب عنى ، وأبى أن يأكله* .

ويقول عن نفسه أنه لتأتى على السنة بأكملها لا آكل فيها لحما الا فى يوم عيد الاضحى ، ويستطرد قائلا لقد اشتريت لاهلى مرة طيبا بدرهم وانى لا أحاسب عليه نفسى منذ عشرين سنة ، فما أجد لنفسى مخرجا .

ويحكى عن نفسه أنه أصبح لايملك دينارا ولا درهما ، ولئن لم يتشفعنى الله بالخير ما كانت لى دنيا ولا آخرة .

★ راجع للمزيد : ألفاظ الصوفية — للمؤلف — المجاهدة .

لقد كان ينام على آدم من ليف يشتريه كل عام بفلسين ، وكان يدخل فى المسجد فيأخذ حصى ، ويقول لوددت أن هذه تكفيتى فى الدنيا ما عشت لا أزيد على معها من الطعام والشراب .

لم يكن هناك من أحد يطيق ما يطيق مالك بن دينار ، كان يعيش على الجوع والسهر قائما ساجدا راكعا ، راضيا يكتب المصحف فى أربعة أشهر ولا يأخذ عليه أجرا ، ازاره (ملبسه) من الصوف* .

ولقد وقع حريق فى بيته مرة فقيل له : البيت .. البيت يا مالك .

فقال : ما لنا فيه من شىء ما أبالى أن يحترق .

يقول مالك فى موعظة : لو استطعت أن لا أنام لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم ، ولو وجدت أعوانا لفرقتهم فى سائر الدنيا ينادون يا أيها الناس النار .. النار .. النار .

وهكذا نرى فى منقب مالك بن دينار الاسوة الحسنة لمن أتى بعده من صوفية الاسلام فهو الخشن الثياب ، الخائف من ربه ، الجائع ، القـائم بالليل والاسحار ، رکل الدنيا راغبا فى القرب من الله راجيا فى وعـد الله ، خائفا من وعيد الله ، فاستحق بذلك أن يكون من الصادقين الذين وعدهم الله بالحسنى ، والجلوس فى مقاعد الصديقين والابرار .

★ راجع للمزيد : حلية الاولياء جـ٢ (مالك بن دينار) ١٦٩ـــ١٧٥ .

٤ ـ السرى السقطى

السرى بن المفلس السقطى ، هو خال شيخ الطائفة أبا القاسم الجنيد وأستاذه .

كان مثالا يقتدى به فى الورع والتزهد ، قال للجنيد مرة :

لو أن ضيفا جاء ليقابلنى ، فسويت لحيتى قبل دخوله على ، لخفت أن يعذبنى الله على ذلك بالنار ..

لكن هذه الواقعة ان فعلها لاحد منا لا تؤثر عليه ولا يحاسب نفسه عليها لانها عادة يفعلها كل الناس عندما يدخل عليهم بعض الضيوف فيظهرون فى أحسن مظهر لمقابلتهم . فما هو السر الذى يجعل السرى السقطى يحسب أن الله سيعذبه بالنار ان سوى ذقنه عند دخول ضيفه ..

اعتقد أنه يريد أن يكون طبيعيا وصادقا فى ملاقاة الناس ، فلا يظهر عليهم بمظهر الخادع ، فان التأنق والتألق أمامهم يعنى أنه يريد أن يستظهر عليهم ويبين لهم اكتماله شكلا وموضوعا وهذا من باب الرياء ، ولماذا لا يظهر أمام الله قبل أن يظهر أمام الناس بالمظهر المتأنق والله أولى بذلك من كل الناس ، فاذا عكس الاية وظهر أمام الناس بما يجب يظهر به أمام الله ، فانه يستحق عذاب النار .

ومن كلمات السرى السقطى المأثورة قوله :

من النذالة أن يأكل العبد بدينه[١٣] .

---

(١٢) حلية الاولياء المجلد العاشر ص ١١٦ .
(١٣) المرجع السابق ص ١٧٧ .

ويذم السرى من يأكل بدينه . لانه يريد أن يأكل الانسان بكدموعرقه، لا بكد غيره وعرقه ، ويعتبره مذموما ويصفه بأنه نذل لانه بعيد عن الايثار والعفـــــة ...

أصيب مرة بالسعال ، فأرسل له أحد أصحابه ابنــه بشيء من دواء للسعال ، فقال له السرى : كم ثمنه ؟ فقال الابن : لم يقل لى أبى .

فقال له : اقرأ عليه السلام ، وقل له نحن نعلم الناس منــذ خمسين عاما ألا يأكلوا بالدين ... أفترانا اليوم نأكل بالدين ..

دق على بن الحميد الغضائرى الباب على السرى الســـقطى يوما ، فسمعه من وراء الباب يقول :

« اللهم اشغل من شغلنى عنك بك »

ويقول الغضائرى :

« كان من بركة دعاء السرى أن حججت أربعين سنة من حلب ماشيا على رجلىَ » ..

ويحدد السرى السقطى المقامات التى على المريد أن يعتليها ويقسمها الى تسع أقسام :(١٤)

المقام الاول : أن يكون المريد متحببا الى الله بالنوافل .

المقام الثانى أن يتزين عند الله ، وذلك بسماع نصيحة الامة .

---

(١١٤) حلية الاولياء جزء ١٠ ص ١١٨ .

المقام الثالث : أن يأنس بكلمات الله البينات .

المقام الرابع : أن يصبر على أحكام الله .

المقام الخامس : أن يتميز بالاثرة لامر الله فيه .

المقام السادس : أن يكون لديه حياء من نظرة الله له .

المقام السابع : أن يكون باذلا للمجهود فى سبيل محبوبه (الله) .

المقام الثامن : الرضـا بالقليل .

المقام التاسع : والقناعة بالخمول ...

لقد كان السرى السقطى آية فى محاسبة نفسه على نقائصها وعيوبها ويحكى عنه بهذا الصدد أنه قال : خفيت على علة فى نفسى منذ ثلاثين سنة ، ذلك أننى كنت وجماعة نصلى الجمعة مبكرين فى ركن معين بالمسجد ، وتصادف وجود جنازة لاحد أصحابى يوم الجمعة فتأخرت قليلا عن ميعادى ، وعندما أقدمت على المسجد قالت لى نفسى : الان يرونك وقد أصبحت تتأخر عن وقتك ، فشق على ذلك ..

فقلت لنفسى : الان علمت أنك مرائية منذ ثلاثين سنة وأنا لا أدرى .

واستطرد السرى قائلا* :

بعدها تركت المكان الذى كنت أصلى فيه ، وبدأت أصلى فى أمكنـة مختلفة حتى لا يعرف أحد مكانى ...

★ حلية الاولياء جـ ١ ص ١١٩ .

سماه الشيخ أحمد بن حنبل بطيب الغذاء ، وذلك لورعه وتصوفه حتى انتشر ذلك عنه[١٥] .

لقد كان السرى السقطى يفتش دوما عن عيوبه قبل أن ينتقد غيره ، وهذه من أخلاق الفاروق عمر بن الخطاب الذى كان يؤدب نفسه عندما تريد علوا واستظهارا على الناس ، اذ أنه كان يحمل فوق رأسه الدقيق ليوزعه على من اشتم أنه قصر فى حقهم ، من الارامل والمساكين وهو أمير المؤمنين ..

وهكذا نجد أن السرى السقطى لم يبتعد عن الاقتداء بالصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وهم كما قال رسول الله ﷺ : أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .. (متفق عليه)

٥ ـ أبو القاسم الجنيد
(ت ٢٩٧ هـ)

هو محمد الجنيد بن محمد الزجاج رضى الله عنه ، ولد بنهاوند من أعمال العراق كان يفتى الناس على مذهب أبى ثور ، صحب السرى السقطى ، والحارث المحاسبى ومحمد بن على القصاب[١٦] .

كان شيخ الصوفية فى عصره ، وحدد الجنيد التصوف تحديدا بليغا ، فقال :

« التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى وأصله الصرف عن الدنيا « .

---

(١٦) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ١ ص ٧٢ .

ويروى عن الجنيد قوله :

« اذا رأيت الفقير فلا تبدأ معه بالعلم ، وعليك أن تبدأ معه بالرفق ، فان العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه » .

ومن أقواله المأثورة عن النبيين والصديقين :

« غايتهم عليهم الصلاة والسلام عن حضور ، وكلام الصديقين اشارات عن مشاهدات » .

ومن هذا يتضح أن الجنيد قد ربط بين التصوف الاسلامى ، وبين شخصيات الانبياء بعامة ، والرسول ﷺ بخاصة . عندما قال بأن غاية الانبياء الحضور مع الله ، وكما هو معروف فان الصوفية غايتهم الاسترسال مع الله والاستسلام له تعالى ، حتى يصلوا الى قدم الانبياء صلوات الله عليهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد ربط بين الصديقين وبين الصوفية ربطا محكما ، فيتحدث عن اشارات المشاهدات والمشاهدات هى رمز من رموز الصوفية واشارة من اشاراتهم* .

ويعتبر مقام الصديقية من أعلى المقامات فى التصوف .

ويروى حجة الاسلام الامام أبو حامد الغزالى أنه المقام الرابع ، أو أعلى المقامات التى يتوصل اليها الصوفى فى كل مكان وزمان .

جاء رجل الى الجنيد ، ومعه خمسمائة دينار أعطاها للجنيد ليوزعها على الفقراء فقال له الجنيد : ألك مال غير هذا .

★ راجع للمؤلف — الفاظ الصوفية — (الاشارة) .

فقال الرجل : نعم .

قال الجنيد : أتطلب زيادة على ما عندك .

قال الرجل : نعم .

فقال الجنيد : الخمسمائة دينار هذه لك .. لانك اليها أحوج منا ...

لم يقبل الجنيد هذا المال الذى تبرع به صاحبه لانه وجده يحب الدنيا ، والذى يحب الدنيا يحب زينتها وزخارفها ، وما يتبرع به من مال ، انما هو من أجل طلب الثناء على أفعاله وأعماله ، وليس من أجل القربى من الله ...

ويختلف الجنيد فى مقام الشكر عن الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، اذ أنه كان يرى : أن الشاكر طلب لنفسه المزيد من فضل الله وعطاياه ، فهو طالب من الله أن يزيده فى حظوظ نفسه .

ويرى الجنيد أن الشكر على الحقيقة انما هو أن يرى الشاكر نفسه ليس أهلا لرحمة الله فى دعوته بل يرى نقصه وعيبه دوما .

أما أبو الحسن الشاذلى فيختلف عن الجنيد فى مقام الشكر ، فيرى أنه يتوجب الشكر فى كل حال سواء كان بالنعمة أو بالنقمة .

وهذا الاختلاف ليس اختلافا جوهريا كما يبدو فى ظاهره انما الصوفية يأخذون علومهم من مشرب واحد ، الا أن اختلافهم راجع الى اختلاف أحوالهم فحسب .

☆ للمزيد راجع للمؤلف : الفاظ الصوفية (الشكر) .

يروى عن الجنيد قوله عن التصـــوف أنه مبنى على ثمانيـــة مبادىء أخلاقية مستقاة من هدى الانبياء (١٧) .

الاول : السخاء ، عن الخليل ابراهيم عليه السلام .

الثانى : الرضا، عن اسحاق عليه السلام .

الثالث : الصبر عن أيوب عليه السلام .

الرابع : الاشارة ، عن سيدنا زكريا عليه السلام .

الخامس : الغربة ، وهو لسيدنا يحيى عليه السلام .

السادس : لبس الصوف ، وهو لموسى علبه السلام .

السابع : السياحة ، عن سيدنا عيسى عليه السلام .

الثامن : الفقر ، وهو لرسول الله ﷺ .

ويعتبر الامام الجنيد بهذه المبادىء الاخلاقية التى اتسم بها الانبياء والرسل صلاوات الله عليهم قد أصل التصوف الاسلامى تأصيلا صـــادقا لا ريب فيه ولا جدال اذ أن أخلاق الصوفية قائمة على الحقيقة على هذه المبادىء الاخلاقية فى علومهم وسماتهم وممارساتهم فى الحياة الدنيا ، فاذا خرج المتصوف عن مبدأ من هذه المبادىء فيعتبر قد خرج عن الطريق .

ويفرق الامام الجنيد بين نوعين من المعرفة .

النوع الاول : المعرفة الحاضرة وهى التى يمكن الحصـــول عليهـــا بالمدركات الحسية .

---

(١٧) الطبقات الكبرى ــ للشعرانى جـ١ ص ٧٣ .

أما النوع الثانى : فهى المعرفة الغائبة ولابد لها من الدليل . ويقصد الكتاب والسنة .

ويرى أنه ما دام الله تعالى غير باد لحواسنا كانت معرفته سبحانه وتعالى لا تتم الا بالدليل والفحص . وهذا رد رائع على الذين يخوضون فى ذات الله وصفاته من المتفلسفة والمتكلمين الذين ليس لديهم أدلة أو حجج انما يتوهمون بعقولهم ويظنون بغير علم ولا هدى مما يوقعهم فى الانحراف عن الطريق القويم .

وفى رأينا أن الامام الجنيد يعد بحق من شيوخ الصوفية الاوائل الذين ترسموا طريق الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ولم يغلو أو يقصر عن السير فى أعتابهم والتمسك بآيات الله البينات وبأحاديث الرسول ﷺ وبصحابة رسول الله رضوان الله عليهم .

الفصـــل الرابـــع

١ ـ أصول التصوف الاسلامى فى نظرة ابن خــلدون

يعتبر العلامة ابن خــلدون[١] رائد عــلم الاجتماع أن التصــوف الاسلامى علم من العلوم الشرعية الحادثة فى الاسلام .

والتصوف الاسلامى فى نظرى له أصول عند الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، فطريقة الصوفية انما هى طريق السلف الصالح وهو طريق الحق والهــداية .

والتصوف فى رأى ابن خلدون أصله العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه العامة من الناس من اللذات وطلب المــال والجاه .

ولقد كان الصحابة كما أورد ابن خلدون ينفردون عن الخلف فى الخلوة للعبادة ، ويقول أن ذلك كان عاما فى الصحابة والسلف الصالح ..

ويبين لنا ابن خلدون فى مقــدمته[٢] أن السبب فى شــيوع اســم الصوفية راجع الى أنه قد فشى الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى ، وبعد كثير من الناس عن العبادة ، وجنحوا الى مخالطة أهل الدنيا .

لذلك اختص المقبلون على الله العكوف على العبادة باسم الصــوفية والمتصوفة وكأن ابن خلدون يرد على مزاعم بعض المستشرقين والمستغربين

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٦٧،٤٦٨ المكتبة التجارية .

(٢) المرجع الســابق .

عندما يتقولون على الصوفية ، ويدعون أن هذا التصوف لا أصـل له من الشريعة ؛ فيقول فى ذلك : « وسار علم الشريعة على صنفين » :

١ — صنف اختص به الفقهاء وأهل الفتيا وهو الاحكام العـامة فى العبادات والمعاملات .

٢ — صنف اختص به الصوفية ، وهو في القيام بالمجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام وفى الاذواق والمواجد وكيفية الترقى في ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التى تدور بينهم فى ذلك .

ويستطرد العلامة ابن خلدون[٣] :

فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء فى الفقه ، وعلماء الكلام فى الكلام ، وعلماء التفسير فى التفسير ، دون رجال من أهل التصوف كتبا فى الورع ومحاسبة النفس ، ويستشهد فى ذلك بما فعـله القشيرى فى كتاب « الرسالة » ، والشهروردى فى كتاب « عوارف المعارف » ، كما جمع الامام الغزالى بين الامرين وذلك فى كتاب « احياء علوم الدين » .

كتب الإمام الغزالى عن الورع والإقتداء ثم بين آداب الصـوفية وسننهم ، وشرح اصطلاحاتهم وأدق معارفهم .

وأصبح علم التصوف الاسلامى علما مدونا بعد أن كان التصوف عبارة عن عبادة فحسب ، والحقيقة أن التصوف مثله فى ذلك مثل علم الفقه والكلام والتفسير والحديث ، كان علما يتلقى من صدور الصحابة والسلف وان لم

---

(٣) مقدمة ابن خلدون ٤٦٨ .

يكن فى القرن الاول والثانى قد دون مثل كثير من العلوم الاسلامية الا أنه كان على الحقيقة موجودا فى صدور الصحابة والتابعين وتابع التابعين .

لقد كان الشغل الشاغل للصحابة فى الصدر الاول للاسلام هو العمل الجاد على حفظ وترتيب القرآن بالسنة ، ثم أصبحت الحاجة ماسة الى تدوين العلوم فدونت علوم الفقه والتفسير والحديث ثم نشأ علم الكلام ، ثم التصوف أو كما يسميه ابن خلدون « الطريقة » أو آداب القوم .

ان المجاهدة والخلوة والذكر ، يتبعها غالبا — كما يقول ابن خلدون — كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس ادراك شيء منها .

ان الانسان بما هو انسان[٤] يتميز عن سائر الحيوانات بالادراك ، وادراك الانسان على نوعين :

١ — ادراك للعلوم والمعارف ، وهى متدرجة من اليقين الى الظن الى الشك ثم الوهم .

٢ — ادراك للاحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك .

ويرى ابن خلدون[٥] انما ينشأ العلم من الادلة ، أى الاساليب والحجج والدلائل ، أما الفرح والحزن فانما ينشأ عن ادراك المؤلم أو اللذيذ ، كما ينشأ نشاط من الجماع وكما ينشأ الكسل عن الاعياء .

---

(٤) مقدمة ابن خلدون ٤٦٨ .

(٥) المرجع السابق ص ٤٧٨ .

ويستنتج ابن خلدون من ذلك أن المريد فى الطريق الصوفى يتحصل فى كل مجاهدة على حال ، أى نتيجة لتلك المجاهدة ، وذلك الحال اما أن يكون عبادة تترسخ فى نفسه فتصير له مقاما . واما أن تكون صفة للمريد ، وهذه الصفة تكون حاصلة للنفس كأن تكون حزنا أو سرورا أو كسلا أو نشاطا الى غير ذلك من مقامات .

وينتهى ابن خلدون الى القول أن المريد ما يزال يترقى من مقام الى مقام الى أن يصل فى النهاية اذا صدق الى التوحيد والمعرفة التى هى الغاية المطلوبة للسعادة .

فالهدف النهائى للمريد الصادق فى الطريق الصوفى — فى رأى ابن خلدون — هو الوصول الى التوحيد وشهود أن لا اله الا الله ، ويؤيد ذلك بالحديث النبوى من قول الرسول ﷺ :

« من مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة »[٦] .

ويريد ابن خلدون أن ينبه على أن الترقى من حال الى حال ومن مقام الى مقام ، لابد أن يبدأ بالايمان والطاعة والاخلاص وهنا تصاحب مجاهدة المريد الاحوال والصفات ، وتأتى عنها نتائج وثمرات ، فاذا وقع تقصير من المريد أو خلل فى الثمرات التى يتحصل عليها فانما ذلك نتاج لالتفات المريد الى الحظوظ الدنيوية ، أو لوجود آفات كالخواطر النفسية أو الشيطانية .

لذلك يحتاج المريد الى اعادة النظر الى نفسه وعلاج عيوبها ، والرجوع الى محاسبة نفسه فى سائر أعماله لان النتائج مقترنة بالاعمال ...

---

(٦) مقدمة ابن خلدون ٤٧٨ .
رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده وكذلك الجامع الصغير مع اختلاف فى اللفظ : من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة .

الفصـــل الخـــامس

نمـــاذج من أوليـــاء الصـــوفية

١ ـــ الشـــيخ أحمـــــد الرفاعى

ولد الشيخ أحمد الرفاعى فى أم عبيدة وهى جزيرة قرب واصـــك فى محافظة البصرة بالعراق فى خلافة المستظهر بالله الخليفة العباسى الثانى •

وقد قام بتربيته خاله الشيخ منصور البطائحى(٧) :

ويمتد نسب أحمد الرفاعى الى الحسين ـــ رضى الله عنه ـــ من ناحية أبيه والى الحسن ـــ رضى الله عنه ـــ أيضا من ناحية أمه ، ولذلك سمى بأبى العلمين •

عمل فى جميع الحرف ليضمن لنفسه لقمة العيش حتى لا يعتمد على أحد من الناس ، وليتمكن من اللحاق بمجالس العلم فى أى بلد وكل مكان وجد فيه علماء •

كان يقتدى بالرسول ﷺ فى أخلاقه وسلوكه فلم ير قط وهـــو يأكل أمام الناس ولا ينام أمامهم ، بل ولم يعرف أحد مكان نومه ، ولم يخرج قط ولم يتكلم قط من غير سبب ، ولا يستطيع أحد أن يكلمه من غير سبب ، ولم يكن يفرح فرحا شديدا ولا يحزن حزنا شديدا(٨) •

يقول الرفاعى : كل أخ لا ينفع فى الدنيا لا ينفع فى الاخرة •

---

(٧) صلاح عزام : أقطاب التصوف الثلاثة . تقديم د. عبد الحليم محمود ص ١١ ـــ ٢٩ طبعة ثالثة .

(٨) ابو بكر العردروس : القطب الكبير الرفاعى ص ٤٧ الطبعة الاولى .

كما كان يقول تأكيدا لسنة الرسول ﷺ : اذا تعلم أحدكم شـيئا من الخير فيعلمه الناس يثمر له الخير[٩] .

وتتلخص طريقة الشيخ أحمـد الرفاعى على أسس متينة من الدين القيم والشريعة السمحاء .

ومعنى هذه العبارة أن الطريقة الرفاعية قائمة على الفقه فلا يسأل أحد شيئا وانما رزقه على الله ، اذ أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى ويمنع ، وهذا كان حال الصحابة والتابعين لا يسألون الناس الحافا . بينما يأتى اليهم الرزق لا يزيد ولا ينقص . وليس معنى ذلك عدم السعى من أجل لقمة العيش ، فقد كان رضى الله عنه يعمل ـ كما سبق الاشارة ـ فى كل الحرف حتى يضمن لقمة العيش وكان مريدوه يقتدون به فى العمل والسعى من أجل الرزق ، ولم يكن أحد منهم عالة على غيره .

وأما معنى قوله « لا ترد » فهذا أيضا اقتداء بالرسول ﷺ فلم يكن يرد فقيرا أو مسكينا أو صاحب حاجة ، وكان الصحابة على عهد رسول الله يفعلون مثله فلم يكن يردون من طرق بيوتهم سائلا أو محتاجا حتى وان لم يكن عندهم الا طعام يومهم اذ كانوا يقدمونه للمحتاجين والسائلين ، فان الله هو المعطى ، والمـال مال الله تأييدا لقول عز من قائل :

« يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[١٠] .

---

(٩) الشعرانى : الطبقات الكبرى حـ١ ص ١٢٢ .
(١٠) الحشر : ٩

والنقطة الثالثة فى القواعد الثلاثة التى يبنى عليها أحمد الرفاعى طريقته هى « لا تدخر » ، وهذا أيضا اقتداء بالرسول ﷺ فقد توفى ولم يترك شيئا لاهله ، انما كان يقول نحن معشر الانبياء لا نورث ولقد دفع أبو بكر الصديق رضى الله عنه بماله كله فى سبيل الله ، فلما سأله الرسول ماذا أبقيت لاهلك ؟ قال : الله ورسوله •

فالرفاعى لم يكن بدعا فى عدم الادخار اقتداءا بالرسول والصحابة والتابعين الا أن الصوفية بعامة والرفاعى بخاصة يرون أن الادخار يشغل المرء عن عبادة الله اذ المال يصبح حجابا بين العبد وربه ، فعدم الادخار انما هو نوع من اسقاط التدبير مع الله ، كما يبين ذلك ابن عطاء الله السكندرى[١١] •

وكان الشيخ أحمد الرفاعى ينفذ قواعده الثلاثة يوميا ، اذ كان يحمل الحطب والماء الى بيت الارامل والعجزة والمساكين ، ويقدم لهم ما يحتاجونه حتى كان مريدوه وأتباعه يتسابقون فى أعمال البر وخدمة المحتاجين ، حتى أن الامام الشعرانى يقول[١٢] : لقد جعل أحمد الرفاعى من أم عبيده مكانا لا يحس الفقير فيه بأزمته فيما يحتاج اليه ، ولقد انتشر هذا الامر من أم عبيدة الى القرى والمدن التى تجمع فيها أتباع الرفاعى •

ليس فى الطريقة الرفاعية تبطل أو انعزال أو سلبية انما خدمة للناس والمريد الصادق هو العامل المجاهد برغم ضيق وقته فى التعليم ونشر الطريقة وارشاد مريديه ، فان الرفاعى لم يتهاون فى العلم والعمل جميعا •

---

(١١) راجع للمزيد (التنوير فى اسقاط التدبير) .
(١٢) الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٢٢ .

ولقد طلب اليه بعض مريديه أن يتفرغ لمسئولياته الثقافية وأن يقوم غيره بالعمل فيرد فى تواضع وثقة :

ان تجارتى خدمة الارامل واليتامى والمحتاجين وانى لاحب أن أشهد نفسى فى خدمتهم دائما ، واذا رأيت يتيما يبكى تهتز مفاصلى وترتعد أعضائى حنانا له وشفقة عليه ، وانى ليحزننى بكاؤه حزنا عميقا .

ألم يكن هذا السلوك العملى هو سلوك عمر بن الخطاب عنـــدما كان يحمل الحطب والطعام الى الارامل والمساكين ، ويقول : اذا اشتكت امرأة فى أطراف المدينة فان أمير المؤمنين مسئول عن حاجتها .

لقد ألزم أحمد الرفاعى نفسه بأخلاق الصحابة الذين هم النجــوم الزاهرة فى سماء الاسلام والذين قال فى حقهم الرسول ﷺ : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »(١٣) .

لقد كان أحمد الرفاعى يأخذ بأيدى العميان ويساعدهم ، واذا رأى شيخا كبيرا ذهب الى جيرانه وأوصاهم به خيرا ، اذا سمع عن مريض فى قرية ركب اليه ليعوده حتى ربما يمشى اليه ويرجع فى يوم أو يومين .

لقد كانت كلماته النورانية تدخل الى القلوب بغير حجاب ، لقد كان قلبه العامر بالايمان صافيا من كدورات الدنيا وغواية الشـــيطان ، وكان ينصح مريديه ، فيقول لهم(١٤) :

---

(١٣) رواه السيوطى فى الجامع الصغير .
(١٤) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٢٤ .

« لا يحصل لعبد صفاء الصدر حتى لا يبقى فيــه شيء من الخبث ، لا لعدو أو لصديق » .

وهذه المرتبة التى يتكلم عنها الامام الجيلانى ليست الا المرتبة الدنيا فى الولاية ، اذ أن الولى الصادق لا يحمل فى قلبه حسدا ولا حقدا ولا عداوة لاحد ، اذ أن قلبه سليم من كل العداوات ، ولذلك فان ظاهــره كباطنــه ، وباطنه كظاهره . فلا يعرف الرياء أو الكذب أو الخداع .

لكن هناك مرتبة فى الولاية أعلى من هذه المرتبة وهى أن يكون باطن الانسان أفضل من ظاهره ، وتسمى هذه المرتبة بالولاية الكبرى .

وأما العامة من الناس فيكون ظاهرهم أفضل من باطنهم ، فاذا أخلص العبد وأصدق النية وتجنب الرياء والكذب فانه يرتفع الى مــرتبة الولاية الصغرى فيكون قلبه وعقله ونفسه جميعا فى توافق واتساق فاذا اشــتد اخلاصه كان باطنه أفضل من ظاهره .

ولم يكن ذلك الطريق الذى انتهجه الرفاعى شاذا عن السنة الشريفة فان الرسول ﷺ يقــول :

« ان فى الجسد لمضغة (القلب) اذا صلحت صلح الجسد كله »[١٥].

رحم الله الرفاعى فقد كان قطبا من أقطاب الاسلام ، ومثلا يحتذى به فى الفكر والسلوك والاخلاق .

---

(١٥) حديث متواتر .

٢ ــ الشيخ عبد القادر الجيلانى

ولد الشيخ عبد القادر الجيلانى عام ٤٧٠ أو ٤٧١هـ • على ما رواه بعض المؤرخين بجيلان أو كيلان أو جيل وهى قرية بشاطىء الدجلة على بعد ٢٠ــ٢٥ ميل من بغداد •

قالت أمه انه لما كان رضيعا كان يرفض الارتضاع فى نهار شهر رمضان الكريم ، وكان سنه فى ذلك الوقت أقل من عام ، وقد نشأ نشأة صالحة فى العلم والخير • وكان نحيف البدن ، ربع القامة عريض الصدر واللحية أسمر مقرون الحاجبين ، أدعج العينين ، ذا صوت جهورى بهى الطلعة جميل الهيئة آدم اللون •

كان على صغر سنه يحضر مجالس العلماء والفقهاء وكان بعضهم(١٦) يجله اجلالا عظيما ، ويقول لمن حضر بالمجلس قوموا لولى الله • وربما كان يمشى اليه بعض العلماء ويتلقاه بالترحاب ويردد دائما قوله : « من لم يقم لهذا الشاب لم يقم لولى الله » • وقال بعضهم ان هذا الشاب يجب أن تتواضع له رقاب الاولياء فى عصره اذ هو قطبهم ، فمن أدرك منكم ذلك الوقت فيلزم حديثه : أى يطيعه ويلتزم بكلامه لانه لا ينطق الا حقا وصدقا •

يروى أنه ذهب مرة مع ابن السقا ، وكان من أصحاب النظارة كما كان معهم عالم آخر يدعى عبد الله لزيارة بعض الاولياء المشهود لهم بالصلاح

---

(١٦) الشطانوفى : الاسرار : راجع الغنية : عبد القادر الجيلانى

ببغداد ، وفى الطريق قال ابن السقا : أسأله سؤالا لا يدرى له جوابا ·· وقال عبد الله اسأله عن مسألة فانظر ما يقول ، أما سيدى عبد القادر فقال: معاذ الله ان أسأله شيئا وانما أذهب للتبرك به ··· فلما دخلوا جميعا الى مجلس الولى الصالح ، قال الولى لابن السقا : ويلك يا أبا السقا أتريد أن تسألنى عن مسألة لا أعرف لها جوابا ··· هى كذا وجوابها كذا ··· انى لأرى نار الكفر تلتهب فيك ، وأنت يا عبد الله تريد أن تسألنى وتنظر ما أنا مجيب ··· هى كذا وجوابها كذا ··· لتحزن عليك الدنيا الى شحمة أذنيك باساءة أدبك ·

أما أنت يا شخ عبد القادر لقد أرضيت الله ورسوله بأدبك وسيكون لك شأن عظيم وفعلا ظهرت للشيخ عبد القادر امارات المقرب من الله وأقر العلماء بفضله وعلمه ، وأجمع عليه العام والخاص من الناس ·

أما ابن السقا فبرع فى العلوم الشرعية ، وفاق فيها أهل زمانه،وبعث الى ملك الروم رسولا ففتن بابنته وأبى الملك أن يزوجها له الا اذا تنصر فتنصر وزوجه اياها وصدقت فيه نبوءة الشيخ ·

أما عبد الله فأكره على نظارة الاوقاف ، وأقبل بعدها على الدنيا اقبالا شديدا وصدق فيه قول الولى الصالح ، تكلم الشيخ الجيلانى على الناس ناصحا وواعظا عاما من سنة ٥٢١هـ الى ٥٦١هـ ، وكانت مدرسته يؤمها خلق كثير يحضر مجلسه العلماء والمشاريخ وغيرهم ويقرأ بمجلسه القرآن بلا ألحان وكان بدون ما يقول أربعمائة عالم ، ويروى أنه كان يخطو على رؤوس الناس خطوات وهو بالمجلس ثم يرجع الى كرسيه مرة أخرى ·

قال له بعض مريديه مرة : « انا نصوم مثلما تصوم وتصلى ، ونجتهد مثلما تجتهد وتصلى ، وما نرى من أحوالك شـــيئا » ؟ فرد رضى الله عنـــه مجيبا : زاحمتمونى فى الاعمال ، أتزاحمونى فى المواهب (الاحوال) والله ما أكلت حتى قيل لى بحقى عليك كل ، ولا شربت حتى قيل لى بحقى عليك اشرب . وما فعلت شيئا حتى أمرت بفعله .

كان اذا أحضر أحد مريديه مالا لتوزيعه على الفقـــراء والمحتاجين لا يلمسه بيده فاذا جاء خادمه قال له خذ ما تحت السجادة واعطه لفلان وفلان ...

وكان تعليمه لمريديه يقوم أساسا على اعتبار أن الدنيا قيد عن الاخرة، والاخرة قيد عن رب الدنيا ، ويرى الشيخ عبد القادر الجيلانى أن يسلك الطريق بأمور أهمها :

١ — انه يتوجب على المريد أن يعرض عن الدنيا ويقبل على الاخرة .

٢ — ثم عليه بعد ذلك أن يعرض عن الاخرة ويقبل على الحق تعالى .

فاذا بحثت عنك الدنيا فلا تجدك ، واذا سألت عنك الاخـــرة فلا تجـــدك ، فيسأل عنك والى أين ذهبت فيقال : « ذهب الى باب الملك » . فتجد الدنيا والاخرة فى طلبك ويسرعان فى السير خلفك ويصلان اليك وأنت عنـــد باب الملك ، فتشكو الدنيا حالها الى الملك وتشكو كيف تركت ودائعك وحظك منها ... وهنا تأتى الشفاعة اليك فى حقها وتأتيك الوصية من الملك بالاخذ من الدنيا والنظر الى الاخرة فترجع أيها المريد فى صحبة الملائكة وأرواح النبيين فتجلس بعد ذلك على كرسى بين الجنة والنار ، بين الدنيا والاخرة ، بين

الخلق والخالق ، بين الظاهر والباطن ، بين ما يعقل ولا يعقل ، وبين ما يدرك مرة وما لا يدرك، ويقرر سيدى عبد القدر الجيلانى أنه فى هــذه الحالة يصير للمريد أربعة وجــوه :

١ — وجه تنظر به الى الدنيا .

٢ — ووجه تنظر به الى الاخرة .

٣ — ووجه تنظر به الى الخلق .

٤ — ووجه تنظر به الى الخالق .

فالذى يزهد فى الدنيا يكون غريبا فيها ويسمى زاهــدا ، أما العارف فهو غريب عنها أى يزهد فى الدنيا والاخرة فلا تشغله الدنيا ولا الاخــرة عن ربه عز وجل ، ولا يسكن الى شىء سواه ، فلا جرم أن يكون غريبا عن الخلق فى الدنيا مشغولا بالحق عن الاخرة ؛ فلا تشغله الدنيا والاخــرة . وهذا معناه أن الله تعالى غطى الدنيا عن نفسه ، وغطى الاخرة عن قلبه بل غطى وجهه عما سوى الله تعالى ، فكشف له الاشياء جميعها الظاهرة والباطنة حتى عرضها وفتح له باب قربته تعالى ، فرأى جلاله وجماله ورأى قضاءه وقدره وملكه وسلطانه .

وقد قسم بعض أئمة الصوفية[١٧] الزهد الى درجات ثلاث هى :

(أ) الحد الاقصى للزهــد :

اصطلح الزهاد على أن الزاهد الذى لا يدخــر مالا أو طعاما ، من غذائه لعشائه هو فى الدرجة العليا من الزهد أو بالحد الاقصى من الزهد .

---

(١٧) ابن المبارك : كتاب الزهد .

(ب) الحـــد الاوسط للزهـــد :

أما الزاهد الذى يدخر طعاما أو مالا ليوم فهو فى الدرجة الوســطى من الزهد[١٨] .

(جـ) الحـــد الادنى للزهـــد :

وفيه يعتبر الزاهد فى الدرجة الدنيا اذا كان ممن لا يدخر طعاما أو مالا لمدة لا تزيد عن سنة ، ويعتبر من أصحاب لدرجة الدنيا من الزهـــد . ويسمى الزهاد هذا النوع من الناس « بضعاف الزهاد » . أما الذى يدخر مالا أو طعاما حسب هذا التقسيم أكثر من ســـنة ، فليس هـــو من طبقة الزهاد .

٣ — ســيدى أحمــد البــدوى

أجمع الباحثون والصوفية على أن سلسلة نسب السيد / البـــدوى تمتد الى الامام على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، كما قرر البعـــض أن أسرته من أصل قريش وأنها انتقلت الى مـــدينة فاس بالمغـــرب حـــوالى عام ٧٣هـ .

وقد ولد البدوى عام ٥٩٦هـ وقيل أن أمه قد رأت فى المنام عند ولادته من قال لها : « أبشرى فقد ولدت غلاما ليس كالغلمان »[١٩] .

وقد رحلت أسرة البدوى الى مكة وهـــو ما يزال صـــبيا لم يجـــاوز السابعة من عمره . ولكن يبدو أن هذه الرحلة تركت أثرا كبيرا فى تكوين

---

(١٨) راجع احياء علوم الدين للامام الغزالى — الجزء الثالث عشر ص ٢٤٥٨ وما بعدها .

(١٩) الشيخ جمال الدين الاتاكى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٢

شخصية البدوى . حيث أنهم قد مروا بمصر ومكثوا بها أكثر من خمس سنوات ، ويبدو أن البدوى خلال اقامته بمصر قد أحب أهلها بدليل رجوعه اليها والاقامة بها بعد ذلك .

وفى مكة اشتهر السيد البدوى وعرف بين أهلها ، ثم حدث له حال ، وتغيرت أحواله وأعتزل الناس ولزم الصمت ، وكن لا يتكلم الا بالاشارة، وفيما يروى عنه أنه أمر فى منامه أن يرحل الى طنطا ، وبشر بحال سيكون له فيها شأن عظيم[٢٠] .

وفى هذا الصدد يروى بعض المؤرخين انتقاله الى طنطا فيقول :

« ثم رأى الهاتف فى منامه يقول له : أحمد سر الى طندتا (طنطا) ، فانك تقيم بها، وتربى بها رجالا وأبطالا : عبد العال ، وعبد الوهاب ، وعبد المجيد ، وعبد المحسن ، وعبد الرحيم ...

وهؤلاء هم تلاميذ البدوى المدفونون حاليا بطنطا .

ويرى صاحب نور الابصار أن البدوى دخل طنطا ولم يكن يعرف أحدا من أهلها . وكان يمكث أربعين يوما فأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، ثم نزل مرة قرية فيشا وتورمت عيناه ، فوجد صبيا وطلب من بيضة ليضعها على عينيه ، فقال له الصبى وكان عبد العال (تلميذه) : أحضر لك البيضة وتعطينى الجريدة الخضراء التى معك ، فقال له : نعم .. فلما طلب الصبى من أمه البيضة رفضت ، فرجع فقال له الشيخ : « أئتنى بواحدة من

٢٠ المرجع السابق

الصومعة ، فذهب الطفل وأحضرها له » • ومن يومها لم تنقطع الصلة بين البدوى وعبد العال • وهذا يدل على أن السيد البـدوى كان من أصحاب الفراسـات » •

وللبدوى أسماء كثيرة نذكر منها أنه سمى بالسيد • وهو أجل القوم شهرة لانتمائه الى النبى ﷺ ولزعامته ورياسته ، كما سمى بالقطب النبوى لان صفاته وحياته ومنزلته ومقامه تنبىء عن قطبانية بدون واسطة للنبى ﷺ ، كما سمى بالزاهد لزهده اذ مات ولم يترك شيئا ، وأبو فراج لكشفه الغموم والازمات ، وهو عطاء من الله •

وللسيد / أحمد البدوى سمات وصفات عديدة منها أنه كان ملازما للصيام وكان يطوى أربعين يوما لا يذوق فيها طعاما ولا شرابا ، واشتهر عنه قوله : « ركعتان بالليل خير من ألف ركعة بالنهار » •

وكان البدوى من العباد الذين اختارهم الله لاجراء الخير على أيديهم من قضاء خدمة الى تيسير مصلحة للمسلمين أو خـلاف ذلك ، ويبدو أن هذا ناتج عن أخلاقه العربية ، حيث كان من عرب البـادية الذين يعتزون بشخصيتهم وكرامتهم •

واذا كان لانبياء الله معجزات فان لاوليائه سبحانه وتعالى كرامات ومن كرامات البدوى أنه مر برجل يحمل قربة لبن ، فأومأ اليه بأصـبعه فانكسرت القربة وانسب اللبن منها ، وخرجت منها حية وقد انتفخت ، وهذا دلالة على أنه كان من أهل البصيرة النافذة • ..

وهناك قصة الحجر الاسود الذى شاع أن عليه قـدم النبى ﷺ ، وأرسل أحد السلاطين الجند لاحضاره ، فلم يقدروا على ذلك ، فخافـوا ورجعوا[٢١] ، وهذا الحجر ما زال موجودا بضريحه يشاهده الزوار ، وهذه القصة لها دلالتها على أنه من الاولياء الكمل ، أصحاب التمكين ، والمقامات الرفيعـة .

هذه بالاضافة الى أن هناك كرامات أخرى للسيد / أحمد البدوى لا تحصى ولا تعد موجودة بالمراجع وكتب الصوفية اذ يجتمع فيه كثير من الاعتقادات ، والكرامات مثل شفاء المرضى وتفريج الكروب ، ونصرة المظلوم وقضاء الحاجات ... الى غير ذلك .

وتعد الجامعة التى أنشأها السيد / البدوى والتى يمكن أن ندعوها الجامعة السطوحية من أكبر أعماله على الاطلاق ، فقد خرجت وما زالت تخرج حتى الان علماء الفقه والدين الكثيرين ، الذين أناروا طريق المعرفة والحق والدين .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود عن هذه الجامعة : لقد كان السطح جامعة الهداية ، وهى جامعة عالمية ، تقبل كل التلاميذ من جميع الاقطار وتصدرهم الى جميع الاقطار أيضا .

وقد تخرج فيها الشيخ البعلبكى ، وقد حمل الدعوة الى الشـام ، والشيخ خليل الشامى والشيخ نعمه الصفدى ، والشيخ عز الدين الموصلى،

---

(٢١) للمزيد من البحث راجع الحكومة الباطنية للمؤلف ص : ١٥٠ وراجع الش[illegible]انى — طبقات الصوفية ص : ١٥٨ .

ومن اليمن الشيخ على الكبراوى والشيخ علوان ، والى مكة الشيخ بشر وغيرهم كثير[٢٢] .

وهكذا نجد أن مدرسة البدوى خرجت منها مدارس جديدة افتتحت لها فروعا كثيرة فى أنحاء المعمورة تهدى الناس الى الرسالة المحمدية وتدعو الى الدين الحنيف والفضيلة والحق والاخلاق .

٤ ــ ابراهيم الدســوقى

هو ابراهيم الدسوقى القرشى الهاشمى توفى عام ٦٧٦هـ ، عن ٤٣ سنة وهو شيخ للطريقة البرهمانية وصاحب المحاضرات القدسية والعلوم الدينية وهو أحد الائمة الذين أظهر الله لهم المغيبات وخـرق العـادات والولاية الراسخة[٢٣] .

ولقد عاش الدسوقى حياة غريبة فى نوعها ، فـلم يكن ممن يؤثرون الاحتراف والعمل فحسب بل كان ذا ميل شديد الى المعـرفة ، باحثا عن الحقيقة ، مجاهدا فى طريق الحق .

وقد حفظ القرآن وتفقه فيه وتعمق فى الفقــه ، ويروى أنه حفــظ أحاديث الرسول ﷺ ولم يكن قد تجاوز الثانية عشر من عمره .

ويقول الدسوقى عن نفسه : قد وليت القطبانيــة فـرأيت المشرقين والمغربين وما تحت النجوم ، وصافحت جبريل عليه السلام[٢٤] .

---

(٢٢) د. عبد الحليم محمود : السيد / أحمد البدوى ص ٦ وما بعدها دار الشعب سنة ١٩٦٩ .

(٢٣) الشبلنجى : نور الابصار ص ٢٤٢ .

(٢٤) الامام الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٤٣ وما بعدها .

وجدير بالذكر أن البدوى والدسوقى كانا على اتصـــال دائم . وأن كلاهما يقتدى بالسلف الصالح ، ويتعمق فى دراسة المجتمع الذى يعيش فيه ويحل ما يقلبله من مشاكل الطالبين .

وهكذا نجد أن العصر الذى عاشا فيه كانا عصرا زاخرا اذ اجتمع فيه أقطاب كثيرون وعلى رأسهم البدوى والدسوقى . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على أن الدعوة الاسلامية واحدة وأن الطريق الصوفى واحـــد ، وأن أسلوب العمل واحد ، وانهما كانا يدعوان الى توحيد صفوف المسلمين، وانهما سارا على نهج واحد ، مهتدين بكتاب الله مقتدين بالاسوة الحسنة رسول الله ﷺ .

وللدسوقى كرامات عديدة منها — على سبيل المثال — أنه أرسل ذات يوم أحد مريديه الى الاسكندرية لشراء بعض الاحتياجات فتشاجر هناك مع أحد الباعة وحضر الشرطى وقاده الى القاضى . وكان القاضى جبارا يكره الصوفية فحبسه ، ولمـــا علم الدسوقى أرسل للقاضى أبياتا من الشـــعر ، فجمع القاضى أصحابه وسب الدسوقى ، وقال لاصحابه : أنظروا ما كتب لى مدعى الولاية ، وقرأ عليهم القصيدة وهو يسخر ويضحك حتى تلى تلك الابيـــات :

سـهام الليل صـائبة مرامى ... اذا وقرت بأوتار الخشـوع
يقومهــا الى المـرمى رجال ... يطيلون السجود مع الركوع
بألسنتهم تهمهـم فى دعـاء ... بأجفان تفيض من الدمـوع
اذا وترن ثم رمـين سـهما ... فما يغنى التحصن بالدروع

وعندما وصل فى القراءة الى : « اذا وترن ثم رمين سهم » خرجت من الورقة سهم الى قلب القاضى الذى مات فى الحال .

وهذه الواقعة ان كانت تبدو عند البعض غير متفقة مع منطق العقل ، الا أن هناك ما يؤيدها ، ففى الحديث القدسى :« من عادى له وليا فقدأذنته بالحــرب » .

وقوله تعالى : « الا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»(٢٦)

وقوله تعــالى أيضا : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا والاخرة »(٢٧)

والواقع أن شهرة الدسوقى — رضى الله عنــه — تزداد مــع الزمن انتشارا يهرع اليه فى الوقت الحاضر كثير من الزائرين ، ومن المتوسلين بشفاعته فى سيل لا ينقطع صباحا ومساء ، ونجد مسجده الذى يتوســطه ضريحه يزداد مع الزمن اتساعا وعمارة .

٥ — سيدى عبد الرحيم القنائى

٥٣١هـ — ٥٩٣هـ

علم من أعلام أهل الحق على الارض ، وراية مرفوعــة على أرض لا اله الا الله .

ولد فى ترغاى بالمغرب ، تعلم القرآن ولم يبلغ الثامنة من عمــره ، وجلس مكان والده فى التدريس ولم يبلغ العشرين ، وقد جمع بين ثقافــة

(٢٥) متفق عليه .
(٢٦) سورة يونس : ٦٢ .
(٢٧) سورة يونس : ٦٤ .

المغرب والمشرق ، ثم سافر الى الحجاز فى الخمسة والعشرين حيث التقى بالشيخ تقى الدين القشيرى الذى دعاه للاقامة فى قنا أو قوص ، ومن خلال رؤى عديدة توجه الى قنا ، وهنا صدر قرار بتعيينه شيخا لقنا ومن يومها لقن بالقنائى .

عمل بالتجارة حتى لا يحتاج لمعاونة أحد ولينفق على طلاب العلم ومن أجل ذلك اتسعت تجارته وكانت تدر عليه ربحا عظيما .

ولا يعتبر القنائى شيخ طـريقة كالبـدوى والدسـوقى والرفاعى والشاذلى ، ولكنه أنشأ مدرسـة كاملة للعلم الصـوفى لا تقل تنظيما عن الطرق الاخرى .

اهتم القنائى بالعلم باعتباره أصل العقائد ، وبالعمل ، فكان يدعو من يأتى الى حلقة علمه باتخاذ حرفة والى مزيد من العمل لمن يعمل الى جانب العلم ، فالعلم والعمل متلازمان ، والعمل عنده من أجل الخير كله ولمن حوله وللحياة التى خلقها الله لنـا[٢٨] .

كما اهتم القنائى بالتفرقة بين الروح والنفس وضرورة الفصل بينهما ، فالروح عنده أعلى جوهر فى النفس لاتصالها بخالقها ، فهـو الذى يعلم وحده ماهيتها ، أما النفس فهى الحالة فى الجسد تستمد كيـان حياتها من وجود الروح بينها وبين الجسـد[٢٩] .

---

(٢٨) صلاح عرام — أقطاب التصوف الثلاثة ص ١٨ .

(٢٩) الشعرانى — الطبقات الكبرى

وهناك حبل بين الروح والنفس . فاذا صعدت الروح بطل عمل النفس فيموت الجسد معها وتذوب النفس مع الجسد ، أما الروح باقية برجوعها الى ربها .

كراماته :

له كرامات كثيرة حيا وميتا . منها :(٣٠)

كان سيدى عبد الرحيم عندما يسمع المؤذن يقول « أشهد ألا اله الا الله » ، ويقول « شهدنا بما شاهدنا » . فسئل عن أى شىء شاهدت فيرد « شهدت مقام الوحدانية » .

عن الشعرانى أنه اذا قال يا فلان تكلم على العلماء فيتكلم فى معانى الايات والاحاديث حتى لو كانت(٣١) هناك عشرة آلاف (قضـــية) محيرة تكلم فيها ، فاذا قال له : اسكت ، فلا يجد ذلك العامى معه كلمة واحدة من تلك العلوم التى كان يتكلم فيها .

وقال أحد العارفين لو كنت حاضرا أثناء وفاة سيدى عبـــد الرحيم ما مكنتهم من دفنه ، بل كنت أتركه فوق ظهر الارض فكل من نظر اليه نطق بالحكمة .

قال عن سيد عبد الرحيم القنائى الحافظ المنذرى : « أحـــد الزهاد المشهورين والعباد المذكورين ، بهرت بركاته على جماعة من صحبه ، وتخرج عنه جماعة من أعيان الصالحين لصالح أنفاسه(٣٢) » .

---

(٣٠) الشعرانى — الطبقات الكبرى ص ١٣٥ جـ١ .
(٣١) السيوطى — حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٢ .
(٣٢) الطبقات الكبرى — الجزء الأول ص ١٣٥

وقد قال عنه الشعرانى ضمن عظماء العارفين ، صاحب الكرامات المشهورة الخارقة ، والانفاس الصادقة . له المحل الارفع من مراتب القرب، والمنهل من مناهل العلم وهو أحد من جمع الله له بين علمى الشريعة والحقيقة ، وأتاه مفتاح من علم السر المصون . وكنزا من معرفة الكتاب والحكمة .

ورغم أن سيدى عبد الرحيم ليس له طريقة محددة الا أن له أتباعا منتشرين فى أقاصى الصعيد والوجه البحرى ويقام عند مولده احتفال ضخم لا يختلف كثيرا عن احتفال البدوى ويحضر اليه نفر غفير من المحبين وافراد الطرق الصوفية .

٦ — سيدى أبو الحسن الشاذلى

٥٩٣ هـ — ٦٥٦ هـ

هو أمام وقطب الطريقة الشاذلية وعميدها ومؤسسها ، بدأ حياته باحثا عن المعرفة ، حافظاللكتاب والسنة ، ملازما لمجالس العلم حتى بهر الناس بعلمه الغزير وأدبه الجم وطلبو منه أن يتولى التدريس لهم .

ذهب سيدى أبو الحسن الى كل مكان ليتعلم ثم رجع الى قريته غمارة قرب مدينة سبته والتقى بسيدى عبد السلام بن مشيش حيث كان له أثر كبير عليه وقال له مرة :

« حدد فى قلبك الايمان تجد الله فى كل شىء » ، وعند كل شىء ومحيطا بكل شىء . وقع كل شىء . وقريب من كل شىء .

وتبين [٣٣] معالم مدرسته بلسان أستاذه عندما دخل عليه أحد مريديه فقال له « وظف لى وظائف وأورادا » ، فغضب الشيخ منه وقال له :

« أرسول أنا أوجب الواجبات ؟ » الفرائض معلومة والمعاصى مشهورة ، فكن للفرائض حافظا والمعصى رافضا ، احفظ قلبك من ارادة الدنيا وحب النساء وحب الجاه ، وايثار الشهوات ، واقنع من ذلك كله بما قسمه الله لك اذا خرج لك مخرج الرضا ، فكن لله فيه شاكرا واذا خرج لك مخرج السخط فكن عنه صابرا » .

وعلى هذا المنهج سار ابو الحسن الشاذلى [٣٤] . وكان ينصح مريديه دائما بالاعتدال . والقاعدة العامة عنده : « اعرف الله وكن كيف شئت » ، وذلك من عرف ربه تعلق قلبه به وامتلا بحبه فلا يتأتى منه الا الفضيلة .

لذلك نرى أبا الحسن الشاذلى فى الجانب المادى البشرى غير مترمت فى المأكل والمشرب ، يحب الخيل ويقتنيها ويركبها فارسا ، ويركبها فى المواسم الدينية .

كثرت صور كفاح أبى الحسن الشاذلى فى الخدمة العامة وفى الخدمات للمظلومين والشفاعة عند الحكام ومدافعا ومحاميا ، حتى قال ابن دقيق العيد فى ذلك : « جهل ولاة الامور بقدر الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه لكثرة تردده فى الشفاعات » .

---

(٣٣) الشيخ محمد محمود السطوحى — شيخ مشايخ الطرق الصوفية — كتاب التصوف وأقطابه ص ٥٠—٥١ .

(٣٤) د. عبد الحليم محمود — أبو الحسن الشاذلى ص ٤٨—٥٠ أعلام العرب سنة ١٩٦٧ .

وقال ابن عطاء الله السكندرى فى هذا : « ان هذا الامر لا يقوى عليه الا عبد متخلق باخلاق الله ، بذل نفسه واذلها فى مرضات الله وعلم وسبح برحمة الله ، فعامل عباد الله متمثلا بقول رسول الله ﷺ :

« الراحمون يرحمهم الله،ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء»

لقد كثرت سياحات ابى الحسن الشاذلى ، وكانت كلها هجرة الى الله وذهابا اليه ، وفرارا نحوه ، وما كان لها من هدف الا ان يخلو وربه ، وان ينسى كل شىء « ليملا » قلبه بالله .

وفى اجتماع بين الاعلام فى المحلة لنصرة الوطن فى حرب الصليبيين كان معهم أبو الحسن واذا ما جن الليل أخذوا يتدارسون الرسالةالقشيرية، وطلبوا من أبى الحسن ليلتها أن يتكلم فلما فرغ قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « اسمعوا هذا الكلام الغريب ، القريب العهد من الله » .

ويعد أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه صاحب مدرسة فى التصوف الاسلامى تقوم أساسا على مشرب علمه الشاذلى لتلاميذته وهو الشكر لله، واذا كان الامام الغزالى يعد مبشريه الصوفى ، هو المجاهدة فى سبيل الله ، بالعلم والعمل جميعا ، فان الشاذلى بدأ بحال الشكر لله الذى ثبت وأصبح مقـــامه .

ولقد علم تلاميذته الذين انتشروا فى مشارق الارض ومغـــاربها أن الاساس الاول للوصول الى القربة من الله ، ويتحدد هذا الطريق فى اسقاط التدبير معه تعالى ، وكان يقول لمريديه : (دبروا ألا تدبروا مع الله) .

وهذا المنهج الذى اتبعته المدرسة الشاذلية قد ملأ الافاق علما وايمانا غزيرا بالله ، الامر الذى نشر دعوة لا اله الا الله فى أنحاء المعمورة فدخلت طوائف عديدة الى الاسلام عن طريق المدرسة الشـــاذلية التى دعت الى الحب والرحمة والايثار ، وهى منابع أصلية فى شريعة الاسلام .

ويحتفل أصحاب الشاذلى بذكرى مولده ومولد سيدى أبى العباس المرسى تلميذه الاكبر وخليفته فى رياسة الشاذلية ويقام احتفال ضخم من جميع أفراد الطريقة والطرق الصوفية المختلفة ويسيرون حاملين الدفوف والاعلام مرددين الاذكار والاشعار الصوفية حتى يصلوا الى مقام سيدى أبى العباس المرسى بالاسكندرية .

الفصـــــل الســـــادس

حقيقـــة التصـــوف

الفصـــل الســادس

١ ـ التصــوف والخير الفاضــل

اذا كان علم النحو لاصلاح اللسان . والطب لحفظ الابدان،والحساب لمعرفة المواقيت والازمان ، والكيمياء لتعــلم النسب بالتجربة والبرهان ، والفقه لاصلاح العمل بالاركان ، والاصول لتحلية الايمان بالايقان ...

فان التصوف علم قصد به اصلاح القلوب من نزع الشيطان وافراد العبودية لله الواحد الديان ...

ولقد كثرت الاقوال فى اشتقاق الكلمة ، هل هى من الصوف أم الصفاء أم الى أهل الصفة أم هى صفة لاهل المحاسن الذين تخلوا عن الاوصاف والصفات المذمومة وتعلوا بالصفات المحمودة .

ويرد أبو الفتح البستى الصوفى قائلا[١] :

تنازعــوا النــاس فى الصــوفى واختلفــوا
وظنــه البعــض مشــتقا من الصـــوف
ولســتُ أمنــح هــذا الاســم غير فتى
صـــافى فصــوفى حتى سمى الصــوفى

والايمان لا يدخل الى القلب بكثرة القيل والقــال ، ولا التحصـــيل والاكتساب اذ يلزم أن يكون العقل خاليا من الطيش والسفه والجنوح عن الرشاد ، وأما القلب فيكون سليما صحيحا طاهرا نظيفا تقيا نقيــا ، وأن تكون النفس قد تخلت عن الاوصاف المذمومة وتحلت بالاوصاف المحمودة.

---

(١) قواعد التصوف ــ أبو العباس بن زروق . مكتبة الكليات الازهرية.

لذلك عمد أهل الحق بمعالجة أمر نفـــوسهم ، واصـــلاح ما عطب فى قلوبهم ، ومداومة التفتيش والبحث عن عيوبهم النفسية . ونقائصهم وذلك بمخالفة مطالب النفس الشهوية ، والحد من حظوظها ليستقيم حال النفس، لتكون قابلة باستمرار على الاستمداد من الحق تعالى مقتدية فى ذلك بسنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

فكيف يدخل الايمان الى القلب ، والنفس ذئوب . والعقل جانح طائش مسرف فى أمره ، وقد حجب القلب فى ظلمة فى النفس ، يعانى الاســقام والاوجاع والامراض ...

يحتاج الانسان دوما الى كنس الباطل والطمــع والبخــل والشره والغرور والاغترار والعجب والحسد والحقد والتجبر والاستعلاء ...

ومهما عظم علم الانسان — ولم يتخلــص بعــد من هــذه العيوب والافات — فان علمه ينفع غيره دونه ، فكأنه كالحمار يحمــل أسفارا ، لا يعرف ما يحمله رغم أنه يحمله ، وكان أولى به أن يعرف ما يحمل لا أن يعرفه غيره دونه.

لذلك اهتم الصوفية بالعمل وربطوا بين العلم والعمل برباط وثيق ، وهذا الرباط هو الاخلاص ، فاذا ما قطع حبل الاخلاص ، وأصبح العلم فى جانب والعمل فى جانب آخر ، حدث الفصام العقلى ، وفسد العلم والعمل جميعــا ...

يقول الرسول ﷺ :

« من عمل بما علم أورثه الله علم مالا يعلم » (متواتر)

واذا سمعنا حديث الرسول ﷺ :

« أفضل العلم العمل وأفضل العمل الاخلاص » (متواتر)

علمنا أنه من لا يطبق العلم على العمل ، فيجعل عقله فى واد وقلبه فى واد ، يردد الاقوال دون الاستفادة منها ، ويقلد العلماء ويحاكيهم وهو أبعد عن ذلك العلم فى تطبيقه والاقتداء به •

لقد نزع ذلك العالم عن قلبه ونفسه وعقله جميعا الاخلاص فى العلم والعمل ، فضاع ما تعب فى تحصيله ، وأغلق على نفسه باب المذلة فما يفتح عليه من الكشف شىء ولا أورثه تعالى علما •••

واذا ما فصل الانسان بين علمه وعمله ولم يذكى نفسه بالاخلاص ، استطاع الشيطان أن ينفذ الى حصن نفسه المتهالك ، ويدخل الى مسكنه بيسر وسهولة ، فيقعد على بابه ويمكن حزبه وجنوده من الاستيلاء على حصنه ، ونشر الفتن والفوضى والفساد •••

ويطلب الانسان النجدة ، ويتوسل الى ذلك بكل الوسائل ، لكن الله تعالى لا يهدى اليه الا من اهتدى :

« ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » (غافر : ٢٨)

واذا ما تاب الانسان وأصلح ، ورجع عن غيه ، وندم على سالف فعله ودعا ربه ، وأخلص فى دعائه ، تفضل تعالى بنصرته وأبعد عنه كيد الشيطان ••

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا «

(النساء : ٨٣)

فالشيطان عدو الانسان الاول ، والحرب بينه وبينه مستمرة الى أن تقوم الساعة ، وهدف الشيطان الاول والاخير الضلال المبين :

« يريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا » (النساء : ٦)

ان هدف الصوفى أن يعد نفسه اعدادا مستقيما سليما ظاهرا وباطنا بالعلم والعمل والاخلاص ، حتى يتقوى حصن نفسه فلا يهاجمه الشيطان وزبانيته خلسة ، فيصدونه عن أمر الله . ويهدمون ما أجهد نفسه فى اقامته وما بذله من طاعات طوال عمره .. فاذا نجح فى هذا السبيل فانه يحظى بقرب الله وعونه ونصره .. فيرى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولا يقال أن طريق الصوفى يبتعد بنا عن الوسط العدل الذى هو الخير الفاضل للنفس والعقل والجسم والقلب جميعا ، اذ أننا عرضنا أن خير النفس فى استقامتها واعتدالها ، ولن يتحقق لها ذلك الا بالتخلية من كل وصف مذموم والتحلية بكل وصف محمود ، وكذلك فان أسباب نزف العقل وجنوحه عن الوسط العدل وهوال خير الفاضل ، انما ثمرة للاغترار والتعالى والاستعلاء ، وهذا اسراف وافراط وغلو . وعلاج ذلك انما يتطلب التواضع والايثار كما أن الجبن والمذلة والخنوع يحد من التفريط والضعف والنقصان ، مما يستوجب الشجاعة والعفة والشهامة . وكذلك الامر بالنسبة للقلب فالقلب المريض يحتاج للوصول الى وسطه العدل وخيره الفاضل،والى الصحة القلبية أن يمسح عنه الرياء والكذب والاغترار وهذه هى الادواء التى تبعده عن الصحة والسلامة ، ويكمن العلاج فى الاخلاص والصدق والحق .

وهذا ما يؤكد عليه الصوفية ولا يجدون دونه علاجا نافعا لعقل وقلب ونفس الانسان ، وكما أن البدن يعالج بأضداد . فكذلك النفس أيضا ، فاذا كانت حرارة البدن تعالج بضدها وهى البرودة فى شكل عقاقير أو نباتات ، فان النفس تعالج الاغترار بالتواضع ، والحمق بالحكمة فى شكل ممارسات وأدوية نفسية ليستقيم حالها •

٢ ــ الانسـان والالهـام

ينكر كثير من العلميين المحدثين الالهام كمصدر من مصادر المعرفة ، ويعتبرون أن المؤمنين بالالهام كوسيلة معرفية ، لا يخضعون فى آرائهم الى المنهج العلمى الحديث الجدير بالاتباع •

لكنا اذا تفحصنا التاريخ الشخصى لكبار المفكرين والعلماء لوجـدنا واقعة واحدة على الاقل حدثت لكل منهم كان من نتيجتها استكشاف شىء جديد أو استحداث فكرة مبتكرة أو استجلاء أداة لم تكن معروفة من قبل ، وترتب على هذا الكشف أو الاختراع ، أنهم أصبحوا وقد عمت شهرتهم الافاق •••

الا أنه لا يمكن أن ننكر أن هؤلاء المفكرين قد أجهدو أنفسهم فى البحث والتمحيص والدراسة ، ووهبوا جل وقتهم لعملهم الذى تخصصوا فيه ، واتبعوا طرقا وأساليب علمية وعقلانية ، وأجهدوا أنفسهم لتحقيق نتائج ايجابية أو براهين أو أحكام صادقة على فروضهم الاولية ••

ومع ذلك تظل الابحاث والدراسات التجريبيه والاستقرائيه العملية

والعملية ، غير كافية للزعم أنها وحدها التى أوصلت الباحث أو المفكر الى النتيجة الطيبة التى توصل اليها فى بحثه أو دراسته .

هناك عامل آخر غير تجريبى أو عملى أو معملى ربما لم يضعه الباحث فى حسبانه ، ولم يكن فى الحسبان يقال عنه انه جاء بالصدفة أو الاتفاق ، أو ربما يقال عنه أنه نوع من الحدس يلهم به الباحث أو الفنان أو المفكر الهاما ، كأن يقذف فى روعه بمعنى معين أو يهتف بداخله بشىء محدد . وعند ذلك يتقدم العمل المتوقف ويصل الباحث أو المفكر أو الفنان الى نتائج رائعة لم يكن يتوقعها ..

وقد يقضى الباحث فى دراسة ما عدة سنوات ، دون أن يصل الى نتيجة ما ، حتى اذا ما كاد يغلبه القنوط ، ألهم فجأة بشىء معين ، نجم عنه نجاح عظيم فى أبحاثه دون وجود مؤشرات مسبقة على نجاح ذلك العمل أو ذاك .

ويتوجب علينا الان أن نتساءل : من أين جاء ذلك الباحث أو هذا الفنان أو المفكر بهذه النتائج الباهرة يبدو أن هناك رابطة بين التفكير العقلى وبين ذلك الشىء الذى نلهم به ، اذ أنه لو أنكرنا هذه العلاقة ، فاننا بذلك نسحب عن العقل الانسانى مواهبه ، كما أننا نجعل بذلك امكانية أن يصل العامى من الناس بل والجاهل أبحاثا جديدة ويخترع مستكشفات جديدة وهذا انكار لجهد العلماء ومعاناة الباحثين فى العلوم والمعارف المختلفة .

اذ المعروف أن العلماء والمفكرين الذين يستخدمون عقولهم الحكيمة دم وحدهم القادرون على استكشاف الاشياء الخفية ، والتى يعمض على العامة والجهلاء استكشافها .

لكن مع ذلك يبقى العقل البشرى عاجزا عن استكشاف الجديد اذا لم يلهم بطريق آخر غير طريق التجربة ، وهذا الالهام يعد ثمرة يحظى بهـا العالم أو المفكر أو الفنان نتيجة اخلاصه وسعيه الدائب علما وعملا ...

فالرابطة بين العلم والالهام حقيقة مشهودة،ولو أنه يختلف المفكرون فى وصف المصدر المعرفى الذى يستقى منه . الا أنه يبقى سـعى العـالم الدائب يعد وسيلة ناجحة للربط بين استخدامات العقل والالهام .

هناك مصدر معرفى آخر غير العقل والطبيعة يستمد منه العـالم أو المفكر أو الفنان نتائجه ، لكن مع ذلك نحن لا نقبل فكرة الصدفة أو الاتفاق التى ينادى بها بعض العلماء كوسيلة معرفية ... انما نقبل فكرة الالهـام كوسيلة قائدة للنفس لاستكشاف المجهول :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٨٠)

لكن ذلك الالهام — كما ورد عن عز من قائل — يمكن أن يكون الهاما يؤدى الى اثراء معرفتنا ، وبه نتقدم نحو نفع الناس ، وتيسير الحياة ، مما يستكشف فى الطبيعة من سنن لم تكن معروفة لدينا من قبل ، وهـذا يؤدى الى ما نسميه بالتقدم والحضارة الانسانية ...

الا أنه من ناحية أخرى يمكن أن يؤدى الالهام الى تقدم سلبى اذا كانت النفس منحرفة ، وغايتها تحقيق منافع ذاتية أو مصالح شخصية أو آخر عندما تميل النفس كل الميل الى الهوى وطلب الشهوات ..

وهذا النوع من الالهام لا ينفع الناس بقدر ما يضرهم . لكنه ربما يظهر فى صور تجتذب اليه النفس الامارة ويستجيب اليه أصحاب الاهواء والنعرات والقلوب المريضة وتحمل رايته وتنخرط فى دعاويه ومزاعمه وضلالاته .

لكن الله تعالى يلهم الانسان بالحق ، ويهديه الى الطريق المستقيم . أما أصحاب النفس الكذوب الظلوم التى أسرفت وضلت وأضلت ، فان الشيطان وحده هو الملهم الوحيد لهم بما تدعيه من افتراءات وأكاذيب ليجعل الباطل حقا والحق باطلا ، ويأتى الشيطان للانسان بصور متعددة ذكرها القرآن الكريم وورد بعضها فى الاحاديث النبوية الشريفة وهاك بعضها :

المس الشيطانى — اتباع خطوات الشيطان — النزغ الشيطانى — القاء الامانى فى النفس — التزين الشيطانى — الاتباع الشيطانى — الوسوسة الشيطانية — النسيان — الصد عن الحق — عبادة الشيطان — النجوى — الاستحواذ — الحزب الشيطانى — الايعاز بالكفر — الاستذلال — الوعد بالفقر — الامر بالفحشاء — التخويف الشيطانى — القرين الشيطانى — ارادة الشيطان — الكيد الشيطانى — الولاية الشيطانية — العمل الشيطانى — الايقاع الشيطانى — الدعوة الى الشيطان — الاستهواء الشيطانى — الوحى الشيطانى — الاخوة الشيطانية — همزات الشياطين — تنزيل الشياطين .

فالالهام الشيطانى فى المعنى القرآنى يدخل الى النفس الانسانية من مداخل متعددة ، وبصورة مختلفة تربو على ثلاثين صورة ، وكلها تستهدف غواية الانسان وابعاده عن الحق والاستحواذ عليه واستهواءه له والايقاع به والايحاء فى قلبه بالشر ، والتزين له ومسه والقاء الامانى اليه والكيد له، فهو عدو الانسان الاول الذى يتشكل بصور مختلفة مستخدما طرق الخداع والغش والوسوسة والتخاطر ، ليصل بذلك الى ولايته على الانسان وينجح فى ايقاعه فى مصيدة الشرك الاكبر ليجهز عليه تماما ...

فاذا أنكر بعض العلميين والمفكرين هذه الحقيقة ، وأدعوا أنه ليس هناك تأكيدات عن وجود الشيطان كملهم للانسان ، فان ذلك يعد ضربا من الاغترار الانسانى الذى لا تؤيده التجربة الحياتية .. ومعنى هذا الانكار للغواية الشيطانية ، أن الشيطان يستحوذ فعلا على هـــذا النفر من الناس وأنه فعلا من حزبه يدافعون عنه اذ :

« يريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا » (النساء : ٦٠)

ان فضل الله على الانسان هدايته له ، ومن تقرب الى الله ينشد الحق ألهمه بالحق ، ومن اغتر بنفسه :

« أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع . أمن لا يهدى الا أن يهدى »

(يونس : ٣٥)

فان من رحمة الله على الانسان أن بصره بعـــدوه اللدود وبين له المداخل التى يدخل الى قلبه منها ، والوسائل التى يستخدمها لالهامه بالشر والعدوان ، ولولا أن بين الله لنا مكائد الشيطان لاستحوذ على الانسان ..

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا »
(النساء : ٨٣)

لكن كيف يمكن أن يتعرف الانسان على أن ما يلهم به هو من الله أو من الشيطان ... والرد على هذا التساؤل فى غاية اليسر والبساطة ، فاذا كان الامر الذى يلقى فى روع الانسان يخالف شريعة الله ويظلم الناس ويحض على الفساد والافساد ، فانه من كيد الشيطان وحزبه ، وأما اذا كان الالهام أمر بمعروف ونهى عن منكر وصلاح واصلاح فى الارض ونفع وخير للناس كما جاء فى كتاب الله فهو الهام بالحق والصدق والعدل اذ :

« ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » (غافر : ٢٨)

٣ — الذين يعادون أولياء الله

ان الله تعالى يتولى أمر عباده الصالحين ، ولا يكلهم الى أنفسهم لحظة ، بل يتولى الحق تعالى رعايتهم ...

والله تعالى يحفظ الولى الصادق فى السراء والضراء ، لان عبادته لله وطاعته له تعالى تجريان من غير أن تتخللهما معصية أو بهتان ...

ومن شرط الولى أن يكون من الله محفوظا ، كما أنه من شرط النبى أن يكون معصوما ... وكل من خالف الشريعة فهو مغرور مخادع ..

والمعلوم أن حفظ الولى من الله معناه أن الله تعالى لا يجعله يسقط فى الاثم ويتمادى فى الوقوع فى الخطأ والزلل ، فاذا ما سقط فى الاثم ألهمه الله التوبة . واذا ما وقع فى الخطأ ندم ندما شديدا ، ولا يقدح فى ولاية

الولى وقوعه فى الزلل وسقوطه فى الذنب فان الكمال لله والعصمة للانبياء .

لكن اذا تعمد أحد أن يؤذى الصالحين ، فان الله يدافع عنه ، ويساعده ويسانده ويعاونه كما يتعاون المحاربون ضد الاعداء .. واذ تعاون الله مع عبد وسانده فمعنى أن عدوه قد هزم شر هزيمة ، اذ أن من حاربه الله فقد أهلكه ...

فالذين يؤذون من يحبهم الله ويترصدون لهم ويحاربونهم فكأنهم يغضبون الله لانه تعالى يغضب لمن يؤذى من يحبهم ويتولاهم برعايته ويتكفلهم بحمايته ..

ومن ناحية أخرى فان الذين يكرهون من أحب الله ، فكأنما يخالفون الله ، ومن يخالف الله فكأنما يعاند الله وكيف يعاند عبد الله ويتركه الله .. اذ يلزم أن من يعاند الله أهلكه ...

ان ولى الله مشغول بالله ، يلتذ بكلام الله ، ويأنس بمناجاة الله ولا يسمع الا ذكر الله ولا يمد يده الا فى رضا الله .. فكيف لا ينصره الله ويدافع عنه ضد أعدائه ، وكيف لا يبطش بعدوه وهو صفيه وحبيبه .. لذلك فان الله أسرع فى قضاء حوائج عبده الصالح ووليه الصادق من سمعه الذى يستمع به ، ومن عينه التى يبصر بها ، ومن يده التى يلمس بها ، ومن رجله التى يمشى بها ..

وهذا العبد الصالح يكون جار الله عند الانتقال الى الحياة الباقية مع النبيين والصديقين والشهداء فى الجنة ...

ان شرف الولى عند الله رفيع ، ومقامه عظيم ، ودرجته عالية ، لذلك فان سبحانه وتعالى لا يتردد فى أمر مثلما يتردد فى قبض نفس عبده الصالح ، لان الموت لا يحصل الا بألم عظيم جدا ، وذلك عند مفارقة الروح للجسد ، وما دام الله تعالى يحب عبده المؤمن فهو يتردد فى فعل ما يؤلمه .

وفى ذلك دلالة على شرف أولياء الله ومنزلتهم العظيمة ...

ولو كان طول الحياة لاولياء الله خيرا لهم لما قبضهم ، لكن طول الحياة يؤدى الى أرذل العمر وتنكيس الخلق ورد الناس الى أسفل سافلين ... لذلك كان الموت الذى حتمه على عباده أمرا ضروريا قد فرضه الله على العالمين .

فاذا كان هناك أمر لابد أن يفعل بالحبيب لكنه يؤلمه ... فاذا نظرنا الى الالم الذى يؤلم الحبيب لتوقفنا عن الفعل .. واذا نظرنا الى ضرورة الفعل ونفعه برغم ألم الحبيب ، أقدمنا عليه برغم الالم المصاحب للفعل .

لذلك فان الله يتوفى أولياءه كما يتوفى الناس أجمعين . لكن هناك فرقا بين أحباء الله وأعداء الله،أو أولياء الله وأولياء الشيطان ... فأولياء الله فى الجنة ونعيمها وأما أولياء الشيطان فبئس ما ينتظرهم من مصير ... اذ يلقون فى عذاب السعير .

٤ ـ مفهوم الحرية فى الفطرة السليمة

ان أخطر ما يواجه عالمنا الاسلامى بعامة والعربى بخاصة ، استخدام المصطلحات الغربية بدون أن نتعرف على مقاصدها عند أصحابها .. ومن أخطر هذه المصطلحات ، مصطلح الحرية الذى يقصد منه الغربيي

أن يفعل الانسان أى شىء فى حدود القانون الوضعى المتغير لا فى حدود شريعة الله الثابتة .. ومن ثم فان مفهوم الحرية يصبح بهذا المعنى ظاهرة الرحمة وباطنه العذاب ..

ويزعم بعض المستغربين أن مفهوم الحرية كما يفهمه المفكرون الغربيون هو من الثمار اليانعة لانتصارات الحضارة الحديثة ، ويعتبرون هذا المفهوم من المسلمات الاساسية التى لا تقبل نقاشا فى تفاصيلها أو ارتدادا عن مضامينها .

ولا شك أن بعض هذه المسلمات التى يتضمنها مفهوم الحرية عند العلماء الغربيين تبتعد تماما عن المفهوم الاسلامى ومن ثم ، تخالف شريعة الله التى شرعها للناس ...

وكثير من الحريات التى تكفلها القوانين الوضعية الغربية والتى تتمثل فى حرية الرأى مثلا تتيح للمشركين بالله أن ينشروا دعاويهم على الناس فيستجيب لهم بعض الجاهلين ، فيزعمون أن الطبيعة خلقت نفسها بنفسها ولا أثر للخالق .

يستقطب الشيوعيون بعض الشباب فينضموا تحت أراجيفهم بلا وعى وحاكموا ذلك الفكر الملحد الذى يدعى زعيمه لينين أنه لا اله والكون مادة.

كما تتيح الحرية فى مفهومها الغربى حرية ممارسة الجنس ما دام الطرفان راشدين .

ان دعاوى الحريات الغربية واصلت ارهاصاتها الفوضوية حيث أصدرت تقنينات تبيح العلاقات غير المشروعة مع الجنس الواحد « المثلية الجنسية » ، وهذا أسوأ ما انحدر اليه مفهوم الحرية عند الغربيين ...

ويمكن قياسا على ذلك ، أن نعطى أمثلة أخرى لتوضيح مفهوم الحرية عند الغربيين باعتباره مفهوما قد ابتعد تماما عن الفطرة السليمة ، وهـذا يمكن أن تجده فى حرية المعاملات الربوبية فى النظامين الاقتصاديين الحر والمـوجه ...

ان الله تعالى حدد للانسان طريق الاستقامة والقوامة والعدل وبين للانسان ما يجب أن يفعله وما لا يجب أن يفعله ، فان ناطح الانسان شريعة الله وابتعد عن الصراط المستقيم بدعوى الحرية فقد ضل سواء السبيل ..

فاذا كانت حرية المعاملات الربوية فى الاقتصاد الليبرالى والموجـه على السواء أساسية لا يمكن التنازل عنها .. فان هذه الحـرية يشـجبها التشريع السماوى فى وضوح تام « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

وكذلك الامر بالنسبة لفوضى الجنس ، فقد حرم الله الزنا واللواط ، وقال تعالى :

« ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا » (الاسراء : ٣٢)

كما أن الله تعالى منع المشركين أن ينفثوا سمومهم فى المجتمع الاسلامى فيلوثوا عقول الناس بالفساد والافساد ...

« قل انما أدعوا ربى ولا أشرك به أحدا » (الجن : ٢٠)

ولا يسمح الاسلام للمؤمن أن يدعو الى الحرية الفوضوية وأن يؤمن بما ليس به علم ولا هدى ، فيتبع أصحاب الاهواء الذين يجعلون من الحق باطلا ومن الباطل حقا ، ويضلون الناس عن سواء السبيل ..

ليست الحرية تلك التى تدعو الى مقارفه الاثم ، واتيان الفواحش وانكار الحق واظهار الباطل والافساد فى الارض بالبعد عن مطرة الله التى فطر الناس عليها .. فكيف نسمح لهؤلاء الذين يريدون أن ينشروا الفساد والافساد بدعوى ممارسة الحرية كما يفهمها الغربيون أن يعلنوا على الملأ أراجيفهم ويتقولوا على الله كذبا ..

ان الحرية فى مفهومها الاسلامى تلتزم بالعبودية لله ، فاذا خرجت عن ذلك المفهوم .. أصبحت هى الفوضى بعينها ... حيث تخــرج بذلك عن حكم الله وأمر الله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »

(المــائدة : ٤٤)

٥ ــ أدلة الاعجــاز القــــرآنى

يشتمل القرآن الكريم على مائة وأربعة عشر دليلا معجزا ، وهى تمثل عدد سوره ، والكتاب الكريم يتحدى الطاعنين لسوره الطوال كما يتحداهم بسوره القصار سواء بسواء ...

وكتاب الله الكريم نفسه دليل على صدق رسالة الرسول ﷺ ، وأن فى كل سورة منه دليل على العجز البشرى عن امكان الاتيان بمثلها ... ونجد هذا التحدى واردا فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع ..

الموضع الاول :

« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وأدعوا شهدائكم من دون الله ان كنتم صادقين » . (البقرة : ٢٣)

الموضع الثانى :

قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القـرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا • (الاسراء : ٨٨)

الموضع الثالث :

ا م يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعـوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين • (هود : ١)

الموضع الرابع :

ا م يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين • (يونس : ٣٨)

الموضع الخامس :

أ م يقولون تقوله بل لا يؤمنـون ، فليأتوا بحـديث مثله ان كانوا صـادقين • (الطور : ٣٣،٣٤)

لذلك فان المنكرين للقرآن الكريم ونبوة محمد ﷺ لم يقدروا على مر الايام والسنين على معـارضته ، لمـا يحتوى القـرآن فى ذاته على أدلة اثبـاته •

كما أن الله سبحانه وتعالى ،قد حفظه من النقص والعجز والضياع والتحريف . وذلك فى قول عز من قائل :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر : ٩)

وما يزال القرآن محفوظا وسيظل محفوظا الى أن تقوم الساعة ، وكما أخبر بذلك الرسول ﷺ . فى قول عز من قائل :

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » (فصلت : ٣)

ان القرآن الكريم يحتوى على أدلة عديدة تزيد المؤمن ايمانا به ، وتجعل الكافر يعض على يديه من الغيظ ، لانه لا يستطيع أن يدحض حججه وآياته البيانات ولا يستطيع الا أن يقف عاجزا أمام القرآن الكريم، حيث أن أدلة التعجيز تجعله محصورا مغلوبا على أمره ، وهذا من أسرار كتاب الله العظيم ، وعجائب التنزيل .

ان القرآن الكريم يتحدى بأدلته الواضحة وحججه القاطعة التى لا تقبل الشك ، يتحدى أضغاث الكافرين ودعاوى الطاعنين المتهافتة ، فيقول عز من قائل متحديا لهم :

« فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ... » (البقرة : ٢٤)

ويقول لليهود فى حجة قاطعة ودليل واضح :

« قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس ، فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » . (الجمعة : ٦،٧)

واذا ما أردنا أن نفرد بحثا فى أدلة القرآن الكريم احتاج ذلك منا لاكثر من كتاب ، اذ أن الادلة على صدق الرسول ﷺ ، وأن القرآن الكريم [illegible] الله عز وجل مؤيدا بالوقائع التى حدثت وتحدث فى عصر الرسول [illegible] جميع العصور ، مثل قول عز من قائل :

« لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون » (الفتح : ٢٧)

وقد تحقق ذلك فعلا كما تحققت فى الاية الكريمة :

« ألم غلبت الروم ، فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » . (الروم : ١،٤)

والله سبحانه وتعالى يعلم ما فى قلوب اليهود الذين أنكروا رسالة محمد ﷺ ، برغم أنهم يعلمون أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى ولذلك يقول عز من قائل :

« والذين أتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من المتمردين » (الانعام : ١١٤)

وهذا يدل على اعجاز القرآن الكريم وقدرته على الافحام بحيث لا يملك الطاعن ردا أو دليلا فهو يقرأ ما فى نفسه ظاهرا وباطنا فهل بعد ذلك اعجاز ..؟؟

المـــــراجع

١ ــ ابن تغرى بردى الاتابكى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة •
٢ ــ ابن خلدون : المقــدمة
٣ ــ ابن شاهين الظاهرة : الاشارات فى علم العبارات •
٤ ــ ابن سيرين : منتخب الكلام فى تفسير الاحلام
٥ ــ ابن عطاء الله السكندرى : التنوير فى اسقاط التدبير •
٦ ــ ابن القيم الجوزية : زاد المعــاد •
٧ ــ أبو العباس زروق : قواعد التصوف •
٨ ــ أبو نعيم الاصبهانى : حلية الاولياء ، أجزاء من ١ــ١٠ •
٩ ــ الحكيم الترمذى : ختم الاولياء ، بتحقيق د• عثمان يحيى •
١٠ ــ السيوطى (جلال الدين) : حسن المحاضرة •
١١ ــ الطــوسى : اللمــع
١٢ ــ الســـــطوحى : التصوف وأقطابه •
١٣ ــ الشــبلنجى : نور الابصــــار •
١٤ ــ الشــطنوفى : الاسرار •
١٥ ــ الشعرانى (عبد الوهاب) : الطبقات الكبرى •
١٦ ــ صــلاح عــزام : أقطاب التصوف الثلاثة •
١٧ ــ د• عبد الفتاح بركه : الولاية عند الحكيم الترمذى •
١٨ ــ عبد القادر الجيلانى : الفتح الربانى والفيض الرحمانى •
١٩ ــ عبد القادر الجيلانى : الغنية لطالبى الحق •
٢٠ ــ د• عبد الحليم محمــود : السيد أحمد البدوى (دار الشعب)
٢١ ــ •••••••••••• : أبو الحسن الشاذلى (أعلام العرب) •

٢٢ — عبد الله بن المبـارك : كتـاب الزهـد .
٢٣ — عبد الغنى النابلسى : تعطير الانام فى تعبير المنام .
٢٤ — العيدروسى : القطب الكبير الرفاعى .
٢٥ — الغزالى (أبو حامد) : احياء علوم الدين (دار الشعب) .
٢٦ — .... : الكشف والتبين .
٢٧ — الكلاباذى (أبو بكر) : التعرف لمذهب أهل التصوف .
٢٨ — القشيرى (أبو القاسم) : الرسالة القشيرية .
٢٩ — .... : التحبير فى التذكير : بتحقيق د. ابراهيم بسيونى
٣٠ — المحب الطبرى : الرياض النضرة .
٣١ — محمد طاهر حكيم : السنة فى مواجهة الاباطيل .
٣٢ — المنـاوى (عبد الرؤوف) : الكواكب الدرية .

*** للمـؤلف :**

— الحكومة الباطنية .
— ألفاظ الصوفية ومعانيها .
— الكوكب الشـاهق .
— نحو علم نفس اسلامى .
— نحـو تربية اسـلامية .

الفهـــــرس

الفصـــل الاول :

الفصـــل الثــانى :

الفصـــل الثالث :

طبع بمطابع جريدة السفير